

المحروسة

الكتاب : المحروسة

المؤلف : عمرو عادل

تصميم الغلاف :

تدقيق لغوي : أحمد أسامة

رقم الإيداع : 2016/14323

الترقيم الدولي : 978-977- 778-063-6

الطبعة الأولى : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-011-27772007 02-35860372

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر



المحروسة

رواية لـ

عمرو عادل

للنشر
والتوزيع

obeikandi.com

الإهداء

إلى كل من قرأ كلماتي تلك وأعطاني ثقته رغم أن هذا عملي الأول.

إلى كل من ساندنى ووقف إلى جانبي - وهم كُثُر - حتى خرج هذا الكتاب إلى النور.

إلى عائلتي الصغيرة التي تحملتني وساندتني وأهملتني الثقة طوال فترة الكتابة وما بعدها من مشوار النشر الطويل.

إلى أسره دارنون العزيزة التي وعدت فأوفت وحققت أملاً لظالما ظننت ألا يكون.

وأخيراً وليس أخراً إلى المعلم والقذوة والنبراس الذي تعلمت حب الكتابة من إبداعاته العراب الدكتور أحمد خالد توفيق.

obeikandi.com

العام : 1849 م

المكان: ميناء الإسكندرية.

الحدث: وصول الباخرة أوزوريس من فرنسا.

في يوم مشمس من أيام الصيف الدافئة وفي مدينة الإسكندرية حيث مينائها المفعم بالحركة والضجيج .. وعلى غير العادة ساد الصمت والهدوء في أرجائها والسبب هو حضور عباس باشا والى مصر والسودان إلى الميناء لاستقبال البعثة العلمية الخامسة القادمة من فرنسا والتي كان قد أرسلها جده محمد على باشا منذ حوالى خمس سنوات ضمن عدد كبير من البعثات كان يرسلها إيماناً منه بحق مصر والمصريين في العلم والتعليم حتى يبني دولة بأيدى أبنائها لا تقل حدائة وتقدمًا عن دول الغرب .. إلا أن مراده لم يتحقق بفعل المرض حيث داهمه الخرف فعُزل عن الحكم و تولى من بعده ابنه إبراهيم باشا والذي لم يمكث في الحكم إلا سبعة أشهر وتوفى في نوفمبر 1848م وتولى حفيد محمد على بحسب معاهدة لندره والتي تقضى بتولى الأرشد فالأرشد من نسل محمد على حكم مصر وكان أكبرهم آنذاك حفيده عباس حلمى باشا .. وما لبث محمد على أن وافته المنية في أول أغسطس من عام 1849م عن عمر يناهز الثمانون عامًا ودفن في المسجد الذى شيده ويحمل اسمه بالقلعة .. ومن ثم استقر الحكم لعباس الذى انفرذ بمقاليد البلاد .. وكان أول قراراته استرجاع جميع البعثات المرسله إلى الخارج وسرعة إسهامهم في خدمة البلاد.

ويعود السبب الرئيسي في حضور الوالى بنفسه للإسكندرية هو أن السفينة كانت تحمل على متنها أربعة من أفراد عائلته كانوا ضمن أفراد البعثة العائدة وهم عمه الأمير محمد عبدالحليم ابن محمد على والذى لم يتجاوز من العمر سبعة عشر عامًا وابنى عمه إبراهيم باشا الأمير أحمد رفعت البالغ من العمر ستة وعشرون عامًا وأخيه الأمير إسماعيل البالغ من العمر تسعة عشر عامًا.

لذا نرى الوالى عباس جالسًا داخل عربة تزدان أركانها الأربعة بالذهب وتعلو العربة قبة لامعة من الذهب الخالص ترهق أبصار الناظرين إليها من فرط تألقها تحت أشعه الشمس وتجرها الخيول المظهمة والتي علقت بأعناقها الأجراس المجلجلة في حين وقفت العربة تحوطها العديد من العربات الأقل بهرجة منها بينما وقف الخيالة مرتدين بدل التشريفة كاملة الزينة وقد أمسك كل منهم بلجام فرسه راسمًا على وجهه علامات الجد والانتباه.

وبداخل عربة الوالى جلس عباس باشا متململاً وبجانبه ابنه الأكبر إلهامى البالغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً وقد لاحت على وجهه القسيم نظرة امتعاض شديدة وهو يقول لوالده : لا أعلم لم كل هذا التكلف والعناء من أجل استقبال حفنة من الطلاب.

عباس : حفنة من الطلاب ألا تعلم أن فيهم أبناء جدنا محمد على باشا وأحفاده!

إلهامى : بلى أعلم .. لكنه هو الذى طالما بالغ في تدليلهم فأرسلهم إلى بلاد الإفرنج بحجة التعلم حتى يتسنى لهم اللهم كيفما شاءوا بعيداً عن أعين الرعية بالمحروسة.

الباشا: وها نحن عندما استقر لنا أمر البلاد .. صدرت إرادتنا
برجوعهم إلى الديار حتى نجى ثمار ما تعلموه.

إلهامي: يا والدي أنت تعلم جيداً أن جنى العلم من تلك البلاد لا
يجلب معه إلا المفاسد والانحلال إلى قطرنا وليس دليل على نجابة ذهن
فأنت الوحيد من أبناء العائلة الذي لم تتلق العلم بالخارج وعلى الرغم
من ذلك يشهد بفطنتك وفراستك القاصي والداني.

ظهرت السعادة والحبور على وجه عباس باشا إثر هذا المديح وقال
وهو يمرر يده على لحيته الكثيفة: حقاً لم يجلبوا معهم إلا المفاسد ولنا
في ذلك المدعو رفاة بك الطهطاوى بليغ الأثر فما زال يطمس كل أشكال
الثقافة الإسلامية من مناهج التعليم بحجة التمدين الذي جلبه معه من
فرنسا تلك البلد التي طالما حاولت أن تعوض ما فاتها من غزو مصر
عسكرياً بغزوها ثقافياً واجتماعياً وأدبياً.

إلهامي: نعم يا والدي يجب أن يكون لك مع هذا الطهطاوى وقفه
حاسمة حتى يكون عبرة لمن تسول له نفسه أن يتعدى على ثقافتنا
الإسلامية والشرقية الأصيلة.

زفر الباشا في ضيق وتبرم: نعم ولكن لا أعلم لم تأخر نزلاء تلك
الباخرة في الهبوط إلى الآن فالمفترض أن يكونوا هم في استقبالى وليس
العكس.

وألقى نظره ملولة عبر زجاج عربته على الباخرة الواقفة أمامه.

في إحدى غرف الباخرة أوزوريس وقف محمد شريف أفندي أحد الطلاب العائدين من البعثة وهو شاب في الثالثة والعشرين من العمر بهى الطلعة عريض الجبهة أسود العينين والشعر ممشوق القوام أبيض البشرة .. ووقف يتطلع إلى صورته في المرآة وهو يعدل من هندامه وطربوشه وحسن تنسيق حلته الجديدة .. وإذا بطرقات صاخبة على باب غرفته جاوبها شريف قائلاً: إنتظريا إسماعيل أنت دائماً متعجلٌ هكذا في كل شيء.

وفتح الباب ليظهر الأمير إسماعيل وهو شاب تبدو عليه أمارات الأصل الأرسقراطى العريق والتي لا يضاهاها إلا بريق عينية اللامعتين والتي تشعان ذكاء ونباهة .. وفي تلقائية دخل إلى الحجرة قائلاً: بل أنت الذى لا تدرك قيمة الوقت .. ألم تجهز حالك إلى الآن يا أفندي؟

رد عليه شريف مسرعاً: لا والله لقد ارتديت ملابسى منذ دهر وفي انتظارك أنت وأخوك أحمد وعمك الصغير عبدالحليم وصاحبنا على مبارك حتى نازل سوياً من الباخرة.

إسماعيل: لا أعلم لم تأخروا هكذا .. فقد مررت على حجراتهم جميعاً ولم يرد علىّ منهم أحد.

شريف: قد يكونوا منهمكون بجمع متعلقاتهم قبل مغادرة السفينة .

إسماعيل: ألم تلق نظرة على الموكب المهيب الذى ينتظرنا بالأسفل حيث هذا العباس وولده.

أسرع شريف يغلق باب الحجرة وهو يصيح: يا أخى اتق الله سوف تلقى بي إلى التهلكة اسمه أفندينا عباس باشا أطل الله بقائه.

إسماعيل مازحًا: بل قصف الله عمره ألم يكن هو الذى استدعانا من أرض الجمال فرنسا حيث مدينة التمدن والرقى باريس.

شريف: أنتم عائلة بعضكم من بعض أما العبد الفقير إلى الله فليس له بين الملوك والأمراء نصيب فتطير رقبتى عند أول بادرة سوء تصدر منى لذا فارفق بى واملك عليك لسانك.

إسماعيل: من الذى يطير رقبتك؟ هذا العباس الأبله والله لولا إرادة الله حيث توفى والدى إبراهيم باشا لما كان لهذا الجاهل ذكر.

ثم اكتسى صوته بالجدية قائلاً: وأنت لا تقلل من شأنك وسط أولئك القوم ولا تنسَ انك ابن قاضٍ قضاة مصر.

شريف: رحمه الله لقد كان ذلك منذ زمن طويل ومعظم الناس الآن لا تذكر عن اسمه او منصبه شيء.

إسماعيل: رحمه الله .. لكن لا تنسى أن محمد على باشا قد رعاك واعتبرك مثل أبنائه وأحفاده فأصبحت واحداً منا .. ما يمسك يمسنا وما يُسينك يُسيننا، وكان أبى يوليك رعايته كأى فرد من عائلته فلا تعطى الدنيا فى نفسك يا شريف.

شريف: رحم الله أباك وجدك كانوا فى القلب بمنزلة الوالد والجد .. وقد عوضنى الله بهم عن فقدان الأحبه والأهل.

حوى صوت إسماعيل كثير من الحزن وهو يقول: إن أشد ما يحزننى هو وفاه أبى وجدى وأنا بالخارج .. فلم تتح لى فرصة إلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليهما.

قال شريف محاولاً مواساته: بل على العكس من ذلك فإن وجودك بالخارج قد خفف عنك كثيرًا من ألم الفراق والبعاد.

إسماعيل بصدق: إن أشد ما خفف عنى ألامى هو وجودى فى صحبتك أنت وبقاى الأصدقاء كعلى مبارك ..

قاطعه طرقات رزينة على الباب فقال إسماعيل بسرعة وقد استعاد مرحة المعهود: أكيد هذا هو على مبارك.

وأسرع يفتح الباب وإذا بشاب فى الخامسة والعشرين من عمره متوسط الطول يبدو على محياه علامات النبوغ والنجابة أسمر اللون عريض الجبهة يعلو شفته العليا شارب كبير منمق متصل بلحية مشدبه بعناية تطل من عينيه الواسعتين أمارات الجدية والعزم وقد ارتدى حلة أقل وجاهة من صاحبيه .. وما أن دلف إلى الحجرة حتى صاح فيه إسماعيل: ما حكايتك يا على يا مبارك لقد مررت عليك قبل أن آت إلى هنا ولم تفتح لى باب حجرتك.

على: يا سمو الأمير كنت فى الحمام أغتسل قبل أن أقابل سعادة صاحب السمو أفندينا عباس باشا أطلال...

قاطعه إسماعيل: يا سيدى خلاص عرفنا إنكم قد اتفقتم مع بعضكم البعض كى تقضوا على كمدنا من الغيظ ثم ما هى حكاية سمو الأمير هذه؟!

على: طبعًا سمو الأمير فنحن الآن على أرض يحكمها قومك .. أما فى باريس فكنت أخطبك باسمك مجردًا لأننا كنا فى مدينة المساواة والحرية.

إسماعيل في حدة: اسمع يا على أنت تعلم جيدًا بعدى عن شؤون الحكم والإمارة فلا أريد منها شيئاً ولست من المرشحين لولاية البلاد كما تعلم كرهى للتسلطن والمتسلطنين فإذا كنت ترغب في مصاحبتي فلا تخاطبني بهذا اللقب بعد اليوم.

على مبتسمًا: طيب يا سيدى لكن لا تغضب بعد ذلك عندما أناديك يا سُمعة.

وانطلق الجميع في نوبة من الضحك.

اصطف الطلاب في طابور وأخذوا في التقدم الواحد تلو الآخر لينالوا شرف السلام على صاحب السعادة الوالى .. الذى أخذ يسلم عليهم في تأفف ونفاذ صبر واضحين وقد أخذ بين الحين والحين في إلقاء بعض الدعابات السمجة والتي يسخر فيها بوضوح من الطلاب على مسامع بعض رجالات الدولة الواقفين بجانبه .. وما أن انقضى الطابور حتى نادى الحاجب على الأمراء أن اركبوا في صحبة موكب عباس باشا فلبى الأمراء وانطلق الموكب إلى سراى رأس التين وانفض الجمع وغادر كلُّ إلى مراده.

دلف شريف أفندى إلى مسكنه الذى لم تطأه قدماه منذ أكثر من خمس سنوات .. ووقف برهة يتأمل المسكن وكأنه يستعيد ما افتقده من ذكريات خلال فترة بعثته ثم انحنى ليحمل حقيبته لولا أن استوقفه صوت عم إدريس الخادم النوبى طيب القلب الذى كان يعمل في خدمة والده وأبى أن يترك العمل بعد وفاته وأصر بنفسه على تخفيض راتبه

الشهري لعلمه بعدم استطاعة شريف أن يدفع الراتب العالى الذى كان يدفعه والده، وظل مستيقظاً حتى وصل شريف إلى البيت فأسرع الخطى إليه قائلاً وهو يحمل عنه الحقيبة: حمداً لله على سلامتك يا سيدى لماذا لم تنادِ على فور وصولك بسلامة الله؟

شريف: لم أرد أن أزعجك يا عم إدريس فأنا أعلم أنك أصبحت رجلاً عجوزاً وتهوى النوم مبكراً.

الخادم: رحم الله أباك .. كيف أنام وأنا لم أطمئن بعد على وصولك سالمًا بحمد الله من سفرك الطويل يا بنى.

وأسرع الخطى إلى غرفة النوم فوضع الحقيبة وشريف ينظر إلى كل ركن من أركان المنزل وهو يقول: والله يا عم إدريس لقد أوحشتى وأوحشتى طيبة قلبك.

وضع إدريس الحقيبة واستدار ليغادر الحجرة قائلاً: بدل ملابسك ثم تعال إلى غرفة الطعام لتتناول العشاء .. لقد أعددت لك طعاماً مصرياً شهياً لم تأكله طوال سنوات بعثتك الطويلة بالخارج.

شريف: يعلم الله مبلغ شوقى لمصر وإلى كل ما يمت لها بصلة.

ثم خرج الخادم إلى الخارج وأغلق الباب خلفه وما أن فعل حتى غرق شريف فى بحورٍ من الذكريات .. فوقف متطلعاً إلى صورة أبيه الذى كان محمد على باشا وإبراهيم باشا يرون فيه مثالا للرجل الشريف الذى أفاد الدولة العلوية فقد عمل أباه قاضياً فى جميع أقطار الدولة العثمانية إلا أن نقطه التحول فى حياته وحياة أسرته كانت عندما حضر إلى مصر

كقاضى معين من قبل الباب العالى لمدة سنتين وعلى الرغم من أصوله الشركسية بلغ ارتباطه بمصر وأهلها مبلغاً عظيماً فعز عليه فراقها إلى بلدٍ آخر وكان ذلك مع بداية فترة الجفاء التى وقعت بين محمد على ودولة العثمانيين فأعانه الباشا على تحقيق مأربه وكان له الملاذ والركن الحصين وعينه قاضى قضاة مصر.

وتذكر شريف وفاة أمه وهو بعد ابن عشر سنوات ولم يجد أبوه بُدًّا من تقديم استقالته إلى الباشا حتى يتفرع لرعاية ولده الصغير.. فوافق محمد على وأجرى لهم راتباً شهرياً مقابل عمل والده كمستشار له واستمر بهم الحال حتى رآه الباشا وهو مع والده فى يوم الحفل المقام لتوديع حملة الضباط والجنود المرسله إلى بلام الشام تحت قيادة إبراهيم باشا حيث أخذ الوالى يداعبه ويلطفه وفى نهاية الحفل أخبر أبوه برغبته فى ضم شريف إلى المدرسة الحربية بالخانكة التى يتعلم بها بعض أنجاله وأحفاده فارتبك أبوه ولم يجد بُدًّا إلا أن أطاع رغبة الوالى التى تتعارض مع هوى نفسه ودخل شريف إلى المدرسة الحربية ودخل أبوه فى حالة من الحزن والاكتئاب على ولده لم يخرج منها إلا عندما أخبره الوالى بأنه يستطيع رؤية ابنه وقتما شاء ففرح قلبه بهذا الخبر فرحاً عظيماً ثم توالى السنوات حيث داهم المرض والده ولم يلبث إلا أياماً قليلة حتى لحق بوالدته فواساه محمد على باشا فى مصابه وأجلسه بجانبه وقال له بصوتٍ عطوف: يا شريف إن رحل أبوك فأنا أبوك الحى إنك لى كابتن من أبناى فلا تحدثك نفسك بأنك صرت اليوم وحيداً و لتعلمن أن أسرتك اليوم صارت أسرة محمد على.

ومرت سنوات أخرى وجاء وقت البعثة التي طالما حلم بها شريف وأعد لها بالجد والاجتهاد حتى تحقق له مراده وترشح لها، ثم تذكر أيام البعثة حيث توطدت علاقته بإسماعيل ابن إبراهيم باشا هو وأخوه الأكبر أحمد رفعت وكذلك عبدالحليم ابن محمد على وتذكر حسين ابن محمد على الذي اصطحهم في بعثتهم إلى فرنسا ثم داهمه المرض المفاجئ ولم يلبث غير قليل حتى وافته المنية وهو في عمر الزهور فغمَّ الجميع لفراقه وهم أقاربه الثلاثة بالعدول عن البعثة والعودة إلى مصر لولا زيارة إبراهيم باشا المفاجئة لفرنسا حيث اطمئن إلى حالهم وشد من أزرهم كذلك كرم أفراد البعثة المتفوقين وتودد إليهم وأجلسهم معه على مائدة الطعام فتناولوا معه العشاء فكان ممن كرمهم على مبارك صديقهم والذي كان مثلاً للطلاب المجتهد المثابر على التعلم والاستذكار وكان لزيارة إبراهيم باشا أشد الأثر في تجدد عزيمة الطلاب وعوده روح التنافس فيما بينهم فبرع كل منهم في مجاله وكان تخصص شريف في الفنون الحربية حيث التحق بمدرسة سان سير التي ذاعت شهرتها في التعليم الحربي العالي، فتقدم فيها ووصل إلى أعلى فرقها، ثم انتقل إلى مدرسة تطبيق العلوم الحربية فظل بها سنتين، والتحق بالجيش الفرنسي ليؤدي مدة التمرين كما تقضى النظم العسكرية ونال رتبة يوزباشى أركان حرب فوصل في العلوم الحربية وفنونها إلى أرقى مراتبها إلى إن تم استدعاء البعثة من فرنسا فتحتم عليه الرجوع إلى مصر وكان.....

قاطع سيل ذكرياته المنهمر صوت عم إدريس من خارج الغرفة: الأكل سيبرد يا سيدي.

وقف شريف مشدوهاً لبرهة من الزمن وكأنما أفاق من حلم عميق
وانتبه إلى أنه لازال مرتدياً حلته فأسرع بخلعها ليلى نداء المعدة.

على شاطئ مدينة الإسكندرية وقف قصر رأس التين شامخاً مهيباً
بأسواره العالية وحديقته المزدانة بأندر أنواع الأشجار والزهور ومبانيه
المرتفعة المزخرفة بأيدي النحاتين المصريين المهرة والمصممة بإبداع
المهندسين الفرنسيين فخرج آية في الروعة والجمال وبداخل جدران
القصر تقبع قاعة الاستقبال الكبيرة حيث كان محمد على يستقبل بها
ضيوفه ويعقد فيها مجالسه إذا أتى إلى الإسكندرية، وقد كان الذى يقيم
فيه بصفة دائمة هو الأمير محمد سعيد ابن محمد على حيث قربه من
الأسطول والترسانة البحرية التى نشأ وترعرع فى ربوعها حتى وصل لقيادتها
وهو أيضاً ولى عهد الدولة حيث يعد ثانى أكبر أبناء الأسرة العلوية سناً ..
وكان برقى أخلاقه يترك مجلسه لوالده إذا حضر إلى الإسكندرية ومن بعده
لأخيه إبراهيم باشا واليوم يتركه للوالى الحالى ابن أخيه عباس باشا ..
حيث تصدر عباس باشا المشهد بداخل القاعة وابنه الأمير إلهامى جالساً
بجواره وقد اصطفى المقاعد عن اليمين واليسار فجلس سعيد باشا على
اليمين وجانبه أخيه الأمير عبدالحليم وعلى اليسار جلس الأمراء أحمد
رفعت وإسماعيل وأخوهم الثالث الأصغر الأمير مصطفى فاضل الذى جاء
بصحبة الوالى لاستقبال أخويه .. وقد ابتداء عباس باشا الكلام قائلاً:
اليوم يلتقى الفرقاء ويجتمع الأمراء بعد فرقة وشتات خمسة أعوام ..
فمرحباً بعودتكم من جديد بين أهلکم وأحبابکم.

ربت سعيد بحنو على كتف أخوه عبدالحليم قائلاً: نعم والله يا مولانا
لقد نطق لسانك بالحق فلقد عانينا الأم البعاد لفراق الأحبة والأخلاء
فيالسعدنا بالوصال وبالسرورنا باللقاء.

وتحدث أحمد رفعت قائلاً بصوت حزين: يعلم الله كم قاسينا في
غربتنا من البعاد والفراق خاصة عندما علمنا بموت جدنا المغفور له
محمد على باشا ووالدنا البطل إبراهيم باشا فزاد علينا المصاب لعدم
وصالهم في آخر عمرهم ولكن لله الأمر من قبل ومن بعد.

وهنا تحدث إلهامى والذى ثقل على نفسه هذا المدح للأسلاف
الغابرين في حضرة والده: الحمد لله الذى أخلصكم فى مصابكم بخير
الخلفاء ففيه العوض والأمل فالتفوا حوله ولا تحيدوا عن دربه فتنقطع
بكم السبل وكونوا له عوناً يكن لكم مؤلاً رحيماً.

وصاح مصطفى فاضل والذى كان يصغر إسماعيل بعام مدهاناً: نعم
الخلف مولانا ولى النعم حفظه الله ورعاه وسدد خطاه إنما نحن يمينه
نعمل على توطيد ملكه ودعم أركانه ندافع عنه بأرواحنا.

ابتسم عباس منتشياً وعلق قائلاً: بوركت يا أمير مصطفى وبورك
بيانك فأنت على حداثة سنك تبدى نجابة ونبوغاً مبكرين.

ثم استطرد قائلاً: لقد نطق الأمير مصطفى بما وددت مفاتحتكم به
اليوم وذلك فى أول لقاء يجمعنى بأمرء العائلة بعد جلوسى على أريكة
الحكم بالمحروسة .. إن كل ما أطلبه منكم أن تكونوا أداة للبناء لا معولاً
للهدم فأنتم الأمراء وأقرب الأقربين لى فى ملكى فكونوا عونى وعدتى
وعتادى فى الأخذ على يد الطامعين والمتأمرين على ملكى ومللكم.

فقال عبدالحميد بقلق: حفظ الله ملك آبائنا.

كان كلام الوالي مهمًا ما جعل القلق يدب في نفوسهم ودفع إسماعيل ليقول: أستشعر من كلام أفندينا أن هناك خطرًا محققًا بالبلاد فهلا اتسع صدركم للإفصاح عن كنه تلك المخاطر لنعد للأمر عدته ونكون عند حسن ظنكم بنا.

نظر لهم الباشا مليًا ثم قال: إن المخاطر لتحقق بنا من الداخل ومن الخارج على حدٍ سواء فلا ثقة البتة في الإفرنج بعدما ظهرت لنا نواياهم من تأمرهم على ملكنا فإنهم لم يجتمعوا إلا حول قضية واحدة وهي الحد من تقدمنا وجعلنا في أذيال الأمم وقد كان ذلك فيما مضى نظرًا لتطلعات جدنا محمد على التوسعية فقد كان يأمل في بناء مجده الخاص والخروج عن عبائة الخلافة الإسلامية والمتمثلة في الباب العالي مما جعل العالم يناصبنا العداة، ولكن قدر الله هذا الأمر حتى نعلم عدونا من صديقنا فبات جليًا لأعيننا أن الغرب لا يأتي منه إلا كل الشرور...

كان إسماعيل يحاول كبح جماح نفسه من الانفعال بسبب كل ما قيل من قبل الوالي فقد كان إسماعيل على خلاف رأى الوالي فهو يرى أن للغرب خاصة فرنسا أيادٍ بيضاء على مصر وعلى نهضتها الحديثة لذا فقد قال مقاطعًا: اسمح لى يا أفندينا أن أختلف مع شخصكم حول موضوع الغرب هذا فلفرنسا...

قاطعه الوالي صائحًا بحدة: أنا لم أنتهى من كلامى بعد يا أمير.

تلعثم إسماعيل أمام حدة الباشا المفاجئة ولكن نفسه الشابة طاقت إلى خوض غمار المعركة لنهايتها وهَمَّ بالاحتجاج ثانية لولا نظرة جانبية من

عين أخوه أحمد رفعت حدجه بها فأسكتته ثم التفت إلى الوالى قائلاً: كلنا أذان مصغية يا أفندينا تفضل باستئناف كلامك.

نظر عباس من جديد إلى إسماعيل في صرامة ثم واصل كلامه قائلاً: إننى أرى أن الدول الأوروبية لا تحمل لنا أى خير وما ترتديه أحياناً من ثوب الحمل فى بعض تعاملاتها معنا ما هو إلا غطاء تستتر به لإخفاء مأربها وهو فرض ثقافتها الغربية النجسة وطمس ثقافتنا العربية والشرقية الأصيلة.

ثم استطرد قائلاً: هذا بخلاف الخطر المحدق بنا من الداخل متمثلاً فى مطاعم بعض أبناء عائلتنا الساعين لنزع مكتسبات مالية وسياسية ليست من حقهم فبعضهم يطمع بولاية محافظة أو إقطاع وأخرون يطمعون باستنزاف أموال العائلة غير عابئين بما يترىص بنا من مهام جسام نحتاج فيها إلى كل ما ورثنا من أموال.

ثم استطرد وهو ينظر للجميع فى حدة وصرامة قائلاً: وأقول للجميع أننى لم ولن أكن أبداً لقمة سائغة فى أفواه الأكلين بل سيجدوننى شوكة فى حلق كل مترىص متآمر على ملكنا وبلادنا.

كان يتكلم ولحيته وجسده يهتزون من الانفعال وكان الحاضرون ينتظرون انتهائه من كلامه حتى يطرحوا وجهة نظرهم ويناقشوه فى آرائهم إلا أنه هبَّ واقفاً وهو يقول ملوحاً بيديه: هذه هى سياستى فى المرحلة القادمة فمن وجد فى نفسه قبولاً لمعاونتى فأهلاً وبها ومن كان يجد فى كلامى ما لا يوافق هواه فليلزم صمته ولا يُعين علىَّ أحدًا أبداً وليحذر غضبى فإن عقابى لشديد.

قال الجزء الأخير وهو ينظر إلى إسماعيل نظرة دات معنى ثم استحث
الخطى منطلقاً خارج القاعة وخلفه ولده تاركاً خلفه موجة متباينه من
المشاعر بين الغضب والدهشة والقلق والخوف مما تحمله الأيام القادمة.

في غسق الليل وفي داخل أروقه قصر رأس التين حيث الدور العلوى
والمسمى بالجرمك جلس الأمير محمد سعيد مطرفاً رأسه شاردًا في أفكاره
لم ينتبه إلا ومن تضع يدها البضة على يده فالتفت محدقًا لوهلة ناظرًا
إلى ذلك الوجه الحسن والثغر الباسم الذى أطل عليه وأخرجه من غلواء
أفكاره فتبسم قائلاً: ملك هانم زوجتنا الحبيبة .. كيف حالك؟

ملك بصوتٍ خفيض لا يعكر هدوء الليل وسكونه: الحمد لله في نعمة
وفضل لا يؤرقنى إلا مشهد مولاي ومليكى العايب الحزين.

وضع سعيد يده على يدها قائلاً: لا يؤرقنى سوى هموم الدولة
وأحوال البلاد.

ملك: لعله حدث في زيارة أفندينا اليوم هو والأمرء ما عكر صفو
مولاي وحبيبي.

سعيد: لا أخفى عليك لقد انكشف لى اليوم جانب كبير من أفكار
عباس باشا والتي تحمل في طياتها آراءً صدامية عن نهضة البلاد وحداتها
وهو ما قد يكلف البلاد تدهورًا وخسارة تطيح بما حققته طوال السنوات
السابقة.

ملك: أعز الله مولانا ولى العهد .. ولكنى أشعر بأن منصب ولايته العهد
والذى تقلده بعد وفاة أخيكم المغفور له إبراهيم باشا وتولى أفندينا

عباس باشا قد أثقل نفسكم وأقلق حالكم فهون عليك يا مولاي ما تكابده من هموم الحكم والإمارة.

سعيد منفعلًا: ليس الأمر متعلقًا بمنصب تقلدته أو خلافة ولكن الأمر يتعلق بزرع قد زرعه الأباء وأملوا في أن نحصد نحن ما زرعه فلقد وضع أبي منهجًا وأساسًا لنهضة تلك البلاد ورفعته شأنها فأنشأنا وأنبتنا على هذا الأساس وذلك المنهج لا نعلم لنا وطنًا غيرها ولا نؤثر على مصلحتها مصلحة باذلين في سبيل ذلك الغالي والنفيس من أرواحنا ونفوسنا مقتدين في ذلك بما كان يفعله أبانا محمد على وأخانا إبراهيم رحمهما الله .. وقد جاء الوقت الذي نحمل فيه الراية ونكمل المسيرة حاذين حذوهم متمسكين بدرهم .. فإذا بنا نستمع اليوم إلى أفكار تخالف ما تعلمناه وتتحرف بنا عن السبيل الذي خبرناه.

ثم استطرد بعدما هدأت نفسه قليلاً: إن عباس باشا لم يصرح لنا اليوم بشيء ولكن هناك شعور بالقلق يلزمني كلما استعدت كلماته وتخوفاته وظنونه التي تعتربه فإنه يشك في الجميع يشك في الدول الغربية ويشك في أبناء عائلته فكيف سيكون حكمه في ظل هذا الشك .. كما تحدث إلينا في غرور وصلف جليين ونحن أمراء الدولة وشركائه في ملكه فكيف سيتعامل مع عماله ورعيته.

ثم هز رأسه هزًا شديدًا علامة عدم الإقتناع وهو يقول: لا إن كل هذا يخالف ما تعلمناه من أسلافنا حول أسس الحكم ودعائم الملك .

ثم نظر إلى ملك هانم قائلاً: إن ما تعلمناه من أبي وأخي رحمهما الله ألا نتعالى على رعايانا وعمالنا وأن نعطي كل ذي حق حقه وأن نعدل بين الناس ونعمل وفق منظومة الدولة وليس كملاكها .

جرفه الحديث عن الأيام الخالية فنزقت عينه من التأثر وأحاط وجه زوجته بكفيه وهو يقول: أتعلمي يا ملك أننى كنت تلميذًا بالبحرية وكانت وصية أبى لى ولأساتذتى ألا أبدى تمييزًا عن زملائى بالمدرسة البحرية وكان دائمًا ما يقول لى أن تميزك بين أقرانك لا يكون إلا بكفاءتك ونجاحك فى تحقيق أهدافك حتى تخرجت وعينت قوميندانا لإحدى بوارج الأسطول المصرى تسمى دمنهور وظللت على جدى ومثابرتى حتى ترقيت إلى نائب قائد البحرية المصرية وقد كان القائد وقتها السير عسكر مصطفى مطوش باشا وكانت وصية والدى أن أبجله وأحترمه وأعطية حقه فى التوقير كقائد ورئيس فى العمل وقد كان مصطفى باشا رجل بحرية من الطراز الأول مخلصًا ووفيًا لعمله ويعلم الله أننى قد تعلمت واستفدت من خبراته أشد ما تكون الاستفادة حتى توفى رحمه الله وتوليت المنصب من بعده عن جهد وتعب وكفائة وليس لشفعة أو قربى.

كان جالسًا على مقعده الوثير وزوجته تقبع بجانبه على الأرض ترتشف كلماته وتستشعر انفعالاته التى حاول أن ينفث عنها .. فقالت معقبة على كلامه وعينها تمتلئ بالعشق والهبام: حفظك الله ورعاك يا مولاي وحييى وأبو ولدى وأبقاك الله زخرًا للبلاد وهمًا وحرزًا على الأعداء.

وعندما ذكرت ولده استرعت انتباهه فقال متسائلًا: حقًا أين ولدنا الأمير محمد طوسون .. مالى لا أسمع له صخبًا ولا ضجيجًا على غير عادته.

أشرق وجهه ملك هانم لنجاحها فى شغل بال زوجها عن حزنه فقد كانت تلك شخصية سعيد باشا سريع الغضب والانفعال سريع المرح والسرور فقالت: إنه نائم فى غرفته يا مولاي.

فهب واقفًا وهو يقول: إذن فلنلقى عليه نظرة للاطمئنان فلقد اشتقت كثيرًا لرؤياه.

وانطلقا إلى غرفه ولديهما يتضحكان في سرورٍ وحبور.

كان الأخوان أحمد رفعت و إسماعيل على تفاهم تام على الرغم من فرق السن البالغ سبع سنوات إلا أن سنوات البعثة ومواقف الغربة قد ألقت بين قلوبهما وتجلت ذلك حين أصر كل منهما أن يبيت في غرفة واحدة إلى جانب الآخر على الرغم من أن سعيد باشا قد أمر الخدم بإعداد غرفة لكل واحد منهما إمعانًا منه في راحتتهما في حين ظل أخيه مصطفى فاضل مستقلًا بغرفته فجرت التجهيزات سريعة لإعداد غرفة واحدة للأميرين وفي داخل تلك الغرفة ظل إسماعيل يتحرك جيئةً وذهابًا لا تهدأ نفسه من شدة ما يعتره من الغضب والحنق في حين ظل أحمد رفعت ينظرله بعين الشفقة حتى قال له: هدى من روعك يا إسماعيل ليس في الأمر ما يستدعي كل هذا الغضب والانفعال.

صاح إسماعيل: كيف أهدأ يا أخي .. ألم تركيف خاطبني هذا المغرور وكأنتي عامل من عماله أنسى أنني أمير من أبناء الدولة العلوية وابن الوالي السابق؟ أنسى والدي الذي كان يرتجف فرحًا لمجرد ذكر اسمه أمامه؟ أنسى تاريخه كبطل من أبطال هذه البلاد تتناقل بطولاته الأجيال كأساطير أبطال اليونان؟

كان وجهه محمرًا من شدة الانفعال و الغضب فأمسك به أحمد رفعت وأجلسه وقال له: أعلم يا أخي أن ما نطقت به الآن هو سبب حنق الوالي علينا نحن بالأخص دون باقي أبناء أسرتنا وذلك لخلافه الكبير مع

والدنا .. فقد كان والدنا رحمه الله يحب أخيه طوسون باشا ويفتقده كثيرًا وذلك لوفاته في سن الشباب تاركًا خلفه ابنه عباس فَرَّقَ والدنا لابن أخيه وحباه بخبرته وآثره بصحبته إلا أن سوء طباع عباس وغروره وتعالیه على جنوده ومرؤوسية أدت إلى غضب والدنا عليه فقد كان والدنا يحترم جنوده ويرفق بهم ويحسن معاملتهم فشق عليه أن يأتي من يسومهم سوء العذاب بحجة أنه ابن حكام البلاد .. فأبلغ أمره إلى جدنا محمد على فأرسل في طلبه وعنفه وبعد برهة ولاه مدير الغربية إلا أنه أثبت فشله أيضًا في ذلك المنصب حيث أزهق رعيته وشق عليهم وبلغ أمره جدنا فعزله من منصبه وكان دومًا ما يناديه بالبليد مما جعل عباس يغل ويحقد عليه .. كذلك لما تولى والدنا حكم البلاد ضاق بقسوته ذرعًا فاضطره للهجرة إلى الحجاز فظل هناك حتى توفي والدنا .. لذا تجد الوالى محملاً بالعقد والأحقاد على أبناء إبراهيم .. وبالتالي يجب أن نتعامل معه بالحدذر المطلوب حتى لا نعطيه ذريعة فيخرج عُقده وأحقاده الدفينة علينا.

نظر إسماعيل إلى أخيه مليًا ثم قال: وكيف عرفت كل تلك التفاصيل الدقيقة ونحن كنا في بعثتنا بفرنسا معًا.

ابتسم أحمد رفعت قائلًا: لا تنسى أنى أكبر منك بسبع سنوات علمت فيها عن تاريخ عائلتنا ما لم تعلم كما أنك كنت بمعظم مراحل عمرك خارج البلاد.

أشار إسماعيل برأسه علامة التفهم قائلًا: كلامك صحيح ولكن ما الحل الآن .. هل سنصمت على هذا الوالى المغرور والذي لن يفتأ يتريص بنا ويكيد لنا؟

أشار أحمد رفعت بيده قائلاً: بل سنتخذ كل الحرص والحذر في تعاملاتنا معه حتى لا نعطيهِ الذريعة كي يكيد لنا.

إسماعيل: كيف ونحن شركاء في كثير من الأمور التي مازالت معلقة وتحت سيطرته.

أحمد رفعت: يا أخي إن الخلاف الوحيد الذي ينعكس الجروح ويُغيّل الصدور هو خلاف الحكم والإمارة .. فإذا رأى منا زهداً فيها صفيت نفسه واطمأنت لنا.

إسماعيل: يا أخي أنت تعلم أني لا أطمع في إمارة أو حكم .. ولكن البلاد التي تركها لنا أبانا وجدنا أمانه في أعناقنا .. فكيف نغض الطرف عن سياسات الوالي الفاشلة والتي ستؤدي بالبلاد إلى التخلف والرجعية.

أحمد رفعت في حزم: اسمع يا إسماعيل إن عباس الآن هو والي البلاد والمتصرف في أمورنا شئنا هذا أم أبينا ومن حقه أن يسلك الدرب الذي يراه الأصح لحكمه وسيحصد مما زرعت يداه خيراً كان أو شراً ولسنا أوصياء على قراراته وسياساته كما أننا لن نجني نتيجة عمله الحسن أو السيئ .. فليتحمل وحده مغبة قراراته.

لم يبذ على إسماعيل الاقتناع وهو يقول: ولكن ألا ترى في كلامك الكثير من السلبية والتراخي.

أجابه أحمد رفعت: ليست سلبية ولا تراخي إنما هي حكم العقل والصالح إذا كنا نريد السلام وعدم الصراع على أمور ليست من اختصاصاتنا .. فلننعم بالهدوء بعيداً عن دسائس السياسة ومؤامرات القصور.

ثم أردف وهو يرقد على فراشه: ولننظر بما تأتي به الأيام القادمة لعل فيها ما يبدد ظنوننا.

أمَّن إسماعيل على كلامه وهو ينظر شارداً الذهن: نعم لننظر بما تأتي به الأيام القادمة.

بعد ذلك بيومين في القاهرة المعز وتحت أشعة الشمس الذهبية التي أخذت تلقى بضياءها على قباب مسجد محمد على فبدت متألئة كشموسٍ صغيرةٍ تضيءُ قمة جبل القلعة حيث يكمن قصر الحكم والإمارة على مدار قرون من تاريخ مصر الزاخر بالأحداث .. وفي داخل القلعة حيث قاعة العرش وقف عباس باشا مطلاً من نافذةٍ أمامه على القاهرة والأهرامات الثلاثة التي ما انفكت على مدار آلاف السنوات تلقى بآيات الرهبة والإجلال على الناظرين كان الوالي شارداً في أفكاره حتى قاطعه صوت ابنه الأمير إلهامى وهو يقول: الآن يا أفندينا نحن جاهزون بالأوراق المطلوبة .. ولا ينقصها سوى أن تُرسم بخاتم التوقيع من قبلكم.

ألقى عباس باشا نظرة أخيرة على المشهد أمامه ثم التفت إلى ولده الذى يمسك فى يمينه بمجموعة من الأوراق واتجه إلى كرسى العرش الذى تزين قمته باللؤلئى والجواهر البراقة فى حين صنعت قوائمه من الذهب الخالص ونحت مسندها على شكل ليثين مفترسين، صعد الوالى درجات العرش حتى استوى على مقعد الحكم ورفع يده صائحاً: يا خليل.

فانفتحت أبواب القاعة الضخمة ودلف منها شاب صغير السن لا يتعدى الخامسة عشر يغطى رأسه طربوش قصير أحمر ويرتدى حُلَّة زرقاء مزركشة تميز بارتدائها خدم القصر وغلماناه .. إلا أن هذا الفتى كانت له

منزلة خاصة عند الوالى حيث عمل في خدمته منذ فترة طويلة ولازمه فترة
النفي في الحجاز وكان مخلصاً مطيعاً لا يتوانى عن إرضاء سيده ومولاه ..
لذا هرول ملبياً عند سماع النداء ووقف بين يدي الباشا الذى قال له:
أبلغ يوسف بك كامل رئيس الديوان ونوبار أفندى سكرتيرنا الأول والمترجم
الخاص لحضرتنا بالحضور فوراً.

فانطلق الفتى يلبى أمر مولاه وبعد برهة دلف يوسف بك كامل وخلفه
نوبار أفندى ومثلوا أمام الوالى منتظرين أوامره .. كان يوسف بك كامل في
بداية الأربعينات طويل القامة رفيع القوام يرتدى حُلَّة سوداء أنيقة ينم
وجهه عن عراقية في الأصل و كان موظفًا بالديوان فترة حكم محمد على
وأخذ في الترقى تُوَهله كفائته ويندكيه تفانيه في العمل .. مما لفت نظر
الباشا له فأحسن إليه ووثق فيه وائتمنه على خواص حكمه حتى رَوَّجَهُ
ابنته زينب هانم فعاش معها في سعادة وهناء وكان يوسف كامل من
المشتهرين بالأدب والشعر وله من الدواوين والأعمال ما أشاد به مثقفو
عصره .. أما نوبار أفندى فكان شابًا في الخامسة والعشرين متوسط
الطول مكتنز الوجه وسمين الجسم يعلو فمه شارب عريض وكان المترجم
الخاص بالوالى وسكرتيره الأول والمؤتمن على أسراره .. وبعد فتره من
الصمت أخذ الوالى خلالها يتفحص الرجلين بعينيه ثم قال: لقد أصدرت
اليوم مرسومًا بخصوص إنشاء مدرسة ابتدائية في السودان تحت إشرافنا
ورعايتنا حتى لا نهمل الجنوب وندعم أواصر المعرفة على امتداد الوادى
وأريدكما أن تنفذا بنود المرسوم وتبلغا به الدواوين والأمصار.

قال نوبار أفندى: قرار حكيم يا أفندينا يؤكد اهتمام حضرتكم بالعلم
والتعليم حتى مع القطاع الجنوبي من البلاد .. وسيفتح أمام البلاد أفاقًا
عريضة تجلب لنا خبرات وأيدي عاملة متعلمة.

قال عباس: ولذا فقد اخترت من الكوادر والكفاءات من يستطيع النهوض بأعباء تلك الوظيفة ويؤديها على أكمل وجه فاخترت رفاة بك رافع الطهطاوى ومحمد بدوى أفندى وأحمد طائل أفندى على أن يصحبهم ما يشاءون من أفراد لمعاونتهم .. فى حين أصدرنا مرسومنا بإغلاق مدرسة الألسن نظرًا لتغيب مديرها رفاة بك فى مهمته بالسودان.

ثم أشار بيده إلى نوبار أفندى فتقدم وأخذ الأوراق من الأمير إلهامى وعاد إلى مكانه ينتظر المزيد من التعليمات فى حين تحدث يوسف بك قائلاً: اسمح لى يا أفندينا إن ذهاب شخص كرفاعة بك إلى السودان يعطى فراغًا كبيرًا فى النهضة التعليمية بالبلاد .. فالرجل زعيمًا للتعليم ويعمل بجهد وكفاءة منذ عودته من فرنسا أيام جدكم المرحوم محمد على باشا ولا يوجد فى مجاله من يستطيع أن يملأ فراغ منصبه كذلك إرسال الأستاذ محمد بيومى أفندى وهو كبير مدرسى الهندسة والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة إلى السودان لإنشاء مدرسة ابتدائية وهى الوظيفة التى من الممكن أن ينوب عن هؤلاء الأعلام من هم فى منزلة أقل ولن يؤثر ذلك فى تحقيق الهدف المأمول من الوظيفة.

عباس: أعلم ما تستلزمه مصلحة البلاد وأعلم كفاءة رفاة بك .. لذا نستخدمه فى فتح آفاق جديدة تمد الوطن بخبرات كما قال نوبار أفندى منذ قليل.

يوسف: يا جناب الوالى إن إرسال رجلًا يعتبر من أهم المسئولين عن مؤسسة التعليم بالبلاد إلى تلك المهمة بنفسه يجعلنا نخسر جهوده هنا كما أن إغلاق مدرسة الألسن سيجعل البلاد تخسر إسهاماتها المثمرة فى حركة التنوير والتعليم.

عباس بصرامة: يوسف بك إننى أعلم مكانتك فى الديوان جيداً ولكن ذلك لا يعطيك الحق فى مجادلتنا فى قراراتنا وترى ما يصلح للبلاد وما لا يصلح فلتلتزم بمهام وظيفتك ولا تتعدها ولتعضى فى إنفاذ إرادتنا دون أى تعقيبات فمثلك مثل أى موظف بالدولة ولتعلمن أننا لا نحابى أحداً لقربى أو مصاهرة فالكل عندى سواء .

كان يوسف بك كامل رجلاً معتزلاً بنفسه إلى أقصى حد يعرف إمكاناته وخبراته جيداً فعز على نفسه هذا الكلام ومس كرامته المصونة فألمها أيما إيلا فنهض واقفاً من مكانه وقال بصوتٍ جاهد صاحبه كى يسيطر على انفعاله: لقد عملت فى معية جدكم وعمكم على مدار سنوات حتى قضى كل منهما نحبهما فما خبرونى إلا متفانياً فى عملى أميناً على مصالح الأسرة العلوية مخلصاً فى نصيحتى وأرائى حتى كرمنى جدكم واصطفانى بشرف مصاهرته فزوجنى بكريمته لما علمه عنى من صفات .. والمرء لا يختار لابنته إلا ما هو جدير بها .. وهو ما دفعنى اليوم لإدلاء النصيح والراى وأنى بهذا غير متجاوزاً لمهام وظيفتى ولا متعدياً حدًا من حدودى .. فإن من مهام وظيفتى كرئيساً لديوان الولاية أن أكون عوناً للوالى فى حكمه خاصة فى حدود ما اكتسبته من خبرات على مدار السنوات السابقه تؤهلنى لأن أعلم جيداً القرار الصحيح من القرار الغير صحيح و أسدى للوالى النصيحة.

احتد عباس قائلاً: هذا إذا سألتك النصيحة .. أما إذا لم أفعل فعليك بالتنفيذ دون إبداء أى توجيهات.

رد يوسف فى صرامة: استمع إلى كلماتى جيداً يا والى البلاد لعلها تكون آخر كلمات تستمع إلى فيها بهذا الديوان .. وإنى لمحدثك بها وفاءً لعهدٍ قطعته على نفسى فى العمل لصالح أسرة محمد على باشا ما حيبت

.. لا تهمل النصيح ولا تستهن بالمشورة فقد أخذ بمجامعها من بنى هذا الملك وخطط مصير تلك الأسرة التى أنت أحد أفرادها .. فقد كان جدكم لا يتخذ قرارًا إلا بعد مشاورة خاصة رجاله وكان ينزل لرأى الأغلبية حتى لو خالف هواه فبنى تلك الحضارة التى تحددت دول أوروبا وهزت عروش ملوكها .. وما أظن أن أحدًا من ورثته كفاء لعقله ولا ندًا لشخصه ولا يوجد من بعده من يحمل تصميمه وعزمه حتى يسلك مسلكًا وينتهج نهجًا يرى فيه أنه الأنفع وأنه قد أتى بالصواب الذى لم يأت به محمد على باشا بنى نهضه مصرالحديثة وصاحب الفضل فى جلوس أبنائه على عرش مصر.

كان لكلامه الوقع الصادم على مسامع الوالى والحاضرين من شدة مقاصده وصرامة عباراته .. مما جعل وجه الوالى يحتقن من الغضب ووقف إلهامى ناهضًا فى انفعال إلا أن ذلك لم يمنع يوسف بك من المضى قدمًا قائلاً: هذا بخصوص نصيحى الذى أستدين به لك وفاءً للعهود التى قطعتها على نفسى .. أما أمر وظيفتى التى وقع فى اعتقادكم أنى قد تجاوزت مهام وظيفتها .. فأنا ألتمس منكم قبول استقالتي وإعفائى من عملى واعتبارى منذ اليوم خارج ديوان الولاية.

ثم رفع يده محييًا: والسلام عليكم ورحمة الله.

واستدار سالگًا الطريق للخارج غير منتظرٍ للرد سواء على استقالته أو على كلامه .. تاركًا خلفه حالة من الغضب والارتباك والمفاجئة تعترى نفوس الوالى وولده الذى صاح بوالده: لم تركته ينصرف دون أن تلزمه حده يا أفندينا .. لقد هممت بالرد عليه لولا خشيتى من غضبك لردى عليه فى وجودك .. فلم تركته ينصرف وقد تجاوز كل حد ولم يرع أى أصول فى الحديث مع من هم أعلى منه مكانة وأرفع منزلة .. أنسى أنه

عامل من عمالك مهما بلغ من مكانة وشأن؟ أنسى أنه عبداً من رعاياك لا يجوز له أن ترتفع رأسه في حضرة مولاه؟ أنسى أنه ..

صاح الوالى مقاطعاً: كفى يا إلهامى.

كان الوالى ينتفض من الغضب وترتجف أطرافه من الانفعال فى حين بدت عينيه جاحظتين تكاد تفر من محجرهما وكان كلام ولده يزيد من انفعاله ويؤجج مشاعره بالغضب .. وقد أشار إلى نوبار أفندى بالانصراف فأسرع مملماً أوراقه وهرولاً بالخروج من القاعة فوقف الوالى ونزل درجات عرشه وهو يقبض على راحتيه فى انفعال قائلاً: كل هذا من آثار فعل جدك محمد على جازاه الله بما يستحق .. هو الذى سمح لشخص كهذا بمصاهرته ومخالطته حتى ظن أنه صاحب حق فى ملكه ووصياً على حكمه .. لقد تجاوز هذا الشخص كل حد لعلمه التام بأمانه من بطشى وشدة نكالى لأنه زوج عمتنا ولولا هذا لما تجرأ وخاطبنا بمثل هذا الخطاب وجادلنا بمثل هذا الجدل.

قال إلهامى بحدة: وهل ستسكت على إهانته تلك يا والدى لأنه زوج زينب هانم .. هل ستتركه تحدثه نفسه فى يومٍ من الأيام بأنه قد أغلظ القول إلى عباس حلمى باشا وحدثه بما لا يليق؟ أعلم يا والدى أنك إن صممت عن تناوله فإنى لا أصمت ولا يردعنى عنه شيء حتى يعلم حجمه ومدى الجرم الذى ارتكبه.

مسح الوالى على لحيته الكثية وهو يقول وقد تمالك غضبه بعض الشيء: من قال أننى سأصمت على جرمه ولكن لكل مقام مقال ولكن الآن فلننفذ ما قد اتخذناه من قرارات بشأن إبعاد هذا الطهطاوى أولاً ثم نفرغ لهذا الصهر المغرور.

قال الجملة الأخيرة وهو يبتسم ساخرًا فشاركه ولده الابتسام ولكن الوالي أردف قائلاً ببعض الحماس: إن الدولة الآن تحتاج منا إلى ترتيب عاجل وسريع وفق ما استجد من أحداث .. فلم يدرك هذا الرجل كم خدمننا بتقديم استقالته فلقد وفر علينا عبء تديير إزاحته عن طريقنا.

ثم جلس على كرسيه وهو يقول: اسمعني جيدًا يا أمير .. ابعث لي نوبار أفندي ثانية لأوقع له بخاتمي على تعيين كل من حسن المنسترلي باشا كتخدا للبلاد وأحمد المنكلي باشا لنظارة الجهادية وأحمد يكن باشا رئيسًا للديوان ولا تنس أن تبلغ مصطفى باشا الخازندار لتعديل الرواتب المنصرفة لتلك الوظائف.

التمعت عينا إلهامي في سعادة بالقرارات التي اتخذها والده والتي ستغير من شكل الحكم في البلاد فقال بحبور: سأخبر نوبار أفندي ليعد خطاب التكليف للأشخاص الذين حددتهم يا أفندينا.

ثم استأذن في الانصراف حتى بلغ باب القاعة فأتاه صوت والده قائلاً : يا أمير .. أرسل في طلب طاهر بك زعيم الأرناؤود.

سمع إلهامي مقولة والده فانفجرت أسنانه عن ابتسامة عريضة ارتسمت على شفتيه لعلمه بأن قول أبيه هذا يعني أن الأيام القادمة ستحمل في طياتها الكثير والكثير.

في المساء امتلأت ساحة القلعة بالمدعوين لحضور حفل التكريم لأعضاء البعثة القادمين من فرنسا حيث يحضر معظم أعضاء البعثات السابقين ليدعموا روح التواصل بين الأجيال وقد كانت تلك الحفلة عرفًا

متبعًا من أيام محمد على باشا، ولذلك تجد بعض الجدران وقد أرخى عليها قطع طويلة من الستائر الحمراء اللون وعلى البعض الآخر علقت صورًا زيتية كبيرة الحجم لبعض المعارك الحربية لمحمد على وابنه إبراهيم بينما تم فرش الأرضيات بأفخر أنواع السجاد، و على مداخل البوابات وقف الحرس مستعدين بالسلاح مرتدين زى التشريفة كاملًا وتجد الخدم يهرعون حاملين المشروبات المثلجة في كنوس زاهية الألوان.

وفي ركن من القاعة وقف أحمد رفعت وقد علت الابتسامة وجهه الحليق وهو يقول محدثًا أصدقائه: أراهنكم أن إسماعيل سيموت كمدًا وهو يرى ذلك الوالى غريب الأطوار وهو يجلس مكان والده.

رد عليه إسماعيل وهو يعقد حاجبيه في غضب: نعم لعن الله الخونة فلولاهم لما تمت اتفاقية لندرة والتي قضت بأن يجلس أكبر أفراد الأسرة العلوية على كرسى الحكم.

قال له شريف وهو يربت على كتفه: هدى من روعك يا إسماعيل حتى لا تلفت لك الأنظار بغضبك هذا.

إسماعيل بانفعال: أنا لا أبالي بمن يلتفت إلى كلامي ومن لا يلتفت .

قال عبدالحليم وهو ينظر إلى أحمد رفعت بمكر: ها هو أنت تتكلم كثيرًا ولا تفعل شيئًا.

قال إسماعيل وقد احمر وجهه من الانفعال: أنا لا أفعل شيئًا .. والله لأذهبن إلى ذلك العباس لأخبرنه بما يعتمل في صدري من خواطر بشأنه وشأن حكمه المعوج.

وهم بالانصراف عنهم إلا إن شريف أمسك بمعصمه قائلاً: انتظر يا إسماعيل ألا تعلم مزاح أحمد وعبدالحليم حتى تجعلهم يثيروا حفيظتك على هذا النحو.

وأسرع أحمد رفعت قائلاً : لا تغضب يا أخی .. لقد كنا نمازحك مستغلين شدة غضبك ونقمتك على الوالى.

فقال إسماعيل وقد ظهر عليه التأثر: والله يا أخی ما نقمت عليه طاعة لهوي في نفسى .. وإنما الذى أغضبنى أن مصر التى خاض جدى وأبى وجميع المصريين الصعاب من أجلها تذهب فى آخر الأمر إلى مثل هذا الرجل .. مصر التى تربينا على ترابها ونشأنا على أرضها فلم يعد يذكر أيًا منا من أيِّ أصلٍ ينحدر غير أننا جميعًا مصريون .. تلك البلد العظيمة ذات الحضارة الماهرة التى دامت آلاف السنين لا تستحق أن ينتهى بها المآل إلى أن تساق وفق مراد هذا الرجل المختل.

بدا التأثر على الجميع فى حين التفت شريف إلى على مبارك وقال له: لِمَ لا تشاركنا الرأى يا على؟

قال على فى هدوء: لا أحب أن أدلى بدلوى فى أمور تحتل منا الصواب والخطأ حول شخص معين.

قال له أحمد رفعت: لكننا نهتم بمعرفة رأيك فيما يظهر لنا من أحداث .. فأرائك دائمًا محل تقدير من الجميع.

قال على: أنا أحب أن أحتفظ لنفسى بدور المراقب فى الحياة .. ومثلى فى ذلك مثل المسافر فى فلاة ومعهم معه ركب وقامت عاصفة شديدة فضلوا الطريق فقال أحدهم الطريق من اليمين وقال آخر الطريق من اليسار

وَبُئِبْتُ أَنَا بِمَكَانِي فَلَمَّا انْكَشَفَ الطَّرِيقَ وَجَدْتُ نَفْسِي حَيْثُ أَنَا لَمْ تَوْثُرْ فِيَّ
العاصفة .. وأولاً وأخيراً أَنَا مَوْظَفٌ مِنْ مَوْظَفِي الدَّوْلَةِ .. أَمَارِسُ عَمَلِي
بِإِتْقَانٍ وَإِخْلَاصٍ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ رَأْيِي الشَّخْصِيِّ فِي مَنْ أُتَعَامَلُ مَعَهُ.

قال له شريف مازحاً: صدقني يا علي منهجك هذا سيجعلك من
الواصلين إلى المناصب في سرعة .. فأنت لا مع ولا ضد وهذا لعمرى ما
يرضى الحكام.

أسرع على قائلاً: صدقوني يا إخواني إني لا أروم من وراء ذلك إرضاء
أحد ولكن هذا منهج عبّدتُ نفسي عليه وجعلته مسلماً لها في سبيل
تحقيق الحيادية التي تميز الباحث ويني...

قاطعه صوت الحاجب منادياً الشرفة المطلة على ساحة القصر:
يتكرم علينا الآن من تتلف لسماعه الأذان .. جناب الوالي أفندينا عباس
حلمى باشا والى مصر والسودان.

فساد الصمت على الحاضرين انتظاراً لكلمه الوالي.

وقف عباس باشا مطلاً على المدعوين من فوق شرفة القصر بالطابق
الثاني .. ووقف من خلفه ابنه الأمير إلهامى مع كل من أحمد باشا يكن
رئيس الديوان الجديد .. حسن باشا المنسترلى محافظ القاهرة .. مصطفى
باشا الخازندار .. أحمد باشا المنكلى ناظر الجهادية .. والمترجم نوبار أفندي
.. في حين ساد صمت ثقيل على جموع الحاضرين داخل ساحة القصر.

انتظر الوالي برهة من الوقت متأملاً جموع الحاضرين ثم بدأ الكلام
في صوت عميق: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. إن الحمد لله نحمده

ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }. [سورة آل عمران، الآية: 102]

أما بعد أحييكم أيها السادة بتحية قلما سمعتموها في غربتكم ألا وهي تحية الإسلام، أكاد أحصى في جموع الحاضرين أعضاء البعثات القدامى الذين سبق و كانوا في بعثات علمية إلى الخارج .. فمرحباً بكم جميعاً السابقين واللاحقين فمعظمكم أيها السادة قد تعلمتم ونهلتم من بلاد الإفرنج الكثير من العلم .. ونحن هنا لنحتفل بكم ونقول لكم .. شكراً.

وصمت برهة ليتفقد أثر كلماته السابقة على الحاضرين .. ثم أكمل قائلاً: نعم نحن نشكركم أيها السادة على تنفيذكم سياسات الدولة وما قد كُلفتم به في سالف العهد، ألا وإنني اليوم أحيطكم علماً بأن ذلك كان عهداً مضى وانقضى بما حمله للبلاد من خيرٍ وبلاء .. جنى ثماره البعض وعانى وطأة قراراته البعض .. وإني هنا مستثمراً حضوركم أيها السادة المثقفون حتى أعلمكم برؤياى وتطلعاتى للمستقبل فأنتم النخبة التى قد تكلفت البلاد فى سبيل تعليمكم وتنويركم الكثير والكثير:

أولاً: العلم هو نبراس الحياة .. وسبيل الأمم للتقدم والرقى .. هذا حق .. ولكن ذلك ليس على حساب الدين والثقافة الإسلامية ففهما أفضل الثقافات .. فبعد ملاحظتنا للعديد من رجالات الثقافة و الفكر لوحظ اهتمامهم بالتفرنج والتغريب وإهمالهم للثقافة الإسلامية والعربية .. وهى التى قد أضاءت بنورها مشارق الأرض ومغاربها وقت أن كانت أوروبا تقبع تحت ظلام الجهل والتخلف .. وبالوقوف على عللِ هذا الأمر بات جلياً أن

سبب ذلك كثرة البعثات للخارج والاختلاط بالثقافة الغربية وإهمال الثقافة العربية والشرقية .. لذا فقد رأينا أن نقتصد في بعثتنا للخارج في الفترة المقبلة والاكتفاء بما لدينا من خبرات في مجال التعليم تقوم على تلقين الأجيال الصاعدة ما لديها من علوم وأبحاث مع التأكيد على الإكثار من العلوم العربية والشرعية كأساس لبناء الفكر السليم.

ثانيًا: حرصًا منّا على دعم أواصر المعرفة والعلم في وادي النيل شمالًا وجنوبًا .. فقد أصدرنا أمرنا بإنشاء مدرسة ابتدائية في السودان تحت إشرافنا ورعايتنا حتى لا نهمل الجنوب الذي هو جزء لا يتجزأ من ربوع الوطن وقد انتدبنا إلى هناك ما يستلزم من كفاءات وخبرات عالية لإنجاز هذه المهمة على خير وجه.

ثالثًا: تعد البعثة الأخيرة القادمة من فرنسا أكبر البعثات حجمًا وأكثرها عددًا والبلاد في أشد الحاجة لجهود طلابها ولسواعدهم الشابة في النهوض بالوطن وإعلاء بنائه لذا فقد أصدرنا أمرنا بسرعة إلحاق أفرادها بوظائف الدولة كل حسب تخصصه ومجاله.

ثم أشار إلى نوبار أفندي فأمدته ببعض الأوراق وقال:

رابعًا: أبشركم بأننا على أعتاب عقد اتفاق دولي كبير .. فقد تجلت ارادتنا بتنفيذ مشروع ضخيم يعود بالنفع على المحروسة وأهلها ويكون عنوانًا لعهدنا الجديد وقد أبدينا موافقتنا لتلقى العروض المقدمة لدراستها وإبداء الرأي فيها مع العلم بأن الغلبة لدينا ستكون للمشروع الأنفع للبلاد وأبعد للضرر وأصون لحقوق الدولة على أراضيها.

خامسًا: وأخيرًا لوحظ لدينا ما وصلت إليه أخلاق الرعية من تردى وخاصة أصحاب الدكاكين والحوانيت منهم .. حيث لا يزرهم أذان يرفع

أو شعيرة تقام عن الصباح والنداء على سلعهم مما يفسد على المصلين صلاتهم ولذا فقد صدرت إرادتنا بإنشاء فرقته شرطية تسمى الحسبة مسلحة بالكرابيج ستكون مهمتها ردع وزجر أصحاب الجوانيت والعامّة في الشوارع وغلقت كل الدكاكين المفتوحة وقت الصلاة وتوقيع الغرامات على المخالفين.

وأخيراً فلتشحنوا هممكم .. ولتشمروا عن سواعدكم .. فستحتاج البلاد لكل جهودكم وكافة خبراتكم .. فنحن نأمل فيكم خيراً فأرونا ما يسر أعيننا منكم .. والسلام عليكم ورحمة الله .

وأقلّ راجعاً وسط تصفيق الحاضرين في ساحة القصر.

بعد انتهاء الخطاب وقف الأصدقاء الخمسة في حديقة القصر الخارجية وكان أول المتكلمين هو إسماعيل وقد احتقن وجهه من الانفعال: صمت دهرًا ونطق كفرًا .. هل من الممكن السكوت على هذا الكلام يا على يا مبارك وتتبع نفس منطلقك.

على: أولاً الوالى لم ينطق كفرًا ولكنه قد افتتح كلامه بالقرآن .. وقال إن رؤيته وأفكاره قد تختلف مع رؤية كثيرٍ من الناس .. ولكن الأمر أولاً وأخيراً يرجع إليه فهو والى البلاد والمتصرف في شؤونها .. ثانياً كلُّ منا له من الجوانب السلبية والإيجابية ما يكون شخصيته .. فالشخص أحادى الشخصية الخَيْر فقط أو السيء فقط غير موجود إلا بالأفصيص الهزلية لكن في الواقع فالأمر يختلف كثيرًا.

رد عليه عبدالحلیم وهو یضرب کفًا بکف: یا سلام یا أستاذ علی ..
وحدیثه عن الهویة الشریقیة والإسلامیة الی طُمست وحثت مکانها
الشخصیة الإفرنجیة کل هذا بسبب البعثات العلمیة .. هل توافقه أيضًا
علی هذا الرأی؟

أجابہ علی فی هدوء: ما أهمیة موافقتی من عدمها أمام ما قاله .. هل
ستغیر من أفکاره شیء؟ أعتقد أن له رؤیته الخاصه وسیحکم التاريخ علی
کل أفعاله فلا تنصبوا أنفسکم مکان التاريخ.

أسرع شریف یقول فی حدة: بل ن نصب أنفسنا مادام الأمر یمسنا
مباشرة یا علی .. فمصر بلدنا ولسنا غرباء بها حتی نغض الطرف عن
سیاسات الحاکم الی تطفئ جذوه التنویر فتلقى بظلامها علی البلاد
وترجعها إلى عصر ما قبل محمد علی مجرد مزارعین یفلحوا الأرض لیأکل
غیرهم خیرها ویظلموا یرفلون فی الجهل والتخلف الذی ما هدفت البعثات
المتتالیة إلا للقضاء علیهما.

عقب أحمد رفعت قائلًا: أرید أن أضيف إلیکم نبأ آخر تردد الیوم
وتناقشته الألسن دون تأکید بأن الوالی أصدر مرسومًا بنقل رفاعة بك
الطهطاوی للعمل فی السودان .. وقد أكد لی هذا الخبر خطاب الوالی الیوم
عن نیته إنشاء مدرسة ابتدائیة فی السودان وندب الخبرات اللازمة للعمل
هناک نستطیع الجزم بأن تلك الخبرات ما هی إلا رفاعة بك.

وهنا تحدث علی مبارك قائلًا: رفاعة بك إنها لضریبة قاضیة لمشاعر
التنویر والمعرفة فی البلاد.

قال إسماعیل: أخیرًا نطقت ببعض ما نقول یا علی.

ثم التفت إلى أخيه أحمد قائلاً: إلى متى سنظل نشاهد ونصمت على تصرفات ذلك الوالى التى ستودى بالبلاد إلى حافة الهاوية.

أجاب أحمد بهدوء: ومن قال بأننا سنصمت ونرضى بالأمر الواقع .. لقد وصلتني الأخبار من عيوني بالقصر بحدوث مشادة كلامية بين الوالى و يوسف بك كامل رئيس الديوان بسبب نقل رفاعة بك الطهطاوى إلى السودان وحدث على إثر تلك المشادة تقديم يوسف بك استقالته من رئاسة الديوان.

قال عبدالحليم: يوسف بك تقدم باستقالته يالها من كارثة.

عقب أحمد: نعم كارثة كبيرة أن يفقد الديوان رجلاً بكفاءة وإخلاص يوسف بك ولكن الكارثة الحقيقية إن الوالى سرعان ما اتخذ قراره بتعيين بديلاً له وهذا يعنى أن الأمر كان مبيتاً ومعد سلفاً .. كذلك تم تغيير الكثير من الوظائف الحيوية بموظفين جدد غير السابقين المعينين من قبل والدنا أو جدنا .. ومعنى ذلك أن الوالى الجديد بدأ بتهيئة الأجواء للانفراد بالسلطة ضارباً بعرض الحائط جيش من الخبرات والكفاءات التى من المحتم أن غيابها سيؤثر سلباً على دوائر الحكم بالبلاد.

أسرع إسماعيل قائلاً بغضب: والله لن نسكت عن ما حدث اليوم أبداً.

وانطلق إسماعيل متجهًا إلى حيث يقف الجودى وعربته ذات الأربعة أحصنة واندفع شريف خلفه حتى يهدئ من روعه وهو ينادى عليه: إسماعيل .. يا إسماعيل .

وبينما شريف يعبر الطريق إذ بعربه ذات حصانين تنطلق مسرعة في اتجاهه لا يفصلها عنه إلا بضعة أمتار، ومن خلفه رأى أصدقائه المشهد فصرخوا جميعاً مفزوعين.

كان للتدريبات التي تلقاها شريف في أثناء بعثته والتي اجتازها بتفوق شهد به الجميع أبلغ الأثر في اجتيازه لذلك الموقف حيث أنه ما أن سمع صوت أقرانه ينادونه في جزع .. فلمح بطرف عينيه خيول العربية وهي تكاد ترتطم به وفي سرعة البرق مال بجزعه إلى الخلف ليدور جسده كله إلى الوراء تسعون درجة حتى أصبحت قدماه لأعلى ويدها لأسفل كأمر لاعي الجباز اليوم ثم أكمل دورة جسده ليعتدل واقفاً بعدما أفلت من أمام العربية ببضعة سنتيمترات .. ووقف الحوزى مذعوراً يرتجف من هول الموقف في حين التف باقي الأصدقاء حول شريف ليطمئنوا عليه فقال له أحمد رفعت: حمدًا لله على سلامتكم يا بطل .. فعلاً تستحق لقب يوزباشى بالجيش الفرنسى عن جداره.

وأسرع على مبارك يحضر له طربوشه من الأرض وهو يقول: سمعت كثيراً عن مهارتك يا شريف لكن ليس من رأى كمن سمع .

وقال له عبدالحليم في مرح: كل هذا من أثر التدريبات الجادة التي تلقيتها في البعثة .. فأين الوالى الآن كي يرى ما فائدة البعثات وأثرها على الطلاب.

في حين وقف إسماعيل يصرخ في حوزى العربية بغضب: إنزل من تلك العربية يا أعمى لأعلمك كيف تقود دون أن تراعى حياة المارين بالطرقات.

وَهَمَّ لِيَبْطِشَ بِهِ لَوْلَا أَنْ تَشَبَّثَ بِهِ أَخُوهُ أَحْمَدُ رَفَعَتْ قَائِلًا: خَلَّاصُ يَا إِسْمَاعِيلَ حَصَلَ خَيْرٌ.

وفجأة فتح باب العربة وأطلت منه فتاة شابة لا يتعدى عمرها الثامنة عشر نحيلة القوام فاتحة البشرة سوداء الشعر زرقاء العينين مدبية الأنف صغيره الفم .. ترتدى فستانًا فاتح اللون .. وتغطي ذراعها النحيلتين بشال من الحرير الشفاف .. أخذت الفتاة تتطلع إلى شريف للحظات ثم قالت محدثة سائقها بصوتٍ عذبٍ ندى: ما الأمر يا عم مدبولي؟

أجابها السائق مسرعًا كأنه وجد بها ملاذًا في ذلك الموقف العسير: والله يا حضرة الهانم هذا البك كان يجرى بعرض الطريق دون أن ينظر للعربة و...

صاح فيه إسماعيل من جديد: أنت أيضًا ستلقى باللوم علينا نحن .. أنا لازم أعرفك شغلك.

تدخلت الفتاة و هي ترفع أنفها لأعلى في شمم وتعقد حاجبها في غضب زادها حسنا على حسنها: أنت يا هذا إلزم حدك .. ولا تعتدى على سائق عربتي فتكون عاقبتك وخيمة.

اندفع إسماعيل بهم بالانقضاض على السائق صائحًا: أنا أتمنى أن أعرف كيف ستكون عاقبتك وخيمة يا مدموزيل.

إلا أن شريف أمسكه من ذراعه قائلاً: كفى يا إسماعيل أنا بخير والحمد لله لا داعي لتعقيد الأمور .. أنا فعلاً كنت أركض خلفك مسرعًا دون أن ألتفت إلى الطريق فلا ذنب لهذا الحوذى المسكين.

مطت الفتاة شفتها في لا مبالاة وهي تقول: نعم استمع إلى كلام صديقك كي لا يحدث سوء لك أو لأقرانك.

والتفتت إلى شريف قائلة: وأنت .. إذا ما كان هناك أى إصابات تحتاج إلى العلاج فيمكن لك أن تركب العربة كي نُقلك معنا إلى أى بيمارستان قريب من هنا.

أجابها شريف متلعمًا: لا شكرًا جزيلًا لكِ يا مدموزيل .. فأنا بخير والحمد لله.

نظرت له الفتاة قليلاً ثم قالت محادثة الحوذى: إذن هيا بنا يا عم مدبولى فلقد تأخرنا كثيرًا بما فيه الكفاية.

فأسرع الحوذى ينطلق بالعربة مسرعًا وكأنه غير مصدق أنه فر من هذا الموقف العصيب.

وما أن ابتعد الحوزى بالعربة حتى قال الأمير إسماعيل منفعلًا:

- فتاه مغرورة.

عقب أحمد رفعت على كلامه: وبارعة الجمال أيضًا .

وقال عبدالحليم وهو يمسك بكتف شريف: وحضرة الأفندى شريف لا أعلم ماذا أصابه .. الفتاة تقول لك اركب معى العربة ولا تطيعها .. أى رجل أنت؟

أحمد: يبدو أن الحادث قد أثر عليه حتى يُضيع منه تلك الفرصة.

صاح فيهما شريف: تبا لكما من ذئبين لئيمين أستغل موقف ضعف الفتاة وادعى الإصابة حتى أركب معها وأكسب ودها.

قال له إسماعيل معترضاً: من تلك التي في موقف ضعف هذه الفتاة لا أعتقد هذا أبداً إنها فتاة سليطة اللبس...

قاطعهُ شريف بسرعة: لا يا إسماعيل لا تذكرها بسوء فالفتاة تبدو عليها أمارات الأصل العريق والمنبت النبيل.

غمز أحمد بعينه لعبدالحليم قائلاً: يبدو أن صاحبنا طب ووقع في بحر الغرام.

تدخل على مبارك في الحوار مدافعاً عن شريف: لا والله بل جزاك الله خيراً يا شريف فما فعلت هو فعل النبلاء وشيم الفضلاء.

ثم التفت إلى أحمد وعبدالحليم قائلاً: لا أعلم كيف تفكران كذلك وأنتما أميرين من أمراء الأسرة العلوية ترعرعتم في كنف القصور وتعلمتم سلوك النبلاء .. لقد بدأت أشك في أنكم نشأتم في إحدى حوارى قريتي بمركز دكرنس.

صاح فيه عبدالحليم ضاحكاً: لقد بُجَّ صوتنا يا على كي تتنازل عن حياذك الذي تتبعه ويوم أن تتنازل عنه لا يكون إلا على رؤوسنا، يا ليت ذلك الحادث قد وقع لك منذ زمن يا شريف حتى يخرج هذا الأريب عن صمته.

وانطلقوا يضحكون في مرج.

لم ينم شريف ليلته تلك من شدة الأرق والسهد وظل مشهد الفتاة وهي واقفة على باب عربتها عاقدة حاجبها في غضب ماثلاً أمامه في ظلام الحجر وأخذ يستعيد كلماتها ولفاتها للمرة العشرون منذ رآها وقد استوقفه لون عينيها الزرقاوين فتخيلهما كمصباحين يضيئان له ظلام غرفته ويؤنسان سؤدده، وكان لونهما الأزرق محل تساؤله لما لهما من دلالة على أصولها الغير شرقية إلا أن لغتها التي تحدثت بها تدل على مصريتها الصميمة فأخذ يسأل نفسه من هي تلك الفتاة؟

لقد رأى الكثير من الفتيات في فرنسا لكنه لم يكن يعيرهن إهتماماً وقد يكون ذلك لإحساسه الداخلى بأن تلك الفتيات غريبات عنه، فهو شب في ثقافة وبيئة تختلف عن ثقافتهم وبيئتهم وكان إحساسه القوى بمصر يابى عليه إلا الشعور بأنه لن تصلح لشخصيته المصرية إلا فتاة شبت وترعرعت في نفس بيئته وثقافته .

أخذ يتقلب بين أفكاره وهو يرقد على جمر الوجد في عتمة الليل المهيم وأحس بروحه تصفو وتهيم في الفضاء الواسع فامتلكت جسده قشعريرة خفيفة من الرهبة فكم هو ضئيل وسط هذا الكون الشاسع المتراعى الأطراف الذى أبدع الخالق سبحانه وتعالى في تكوينه فهو رافع السماوات مثبت الجبال مجرى الأنهار والبحار فالذى خلق هذا الكون لن ينساه في هذا البيت الكبير الذى يجلس فيه وحيداً فرداً دون مؤنسي لوحشته ولا حبيب يداوى صبابته ولبث على حالته تلك حتى انبلج الصباح وجلى الليل وانقشع.

في جُنح الليل الذي لف كل شيء بسواده وخضع كل حي لناموسه فسكنت المخلوقات ونامت الكائنات وعم السكون القصور والدور وشمل لباس الستر المتسترين فخلا كل خليل بخليله وارتوى كل ظمآن من معينه حتى سكان القلعة اتخذوا من الليل رداءً تسكن فيه نفوسهم بعد مشقة وعناء فقد كانت لعباس باشا ملك يمين تدعى برلانته قادين فازت من الفتنة بمنزلة وكانت في الدلال والغنج ماهرة ملكت عليه النجدين وشغلته عن زوجته ماهوش قادين وأم ولده الأمير إلهامى والتي كانت على شيء من الحسن الجمال في شبابه ولكن مع مضى الزمن وانقضاء الأيام بلغت ما يبلغه الأنام في الكبر والهرم فأخذ اهتمام الباشا يقل نحوها ومشاعره تفتد تجاهها حتى ظهرت برلانته في حياتها فقضت على البقية الباقية من علاقة الباشا بها حيث بات ليلاليه يشرب من معينها الذي لا ينضب فملكته فؤاده بجمالها وسحرت عقله بشبابها وفي تلك الليلة حيث أرخى رأسه على صدرها قائلاً: لا أجد مكاناً ترتاح به نفسى وتهدأ فيه روى إلا بين يديك يا برلانته .

فمرت برلانته أصابع يدها الرقيقة بين خصلات شعره الأسود الطويل قائلة في حنان: روى فداء مولاي ومنية نفسى فمهما فعلت ومهما قدمت فإنى من المقصرين في حق مولاي وجنابه.

ابتسم الوالى قائلاً: يا ليتنى ألمس إخلاصك هذا في كل من حولى .

فأسرعت قائلة: لو أحس مولاي بإخلاصى فيمن حوله لما تميزت دونهم وفزت برضا مولاي وحبه.

ملأ عينيه من وجهها الجميل قائلاً: نعم يا برلانته فأنت كالأواحة الخضراء في الصحراء الجرداء أرتاح فيها كلما هدنى التعب والنصب

فأتزود من زادها بما يمكنى من مواصلة الصراع وسط الأفاعى الرقطاء
التي تترىص بى متحينة الفرصة لتتنقض على.

وضعت يدها على صدره قائلة: مالى أراك اليوم يا مولاي مشغول
البال مكروب النفس؟

قال عباس: الكروب كُثُر يا برلانته فمشكلات الدولة لا تنتهى فتركة
البلاد ثقيلة تركها لى جدى وعمى بعدما قضت أطماعهم و تطلعاتهم
الاستعمارية لبناء مجد شخصى لأنفسهم مستنزفين فى سبيل ذلك كل
إمكانات الدولة ومواردها فقضت الحروب على الأخضر واليابس .. حروب
لم تجن البلاد منها إلا الدمار والخراب والعلاقات السيئة مع الأستانة
ومعظم دول أوروبا.

استحوذ عليه حديثه فاعتدل جالساً وهو يستكمل ما بدأه: ومن
ناحية أخرى الطريقة التى اتبعوها لتحقيق مجدهم حيث أراد جدى أن
يذكره التاريخ بالحاكم العادل .. فقضى على السلطة وخالط العبيد ورفع
من قدرهم .. فتجراً على هيبة العرش بعد انكسار الحواجز بين المحكوم
والحاكم وهى لعمرى آفة كبيرة فكيف يحكم الحاكم رعية لا يهابون جنباه
.. ولا يخشون بطشه .. بعدما زالت الفوارق وحُطَّت المنازل فأضحى العبد
فى منزلة السيد .. ودخلوا دائرة الحكم فترأسوا النظارات وتقلدوا المناصب
الهامة فكونوا الثروات وشاركوا فى الحكم .. فحدثهم نفوسهم بأن المنحة
حق وأن الهبة واجب .. فتجراً على طلبها فأضحى عسيراً على من يحكم
الآن أن ينفرد بحكمه ويستقل بقراره دونهم فإن فعل وهو حقه اتهموه
صراحة بالظلم والكبر.

كان يتكلم بانفعال شديد حتى تفصد العرق في جبينه بغزارة
فمسحت برلانتة على جبينه قائلة: هون عليك يا مولاي فلقد توليت بعد
سنون عدة حكم فيها جدك وعمك فألف الناس حكمهم وتعودوا طباعهم
.. ولن يتغير ما ألفوه على مر السنين في بضعة أشهر فاصبر واصطبر حتى
يألف الناس نهجك الجديد.

قال عباس باشا محتجًا: إن الصبر والاصطبار في حق الحاكم مذمة
وفي حق المحكوم مكرمة.

برلانتة مفسره: أخشى يا مولاي إن جاهرتهم بغير ما ألفوه أن
يناصبوك العداء فيكيدوا لك وما أكثر المتآمرين من حولك وما أكثر
الطامعين في ملكك فله درك لا تؤلهم عليك ولا تبد لهم بسريرة نفسك
حتى لا يدبروا قبل أن تدبر لهم وتستأصل شرهم .

مس كلامها نفس عباس باشا فاستشعر الخطر إلا أنه لم يشأ أن
يجاهر بمكنون نفسه فانبرى قائلاً: أنا لا أخشى كيد الكائدين ومكر
الماكرين فلا...

بتر كلامه فجأة حيث سمع طرقاً على باب الغرفة فنهض واقفاً وعدل
هندامه ونادى بالدخول فدلف الأغا إلى الحجرة قائلاً: حضرة ماقهوش
قادين تريد المثلول بين يدي حضرتكم يا أفندينا.

نظر الوالي للأغا بجدة قائلاً: في تلك الساعة المتأخرة يا أغا ألا تعلم
أصول الحرملك حتى تسمح لنفسك بطرق باب غرفتي وقطع خلوتي على
هذا النحو.

ارتجف الأغا فرقا من بطش الوالى وما أنقذه إلا اندفاع ماهوش
قادين داخل الغرفة وقد ارتسم على وجهها أعتى أمارات الغضب فقال
عباس: ماذا حدث يا هانم حتى تأتى إلى هنا بتلك الساعة وتقتحمين المكان
على هذا النحو؟

عقدت ماهوش قادين حاجبها قائلة: جئت أبحث عن زوجى وأبو
ولدى يا باشا .. فلقد اعترانى القلق وأنا نائمة فتحسست الفراش إلى
جوارى فلم أجده فخشيت عليه من أن يكون أصابه مكروه أو أذى
فالقصر مليء بالمكارة والآفات.

قالت كلمتها الأخيرة وهى تحدج بعينها برلانتة بنظرة خاصة والتى
كانت قد هدأ روعها فالتصقت بكتف الوالى فى دلال حتى تثير حفيظة
محدثها فى حين أشاح عباس بيده قائلاً: لا يجدر لمن هى فى مكانتك يا هانم
أن تقتحم خلوة زوجها على هذا النحو.

أشارت ماهوش قادين بإصبعها تجاهه قائلة: وهل يجدر بمن هو فى
مثل مكانتك يا باشا أن يترك زوجته فى منتصف الليل وينسل من جانبها
ويذهب إلى خادماتها.

صاح الباشا بصوتٍ هادر: الزمى حدودك يا هانم ولتنظرى جيداً لما
يتفوه به لسانك .. برلانتة قادين ليست بخادمتك إنما هى سريرتى آتى إليها
وقتما شئت.

قالت ماهوش قادين بصوت مليء بالمرارة والانكسار: ليس فى ليلتى
ويومى يا باشا فلا يجوز لجنابك أن تظلم فى بيتك وأنت الحاكم على قطرٍ
شاسع مليء بالنفوس التواقفة لعدلك ورأفتك.

عباس: لقد تجاوزت كل حدودك يا ها...

وهنا دخلت بنبة قادين أم عباس باشا وكانت امرأه كبيرة السن
ممتلئة الجسم وهي أم حنون تخشى على ابنتها كثيراً وتعتقد أن كل من
حوله يتأمر ضده وعندما تنأى إلى مسامعها الصياح أسرع لتطمئن
على ولدها فدلفت إلى الحجره قائلة: ماذا هناك يا باشا صوتكم يُسمع
آخر من بالقصر.

لملم عباس طرف ردائه وهو يقول: لا يوجد شيء يا أماه.

ثم خرج غاضباً من الغرفة وهو يلعن بصوتٍ خفيض عقول النساء
وطبائعهن.

في قصر الأزبكية حيث يقطن يوسف بك كامل وحرمه زينب هانم ابنة
محمد على باشا والذي أهدى ابنته هذا القصر عند زواجها وقد أوكل في
إعادة إعمارهِ وتوسعة بناءه أمهر الصناع والبنائين فبات القصر في أحسن
صورة وأبدع منظر يحوطه بستان عامر بأندر أنواع الأشجار وأشهى ألوان
الثمار .. وداخل مبانيه وفرشه الوثيرة عاش الزوجان في هناءٍ ورغدٍ من
العيش تحوطهما عناية الباشا ومن بعده ابنه إبراهيم ثم لاح لهما في الأفق
غمام كثيف وضباب إثر تولى عباس باشا مقاليد البلاد، وكان يوسف
يستشرف حدوث صدام قريب بينه وبين الوالى نظراً لطبيعته عمله والتي
تفرض عليه ملازمته للوالى ومعاينة طبائعه .. وهو ما حدث فعلاً بعد ذلك
وعلى الرغم من محاولات عباس باشا لإضفاء أكبر قدر من السرية على
قرار الاستقالة إلا أن حياة القصور ودواوين الحكم لا تبقى سرّاً طي

الكتمان فتسرب الخبر وبلغ أفراد العائلة .. فتغافل البعض واهتم البعض بالخبر .. وكان على رأس المهتمين نازلى هانم ابنة محمد على باشا والأخت الصغرى لكل من إبراهيم و طوسون و إسماعيل كامل الذين قضوا جميعاً ولم يبق من هذا الفرع غيرها .. وهى فى هذا النسب تعتبر عمّة عباس باشا والى البلاد .. وهى على الرغم من أنها تبلغ من العمر سبعة وعشرون عامًا إلا أنها ورثت عن أبيها كثيرًا من طباعه فتميزت بشدة المراس والبأس والإصرار على هدفها مع القدرة الجمّة على الكيد والتدبير .. كل تلك الصفات التى اشتهرت بها جعلتها مُهَيَّبة الجانب بين أفراد عائلتها وكان لخبر استقالة يوسف بك ما جعلها تستشرف وجود خطر محقق بعائلتها أكبر من مجرد خصومة بين الوالى ورئيس ديوانه لذا فقد ارتأت أن تدعو أخيها عبدالحليم وأبناء أخيها إبراهيم إلى زيارة أخيها وزوجها لتتباحث معهم حول الوضع الراهن وما يتطلبه من تدابير وقد خف الجميع لتلبية الدعوه وذهبوا لزيارة زينب هانم و يوسف بك الذين احتفوا بهم غاية الاحتراف فأعدت مأدبة للعشاء اصطف عليها ما لذ وطاب من الطعام وبعدما فرغ الجميع من مآكلهم ذهبوا إلى قاعه مجاورة فرشت أرضيتها بأفخر أنواع السجاد وتراصت على حافتها مقاعد وكنب وثير فى حين تزين الجدار المواجه للباب صورة زيتية كبيرة الحجم لمحمد على باشا وهو متقلدًا حسامه، جلس الجميع ودار عليهم الخدم بشرابٍ حلو المذاق ذكى الرائحة ثم أشار يوسف بك للخدم فرفعوا الأكواب وغادروا القاعة بعدما أوصدوا أبوابها وعندئذٍ قالت نازلى هانم: لقد علمنا يا يوسف بك بما وقع بينك وبين الوالى من خلاف وما استتبعه من تقدمك باستقالتك من منصبك وقد أتينا اليوم لتتباحث نحن والأمراء حول هذا الأمر.

كان يوسف تأبى عليه نفسه الجهر بالشكوى خاصة في أمر يخص شؤون عمله والذي لم يعتمد فيه إلا على كفاءته وخبراته مما جعله يقول: يشرفنى اهتمامك يا نازلى هانم أنتِ والأمرء ولكن ما حدث بينى وبين الوالى خلاف حول طريقة العمل فقد أدليت رأبى الذى كونته من خلال عمل سنوات طوال أفنيتهما في سبيل أن يكون لهذا الرأى قيمة ولكن الوالى رفض رؤيتى ووجهة نظرى واتخذ سبباً آخر وهذا حقه ولا ملامة عليه في ذلك كما أنه لم يطالبنى بتقديم استقالتي بل أنا الذى تقدمت بها بمحض إرادتي.

قالت نازلى بهدوء: يوسف بك نعلم نفسك الأبية وعزوفك عن الجهر بالشكوى إلا أن الأمر لا يقف عند خلافك مع الوالى بل يتعداه إلى أمرٍ أخطر بكثير يهدد كيان العائلة كلها وهو ما جعلنا اليوم نجتمع للتشاور مستعينين برأىك السديد ومستبصرين بخبرتك وحكمتك واثقين من أنك لن تمنع عنا النصيح والرأى الذى عاهدت والدنا على بذله له ولأفراد أسرته من بعده.

جذب كلامها حواس يوسف وشحد همته فقال متسائلاً: عن أى خطر تلمح الهانم؟

أجابته نازلى مباشرة: الخطر الذى يكمن في شخص الوالى الجديد وغرابة أطواره فلا يخفى عليك يا يوسف بك أن الوالى كان دائم الشقاق مع والدنا محمد على وأخانا إبراهيم ومن ثم فَجُلُّ ما نخشاه أن تسول له نفسه الأمانة بالسوء القضاء على سلطان العائلة في البلاد مستعيناً على ذلك بإبعاد كل رجال الدولة الذين عينهم من سبقوه متذرعاً في تنفيذ مخططه بكل الذرائع التى تحقق له مآربه.

تسائل يوسف: وما الذى حرك مخاوفكم وأثار ريبتكم يا هانم؟

نازلي: كل تصرفات عباس باشا منذ تولية حكم البلاد فهو لم يصرف إلى الآن إرث أبناء محمد على ولا إرث أبناء إبراهيم متعللاً بأسبابٍ شتى كما لاحظنا تعمده الإساءة إلى كل رجالات الدولة القدامى حتى يضيق بهم المقام فيحذوا حذوك ويستقبلوا من مناصبهم تاركين الساحة لرجال الوالى الجديد الذى من الواضح أن أفكاره على النقيض من أفكار من سبقوه فى الحكم فهو دائماً ما ينهج نهجاً غير الذى انتهجوه ويسلك درباً خلاف الذى قطعوه فلا يجد ممن حوله من يعارض نهجه ويُقَوِّمُ دربه.

كان ما تقوله نازلى هو نفسه ما حاول يوسف أن يقوله للوالى فى ديوانه إلا أنه قال: ولكن يا هانم كل حاكم من حقه أن يختار من يعاونوه فى حكمه .. وينهى من يرى عدم اتفاقه مع رؤياه.

وهنا تحدث أحمد رفعت فقال: اسمح لى أن أدلى بدلوى فى حديثكم على حسب ما لدى من معلومات وأرجو من يوسف بك أن يصحح كلامى إن كان به شيء خاطئ.

وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يستدرك قائلاً: أولاً لقد استبعد الوالى رفاعة بك الطهطاوى وهو ما يستتبعه من تدهور فى نظارة التعليم بمصر .. ثانياً: استبعاد الوالى لكثير من الخبراء الفرنسيين وإعادتهم إلى وطنهم يفرغ البلاد من خبرات كثيرة هى فى أشد الحاجة إليها .. ثالثاً: اليوم علمت من أخى إسماعيل أن الوالى يتدخل فى شئون الأسطول المصرى فقد أصدر بعض الفرمانات بتسريح الكثير من جنود البحرية وتعطيل عدة فرقاطات خاصة بالأسطول كل هذا دون الرجوع فى الرأى لقائد الأسطول سعيد باشا وهذا يعد تدخلاً صريحاً فى نطاق عمله مما أصاب عمنا بالغضب

الشديد من تلك التصرفات الغير مبررة من الوالى .. رابعاً: إقصاء الوالى
للعديد من القيادات الوطنية التى ساهمت فى نهوض هذا الوطن على
مدار عقود وتعيين آخرين أقل كفاءة من سابقهم كل هذا يؤكد لنا أن
البلاد تتجه إلى منعطف خطير يهدم كل ما سبقه من نهضة وتقدم على كل
المستويات.

أنهى أحمد رفعت كلامه فأسرع إسماعيل يلتقط من أخيه طرف
الحديث قائلاً بحماسة المعهودة: وواجبنا يا يوسف بك كأبناء لتلك
البلاد من ناحية وورثة لهذا الملك من ناحية أخرى أن نواجه أى معول
يهدم ويقتل فى عضد دولتنا العلية.

كان يوسف ينظر إلى الأمراء وهم يتكلمون وعلى وجهه ارتسمت ملامح
الإعجاب حيث قال: رحم الله والدكم وكأنى أنظر إليه وانتم تتحدثون الآن
.. فقد جمعتم بين عقلة الراجح وحماسته التى لا يطفى جذوتها إلا تحقيق
مراده.

وهنا تحدث مصطفى فاضل قائلاً: اسمح لى أن أوضح أمراً هاماً قبل
أن تجرفنا مشاعر الحماسة إلى إخطاء التقدير .. أعتقد أن ما أوقد
حماسة الأمير إسماعيل وغضبه على الوالى هو موقف الوالى منه فى قصر
رأس التين وانفعال الوالى عليه ونحن حضور وليس عن قناعة حقيقية
وإعلاء لمصلحة البلاد.

انفعل إسماعيل محتدًا: بل أنت الذى لا أعلم أنتمى إلينا أم إلى
الوالى وإنى لأتساءل عن حقيقة موقفك تجاه تصرفات الباشا المسيئة
دائمًا لوالدنا وجدنا الراحلين فالرجل لم يألُ جهدًا فى تقزيم موقفهم
ودورهم فى نهضة البلاد وأنت مع ذلك أراك دائمًا مع المادحين اللاهجين

بالثناء عليه متناسياً تاريخ طويل حطَّه والدك وجدك لا يستطيع واليك هذا أن يسلك معشاره.

وهنا تدخل أحمد رفعت فهو الأخ الأكبر للأخوين المتشاكسين: هدا من روعكما يا أبناء إبراهيم باشا .. ولا تجعلوا عواطفكما تطغى على ما بينكما من أواصر الأخوة.

قال مصطفى باشمراز: أنا لم أخطئ فيه يا أخي .. كل ما قلته هو تعبير عن رأي لكن إسماعيل لا يقبل رأياً يعارض رأيه .. بل إنه يشكك في ولائى لأبى وجدى.

تدخلت نازلى بحدة قائلة: إننا لم نأت اليوم كي نشاهد تناحركما حول من منكم وفيًا لذكرى والده أكثر من الأخر .. ولكنكم أمراء العائلة و واجبكم المحافظة عليها من أى خطر يعترضها.

ثم التفتت إلى يوسف قائلة: لم نسمع رأيك بعد يا بك فى كيفية مواجهة سياسة الإقصاء التى ينتهجها الوالى ومحاولاته الدؤوبة للانفراد بالحكم.

صمت يوسف قليلاً ليستجمع أفكاره ثم قال بهدوء: أولاً ينبغى عليكم أن تجددوا أولوياتكم فى تلك المرحلة .. وأنا شخصياً أرى أن الأولى الآن هو المطالبة بارتكهم المؤجل السداد .. فهو حركم الشرعى ولا يجوز لأى أحد سلبكم إياه أو مساومتكم عليه فبعدهما تحصلون على إرتكهم الشرعى فستتمتعون بموقف مالى قوى يدعم موقفكم فى مطالبكم السياسية التى تطمحون إليها فإذا وجدتم تعنتاً من الوالى إزاء مطالبكم وأفكاركم السياسية والتنموية استقلتم بأفكاركم فتقوموا بتنفيذها بمالك الشخصى دون الحاجة إلى وصاية ودعم من أحد .. فمثلاً تستطيعون بناء

المدارس الخاصة وتندبون إليها ما ترون من المدرسين الأكفاء .. كما تستطيعون القيام ببعض المشروعات التنموية والخدمية .. فتعيدوا بناء المصانع التي أغلقها الوالى وتعيدوا لها قوتها العاملة المصرية .. ومع الوقت تزداد شعبيتكم بين المصريين وتقوى شوكتكم بالتفافهم حولكم .. فلا يجد الوالى أمامه سوى أن يتحالف معكم ويجاريكم فى سبيلكم أو يعاندكم ويزداد موقفه ضعفاً وسوءاً فى مقابلكم.

ساد الجميع حالة من البشر على إثر حديث يوسف بك الذى جدد لهم الأمل وفتح أمامهم طاقات النور فقالت نازلى بسرور: والله لم يخب ظننا فيك يا يوسف بك دمت ملاذاً حكيماً لعائلتنا.

ثم نظرت إلى أختها زينب هانم قائلة بابتسامة كبيرة: إنى لأغبطك على زوجك يا زينب ورحم الله والدنا فلم تخب نظرته فى شخص أبداً سواء بالسلب أو بالإيجاب.

تورد وجه زينب من أثر مديح أختها وربتت على يد زوجها فخورة به وهى تقول: رحم الله والدنا لم يكن يقدم الرجال لمالهم ولا لحسبهم ولكن لرجاحة عقلهم وكفائتهم فلم يكن يوسف بك إلا موظفاً صغيراً حين وافق والدى على زواجى به وأتذكر يوم زفانى قوله لى بصوتٍ حنون " إن يوسف لنا به العقل نبيل الأصل وسيكون له شأنٌ فى مستقبل عمره فحافظى على زوجك وكونى محفزة وادفعيه للأمام ولا تكونى حجر عثرة فى طريق رفعتة".

لم تتمالك زينب هانم نفسها بعدما تذكرت والدها ورعايته لها فطفرت دموعها من مقلتها فنهضت تقول متلعثمة: سأذهب لأنعجل الشراب المثلج فقد جفت حلوقنا من كثرة الكلام.

وانسلت خارجة من القاعة وعيون زوجها تتعلق بها في حنان، حتى قال أحمد: إذن يا يوسف بك لنتحرك غدًا لتنفيذ ما اتفقنا عليه فنذهب إلى الوالى جميعاً مطالبين بحقنا في إرث آبائنا المسلموب.

قال يوسف: أرى ألا تجعلوا الأمر يبدو وكأنه تمردًا أو ثورة ضد الوالى .. فتثيروا نفسه الشحيحة ضدكم وتألّبوا مشاعره العدائية عليكم فتخسروا جولتكم من قبل أن تبدأوها .. لذا أرى أن تذهب إليه نازلي هانم بما لديها من عقل راجح وقوة حجة فتعرض عليه مطالبكم الشرعية في هدوءٍ وحسم وتعلمه تصميمكم في المضى قدمًا وراء هدفكم المنشود إلى أبعد مدى ولا ضير في أن تزج باسم الباب العالى بين الفينة والأخرى حتى تصله الرسالة كاملة غير منقوصة.

فقال عبدالحميم: نعمَ الرأى يا يوسف بك فالوالى لن يرضخ إلا بالتهديد والزجر من قبل الباب العالى .. وأنا على أتم الاستعداد للسفر إلى الأستانة كأحد ممثلى أبناء محمد على وورثته فأخبره من أمر الوالى إذا رفض مطالبنا.

أشار يوسف بيده قائلاً: إن إخبار الباب العالى بمطالبكم أمر ميسور فلى هناك العديد من الصداقات والمعارف الذين تعرفت عليهم من خلال عملى السابق مع محمد على باشا فقد بعثى لأكثر من مرة إلى الأستانة فى العديد من المهام مما أتاح لى فرصه التعرف على العديد من الشخصيات الهامة داخل وخارج القصور العثمانية حتى وصلت معارفى بالصدر الأعظم رشيد باشا.

أحمد باحترام: أنت دائماً محل إعجاب وتقدير أينما حللت يا بك

رد يوسف: بوركت يا أمير .. إن جُلَّ خبراتي ومواهي قد اكتسبتها
نتيجة تشجيع والدكم وجدكم اللذان شملاني برعايتهما واجتبياني بالنهل
من رحيق خبرتهما.

ثم استطرد قائلاً: على كل الأحوال فلننفذ عزمنا على الغد إن لم يكن
لدى نازلي هانم ما يمنع؟

أجابته نازلي قائلة: سأذهب في الغد صباحًا إن شاء الله.

فقال إسماعيل مداعبًا عمته: كلما نظرت إلى عمتي وتصميمها
وتذكرت قوه شكيمتها أشفقت على عباس باشا من تلك الزيارة .

فابتسم الحاضرون إلا نازلي التي قالت بغضب مصطنع: أرى أن
تعلمك بالخارج لم يؤت ثماره معك فلا زلت تتحدث كعوام أهل البلد
فتخاطبني بلقب عمتي وكأنك نشأت بشوارع المحروسة وليس ابن إبراهيم
باشا والى البلاد السابق.

ضحك الجميع في مرج من قولها وقال يوسف بك: إن إسماعيل
بقوله هذا يؤكد كلامي حول شدة الشبه بينه وبين أبيه والذي كان أكثر
الأمراء خلطة بأهل مصر من جميع الطوائف وكان كثيرًا ما يؤثر مجالس
العوام على مجالس الأمراء وأكابر البلد.

عادت نازلي تقول بعناد: كان والده يجالس أبناء المحروسة ولكنه كان
لا يقلدهم وهو يحدث أقربائه فيخاطبهم مخاطبة العوام.

ثم نظرت إلى إسماعيل وهي تقول: فلا تثير حفيظتي فأريك بعضًا من
قوة شكيمتي التي تتحدث عنها فتصبح من النادمين.

فضحك الجميع من غضبها المصطنع ثم تبادلوا أحاديث الأسرة الدافئة بعيدًا عن صراعات الحكم وخلافاته.

في صبيحة اليوم التالي انعقد ديوان الوالى بالقلعة بحضور الوالى عباس حلمى ونجله الأمير إلهامى وأحمد باشا يكن رئيس الديوان الجديد ونوبار أفندى مترجم الوالى حيث أُنْعِدَ الجمع للإضطلاع وللإستماع إلى العروض المقدمة من الدول الأوروبية بخصوص المشروعات الضخمة والتي من الممكن تنفيذها في مصر وكالعادة لم يكن حاضرًا إلا القوتين الكبريتين المتصارعتين على السيادة في ذلك الوقت فرنسا وإنجلترا وتجلت أرض الكنانة كساحة خصبة تتبارى على أرضها الدولتين للفوز بمقدراتها تارة بالقوة الناعمة متمثلة في الغزو الثقافي والفكرى وتارة بالقوة الغاشمة متمثلة في الغزو العسكرى وفي تلك الحقبة بعدما أعلن الوالى عن رغبته في تنفيذ عدة مشروعات كبرى فتسابقت الدولتين لتنفيذ تلك المشروعات وفتح مجال جديد للتوغل في بر مصر ومن ثم فقد جلس الوالى على أريكته وجمع خواص رجاله لتدارس الأمر وقد أشار لغلامه خليل بإدخال المبعوث الفرنسى الذى قطع المسافة من الباب حتى دنا من كرسى الوالى في خطوات واسعة واثقة فحيا الوالى بأدب جم قائلاً: أتشرف بالمثل بين يدي حضرتكم .. فيردنا ند دليسييس دبلوماسى منتدب من القنصلية الفرنسية لعرض مشروعنا على جناب الوالى .

أجابه الوالى عن طريق مترجمه نوبار: لست مجهولاً لدينا يا مسيو دليسييس فوالدك كان صديق جدنا وأنت كنت معلماً للفروسية لولى عهدنا سعيد باشا فتفضل وقدم مشروعك مباشرة.

دليسييس: سيدي الوالى طاب صباحكم ودام ملككم وازدهر في ظل حكمك الرشيد وعمركم المديد أنقل لكم تحيات فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية لويس نابليون وأتشرف بعرض مشروعنا على شخصكم الكريم .. مشروعنا الذى سيغير وجه العالم أجمع وسيجعل مصر مركزًا للكرة الأرضية كلها تتعلق بها القلوب والأمال بُغية نيل جزء من حظوتها وبلوغ بعض مكانتها.

لوح الوالى بيده قائلاً: لقد شوقتنا لمعرفة كُنه هذا المشروع وبيان تفاصيله .. فهات ما لديك.

فرد دليسييس لفافة مطوية بيده وهو يقول بحماس جم: مشروعنا يتلخص في شق قناة هنا يا سيدي .. عند برزخ مدينة السويس ويستمر في هذا الخط لحوالى مائة وستون كيلومتراً حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط مجرى ملاحى يصل الشرق بالغرب تمر من خلالها قوافل التجارة وبواخر المسافرين لتختصر المسافات وتطوى الأرض طيًّا مقارنة بما يحدث الآن من دوران البواخر عن طريق رأس الرجاء الصالح.

قال الوالى وهو يداعب أطراف لحيته: وماذا ستجنى البلاد من مثل تنفيذ هذا المشروع الضخم؟

أسرع دليسييس يرد بحماس: تجنى المجد سيدي الوالى .. تجنى مصر من تنفيذ هذا المشروع أن تكون قبلة للعالم أجمع .. تتوافد عليها البواخر والأساطيل من شتى بقاع الأرض راجية أن تسمح لهم بالمرور عبر قناتها الحديثة .. هذا بخلاف العمران الذى سيدب في تلك المناطق القاحلة فتفتح أفقاً رحبة من اليابسة العامرة بشتى سبل الحياة أمام سكان الوادى الذى ضاق بهم فيها جروا إلى تلك البقاع فيعمروها ويرزقوا بها.

أطرق الوالى قليلاً مفكراً ثم قال: شق مثل تلك التربة الكبيرة التى تتحدث عنها يحتاج إلى إمكانات جبارة ومعدات ضخمة لا تتاح لمصر الآن ومن ثم فالمشروع بتلك الصورة صعب التنفيذ فى الوقت الحاضر ولكن فى المستقبل إذا توافرت لنا تلك الإمكانيات فمن الممكن لنا أن نعمن النظر فيه.

ابتسم دليسيبس وهو يقول: اسمح لى يا سيدى أن أطلع فخامتكم بأننى قد أجريت عده اتصالات مع شركات عمرانية عملاقة لتنفيذ المشروع وهذا عرض من إحدى الشركات الفرنسية الضخمة التى أوكلتني بتقديمه إلى جنابكم.

وأسرع بإخراج بعض الأوراق من داخل سترته التى يرتديها وقدمها إلى الوالى الذى أشار إلى نوبار أفندى ليتسلمها منه وهو يقول: سنضطلع عليه باستفاضة ولكن حدثنى عن بعض النقاط الرئيسية باختصار يا مسيو دليسيبس.

دليسيبس: يلزم هذا العرض الشركة الفرنسية تقديم كافة التجهيزات الفنية من معدات وآلات ورسومات هندسية ومقاييس جيولوجية وعدم تكليف الطرف المصرى أى أعباء أو تكاليف فنية أو مادية خلال فترة تنفيذ المشروع .. وتنفيذ المشروع حسب الدراسات الهندسية الموضوعة جاهزاً معداً لاستقبال السفن العابرة وأى خطأ فى التنفيذ يعود بالضرر وتحمل التبعات على الشركة المنفذة وليس على الطرف المصرى أى مسئولية نتيجة الأخطاء الفنية والإهمال التقنى داخل القناة.

الوالى: هذا التزام الشركة الفرنسية فما يخص الجانب المصرى؟

هم دليسيبس أن يتكلم لولا أن استكمل الوالى كلامه وهو يشير إليه بإصبعه السبابة: ولا تحدثنى عن البعد الإنسانى والعائد على البشرية فأنت تعلم كما أعلم أن ما من شركة كبرى تسعى لتنفيذ مشروع دون أن يكون معتبراً لديها العائد المادى قبل كل شيء.

ابتسم دليسيبس ابتسامة مدهانة وهو يقول: يعجز لسانى عن وصف مدى إعجابى بفطنة وذكاء مولائى الوالى فمعك كل الحق فى كلامك يا سيدي .. وهنا يتضح الدور الذى قمت به قبل عرض المشروع على جنابكم فقد تفاوضت مع مسئولى الشركة حول تخفيض كثير من مطالبيها وتقليص العديد من امتيازاتها لذا فقد اقتصرت مطالبيهم فى بندين وحيدين فقط الأول: أن تمد مصر المشروع والشركة بالأيدى العاملة الرخيصة الثمن التى تمتاز بها البلاد وتعتبر مصر مسئولة عن أى تأخير فى توريد تلك العمالة التى تحتاجها الشركة لتنفيذ المشروع وتتحمل مصر غرامة مائة ألف فرنك إذا لم تلتزم بذلك البند .. كذلك تمنح مصر الإعفاءات الجمركية على المعدات المزمع استيرادها من الخارج للعمل بالمشروع .. كما تخول الشركة لمصر حق نزع ملكية الأراضى التى تلزم قيام المشروع دون الرجوع على الشركة بأى تعويضات تدفع لملاك تلك الأراضى.

نظر له الوالى ملياً ثم قال: والبند الثانى؟

أجاب دليسيبس: والثانى امتياز تهيه مصر لإدارة الشركة بأحقية انتفاع الشركة بإدارة القناة وتحصيل إيراداتها لمدة لا تقل عن مائتى عام مقابل التكلفة العالية لإنشاء تلك القناة التى لم تدفع مصر فيها أى أموال لشقها وتجهيزها .. كما تتنازل مصر للشركة عن الأراضى اللازمة لإنشاء الترعة المألحة وترعة للمياه العذبة وتوابعها وتخصيص مساحة

عرض عشرة كيلومترات على الجانبين تتنازل عنها مصر دون مقابل مع إعفاؤها على الدوام من الضرائب كما تخصص الأراضي الصالحة للزراعة للشركة لتزرعها وتروىها .

صمت الوالى كثيرًا وهو ينظر إلى مسيو دليسييس الذى ظل هادئًا ينتظر جواب الوالى على مشروعه حتى قال الوالى بيروود: يبدو أن الأرقام عندكم فى الفرنسية تختلف كليًا عن ما هو عندنا فى العربية .. على كلٍ .. ألا يدرك من وضع تلك البنود الكثيرة والتى تعدت البندين كما تحدثت أن ذلك المشروع مقام فى الأساس على أرض مصرية تمهيا مصر فى حالة موافقتنا على مشروعكم فكيف نعطي لشركة هذا الامتياز المجحف ونقبل بتخصيص تلك الأراضي وتسخير رعايانا للعمل فى شق قناة لا تعود بالنفع المباشر على بلادنا.

أسرع دليسييس قائلاً: هناك بند آخر ينص على أن لمصر حوالى 5% من إيرادات القناة السنوية وذلك طوال مدة سنوات الامتياز ثم بعد ذلك تعود القناة إلى مصر كاملة بكامل دخلها ومواردها.

مط الوالى شفوية بعدم اقتناع قائلاً: 5% فقط فى السنة.

أسرع دليسييس قائلاً بدبلوماسية: سيدى الوالى فور موافقتكم المبدئية على المشروع فإنى أعدكم أن يكون التفاوض مع الشركة المنفذة مثمرًا فنتفاوض على نسبة العائد وسنوات الامتياز وغيرها .

هز الوالى رأسه قائلاً: اترك أوراق المشروع مع نوبار أفندى كى نتدارسها مع المتخصصين ثم نوافيك بموقفنا النهائى من مشروعكم نشكرك على حسن طرحك مسيو دليسييس.

كان ذلك إيذانًا بانتهاء اللقاء فحيا دليسيبوس الوالى قائلاً: أشكر لكم سعة صدركم يا باشا وأرجو أن ينال هذا المشروع قبولكم فيذكركم التاريخ مخلدًا مسعاكم في نهضة البشرية وتقدم الأمم.

أشار له الوالى محيياً، وفور انصراف الدبلوماسى الفرنسى نظر الوالى إلى الحضور بسخرية قائلاً: هذا الأفاق اللبق يريدنى أن أوافق على مشروع سيفتح على بلادنا أسباب الخراب والتبعية لسنواتٍ لا يعلم مداها إلا الله ونسخر رعايانا لتنفيذ مشروعهم ونقدم لهم أراضينا لخدمة مصالحهم ثم يمنون علينا بصدقةٍ من أرباحهم، إن هذا لهو السفه بعينه.

صمت برهة ثم أكمل وهو يشير بيده: وعلى الرغم من ذلك أطلبكم بدراسة المشروع دراسة وافية وعرضه على المهندسين المتخصصين لتقديم ملاحظاتهم عليه.

ثم أشار إلى خادمه قائلاً: يا خليل أدخل مستر مورى القنصل الإنجليزى لئرى ما فى جعبته هو الآخر.

أسرع خليل يصدق بأمر سيده وبعد لحظات دخل المستر مورى ووقف بين يدى الوالى بقامته الطويلة ووخلته المتأنقة وشاربه المنمق فى عناية وحيا الوالى قائلاً: صباح الخير سيدى الوالى .. إنه لمن دواعى سرورى أن أبلغكم بتحيات ملكة بريطانيا العظمى مصحوبة برسالةٍ تسلم إلى فخامتكم سيادة الوالى.

وتقدم خطوتين ومد يده بالرسالة إلى الوالى الذى أشار إلى نوبار أفندى فأسرع يلتقط الرسالة من يد المستر مورى ثم تراجع كل منهما إلى مكانه السابق حيث قال مورى: سيدى الوالى نحن الإنجليز قومًا لا نجيد المراوغه لذا سأكون صادقًا ومحددًا معكم لأقصى حد فى كلامى ولكن

بداية وددت لو اقتصر هذا اللقاء على شخصكم الكريم وولدكم الأمير إلهامى حتى لا يتم ال ..

قاطعه الوالى فى صرامة: تكلم يا مستر مورى فإن هؤلاء الحضور هم خاصة رجالى ولا أكتهم سراً من أمرى.

تحدث مورى وقد رفع سحنته البرود: فليكن إذن .. نحيطكم علمًا أنه لا يخفى علينا مسعاكم الدئوب للخروج من عباءة فرنسا، وأنتم بذلك تختلفون فى سياستكم عن سابقكم فى إدارة البلاد من التماس يد العون من فرنسا فى كل النواحي والقطاعات سواء التنمية أو العلمية أو العسكرية ونحن نبارك مسعاكم ونؤيدكم فى خطواتكم فى الاستقلال بقراراتكم معتمدين على سواعدكم وقدراتكم التى لا تقل كفاءة وقدرة عن مثيلاتها بالبلاد الأوروبية .

وصمت لحظة ليرقب أثر كلماته على الوالى والحضور ثم تابع قائلاً: ونحن نمد لكم أيدينا لشراكه الند بالند وليس لوصاية أو سيطرة أو حتى لتدخل بأى صورةٍ من الصور فى شؤونكم الداخلية أملىن أن تقابلوا يدنا الممدودة بالصدقة بمثيلها وبذلك تعم الفائدة على الجميع.

ثم فرد ورقة كانت مطوية بيده قائلاً: وإبداءً لحسن النوايا أقدم لحضراتكم مشروعنا الضخم وهو خط سكة حديدية يمتد من الإسكندرية إلى السويس للربط بين البحرين الأبيض و الأحمر دون أى مخاطرة من جانبكم وبسواعد مهندسيكم المصريين مع إشراف بعض مهندسينا الإنجليز وفور انتهاء تنفيذ المشروع تنتهى علاقتنا به ليكون بكامله تحت إشرافكم ومسؤوليتكم وحدكم، ويشرفنى أن أقدم لكم بعضًا من مميزات هذا المشروع.

وَعَدَّ عَلَى أَصَابِعِهِ قَائِلًا: أَوَّلًا: الْمَشْرُوعُ مَلِكٌ لِلدَّوْلَةِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَلَيْسَ لِبْرِيْطَانِيَا فِيهِ إِلَّا تَقْدِيمُ بَعْضِ الْخِبْرَاتِ التَّقْنِيَّةِ وَالْهِنْدَسِيَّةِ الْإِلَازِمَةِ لِلتَّنْفِيْذِ لِيَخْرُجَ بِالْمُظْهِرِ الْحِضْرَارِيِّ الْمَشْرُوفِ .. ثَانِيًا: يَسَاهِمُ الْمَشْرُوعُ فِي إِعْمَارِ الْمَنَاطِقِ الْقَاحِلَةِ وَالَّتِي سَتَمُرُّ بِهَا خَطْوَةُ الْحَدِيدِيَّةِ سِوَاءً عَنِ طَرِيقِ الْإِسْتِصْلَاحِ الزَّرَاعِيِّ أَوْ عَنِ طَرِيقِ الْخِدْمَاتِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَتَوَافَرَ أَثْنَاءَ رِحْلَةِ السَّفَرِ .. ثَالِثًا: تَنْشِيْطُ حَرَكَةِ التِّجَارَةِ فِي الْبِلَادِ وَجَعَلَ كُلَّ مَنْ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَالسُّوَيْسِ مِيْنَانِيْنِ عَالَمِيْنِ تَرْنُو إِلَيْهِمَا قَوَافِلَ التِّجَارَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ بِالْعَالَمِ هَذَا بَعْضًا مِنْ مِمِيزَاتِ الْمَشْرُوعِ وَالَّتِي نَعْتَبِرُهُ بِأَكْوَرَةٍ تَعَاوَنَ مَشْتَرِكٌ بَيْنَ بَلَدَيْنَا أَمَلِيْنِ أَنْ يَحُوْذَ رِضَاكُمْ وَيُنَالُ قَبُولَكُمْ.

سَادِ الصَّمْتِ لِبَرْهَةٍ مِنَ الْوَقْتِ بَعْدَمَا أَنْهَى مَوْرِي كَلَامَهُ حَتَّى قَطَعَ هَذَا الصَّمْتِ الْوَالِي قَائِلًا: هَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَكَ يَا مَسْتَرِ مَوْرِي عَنِ مَدَى مَعْلُومَاتِكُمْ حَوْلَ مَا تَلْقِينَاهُ مِنْ مَشْرُوعَاتٍ أُخْرَى؟

لَا حَ شَيْخِ ابْتِسَامَةٍ عَلَى وَجْهِ مَوْرِي الْجَادِ وَهُوَ يَقُولُ: إِلَى الْمَدَى الَّذِي يَجْعَلُكُمْ تَوَلُّونَا ثِقْتَكُمْ يَا جَنَابَ الْوَالِي فَإِنَّ مَصَالِحَنَا مَشْرُوكَةٌ وَأَهْدَافُنَا مِمْتَاثَلَةٌ.

هَذَا الْوَالِي رَاسَهُ عِلَامَةُ التَّفْهِيْمِ وَهُوَ يَقُولُ: مَشْرُوعُكُمْ يَثِيْرُ الْإِهْتِمَامَ يَا مَسْتَرِ مَوْرِي لِذَا سَلَّمَ أَوْرَاقَهُ إِلَى نَوْبَارِ أَفْنَدِي حَتَّى يَثْبُتِي لَنَا دِرَاسَتَهُ وَعَرَضَهُ عَلَى الْمُتَخَصِّصِيْنِ.

سَلَّمَ مَوْرِي الْأَوْرَاقَ الَّتِي بِيَدِهِ لِنَوْبَارِ ثُمَّ قَالَ: أَرْجُو أَنْ يَسْتَمُرَّ التَّعَاوَنُ بَيْنَنَا يَا حَضْرَةَ الْوَالِي حَيْثُ سَتَجِدُونَ دَاخِلَ خُطَابِ الْمَلِكَةِ عَرَضًا مِمَّا بَتَدْعِيْمِ مَوْقِفِكُمْ وَمَسَانِدِكُمْ عِنْدَ فِخَامَةِ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِي وَذَلِكَ لَعَلَّمْنَا

بمدى سوء العلاقات بينكم وبين إسطنبول والتي ورثتموها من سابقكم مع حكم البلاد.

وعند هذا الحد التمعت عين الوالى من الانفعال وقال بلهفة:

إلى أى مدى يمكنكم أن تدعموا موقفنا عند الباب العالى؟

أجابه مورى بهدوء لا يظهر أى انفعالات: إلى الحد الذى يمكن لكم حكم البلاد ومن بعدكم ولدكم الأمير إلهامى.

ارتج على الوالى من شدة الانفعال إثر كلمات الرجل الإنجليزى حيث كانت صراحته شديدة الوطأة وكأن الرجل يقرأ أفكاره ويعلم ما يدور بخلده ثم قال وهو يديم النظر إلى الرجل الإنجليزى محاولاً أن يسبر أغواره: نشكر لكم مسعاكم يا مستر مورى وسنوافيكم برأينا فور إنتهائنا من البت فى مشروعكم.

حَيَّاهُ الرجل وانصرف من الديوان وما إن انصرف حتى قال الوالى لنوبار أفندى: اجمع كل أوراق المشروعات واعرضهما على لجنه الخبراء على أن يوافقونا برأيهم فى جدوى المشروعات.

أسرع السكرتير بتنظيم الأوراق وجمعها فى حين نهض الوالى قائلاً للحاضرين: انفضَّ الديوان يا سادة وليعود كلُّ منكم إلى عمله .

بعد انقضاء الديوان أسرع الوالى للترييض وركوب الجياد التى كانت اسطبلات قصره عامرة بأندرها وأجودها فسار يهرول أمامه غلامه خليل حتى بلغوا الإسطبل فأخذ الغلام يلقي بتعليماته للعمال بالإسطبل حتى

يجهزوا لمولاه الجياد ليختار منها ما يريد فانطلق العمال يمنا ويسرة ووقف الوالى بعيداً عنهم ينظر إليهم في تبرم وبينما هو في موضعه سقط غراب من السماء صريعاً أمامه فجفل الوالى وتراجع مأخوذاً وهو يصيح: يا غراب الشؤم يا فآل السوء .. أرجعوا الجياد لحظيرتها .. يا أولاد الملاعين .. يا خدم الشؤم.

وصرخ وقد أحمر وجهه من الغضب: يا خليل يا ملعون كيف سقط غراب الشؤم هذا في حديقتنا وأمام أعيننا.

ارتجف خليل رعباً وهو يقول: العمال الملاعين مهملين يا أفندينا لا يقومون بعملهم لك. .. قاطعه الوالى ملوحاً بذراعه كلها: يجلدوا عشر جلدات حتى يتعلموا عدم الإهمال يا خليل .

وأسرع قافلاً إلى داخل قصره فرآه سكرتيره نوبار أفندى فهرول إليه مخاطباً: يا أفندينا إن حسن باشا المنسترى محافظ القاهرة يطلب الإذن بالمثل بين ..

صاح عباس في وجهه وهو يمسك بتلابيبه صارخاً في غضب: لا مقابلات اليوم .. إلغ كل المقابلات في هذا اليوم المشؤوم .. لعنه الله عليكم أجمعين.

أسرع نوبار يصيح وهو يرتعد فرقاً: أمر جنابك نافذ أفندينا .. أمر جنابك نافذ أفندينا.

وانطلق عباس صاعداً إلى جناحه وهو يبسم ويحوقل فوجد أمامه أمه وزوجته وعمته نازلى يتكلمون فلما رآوه أقبلوا عليه فسألته والدته

وهى تنظر لحاله بقلق قائلة: ماذا حدث وأقلق صباح أفندينا المعظم على هذا النحو؟

تمتم الوالى قائلاً: صباح الشؤم .. سترك يا رب من هذا الصباح .. سترك يا رب.

وهمَّ بالابتعاد عنهم إلا أن نازلى خاطبته قائلة: أود التحدث إلى ابن أختنا جناب الوالى فى أمرهم.

توقف برهة فى اضطراب وهمَّ بالانفجار فى وجهها لولا تذكره لمكانتها داخل العائلة فالتفت إليها قائلاً: العمه باشا مرحباً بتشريفكم قصرنا ولكن ..

وبدا على وجهه الضيق وهو يكمل: أليس من الممكن إرجاء هذا الأمر لوقتٍ آخر؟

أجابته نازلى بصرامة: الموضوع الذى أريدك به لا يحتمل التأخير.

عقد عباس حاجبيه وهو يقول: خيراً يا عمه باشا.

نظرت نازلى للحاضرين وقالت: أريد محادثتك على انفراد يا ابن أختنا طوسون باشا رحمة الله عليه.

رفع عباس ذراعيه وهو يؤمن على كلامها: رحمه الله رب العالمين

ثم استدرك متبرماً وهو يشير بيده: إذن فلندخل إلى جناحى الخاص وتخبرينى بما لديك.

وبداخل الصالون الملكي الخاص بجناح الوالى جلست نازلى هانم
حيث ابتدر الوالى الحديث قائلاً: خيرًا إن شاء الله يا عمّة باشا.

نازلى معترضة: أولاً أنا لا أحب هذا اللقب الذكورى.

وغلظت صوتها مقلدة صوته الخشن: العمّة باشا.

ثم استدركت: أشعر بأننى رجل من رجالات الدولة فلا تردده ثانية يا
ابن أخينا.

حاول عباس أن يتمالك نفسه إلا أن صوته خرج محتدًا: أولاً لست أنا
من أطلق عليك هذا اللقب .. فهذا القب خاص بجميع أفراد الأسرة
العلوية رجالًا ونساءً .. ثانيًا سأستمر أخاطبك به ما دمت تتعمدى
مخاطبتنا بلقب ابن أخيك هذا ناسية أو متناسية أنك تخاطبين والى
البلاد وليس ابن أخيك .. ثالثًا: من يسمعك تقولين ابن أخينا يحسبك أكبر
مبنى بعشرات السنوات فى حين أنك الأصغر منى بأكثر من عشرين عامًا.

انتظرت لحظة حتى تتمالك هدوءها ورسمت على وجهها ابتسامة
رقيقة وهى تقول: أصدقك القول فإننى أتعمد أن أخاطبك بهذا اللقب
حتى أذكرك دائمًا بما بيننا من أواصر القربى وصلة الرحم .

أشاح بيده قائلاً: ومن أنكرتلك القربى والرحم.

أجابته فى هدوء: أنت يا جناب الوالى.

التفت اليها محتدًا: أنا كيف هذا؟

أجابته بحدّةٍ مماثلة: نعم أنت أنكرت القربى وصلّة الأرحام بعدم توزيع إرث جدك وعمك إلى يومنا هذا على الرغم من أنه قد مر على وفاتهم شهور عدة.

انتفض عباس في غضب: أتهميني بالزور والبهتان بالاستيلاء على إرث الراحلين؟

ردت نازلى بحدّة: أنا لم أتهمك إلى الآن ولكنك أنت الذى قلت هذا وعلى كل حال أين إرثنا يا جناب الوالى؟

اعتدل في مقعده وهو يقول: عن أيّ إرثٍ تتحدثين؟ أنت لا تعلمى كيف ترك أبيك وخلفه إبراهيم البلاد إننا نعانى من أزمةٍ ماليةٍ طاحنة خلفتها سياساتهم الحمقاء والغير رشيدة في توسيع الإنفاق على الجيش والأسطول فأرهبوا الخزانة المصرية واستنزفوا البلاد والعباد من أجل مطامعهم التى لا تنتهى ولما تحقق لهم مرادهم في بناء الجيش المغوار والأسطول الجبار أشعلوا الأرض نارًا وألّبوا علينا العالم ولم يجنوا إلا الدمار والخراب ولم تجنى البلاد من كل ذلك إلا البؤس والشقاء.

نهضت نازلى وقد تطاير الشرر من عينيها: إن ما تتفوه به لهو بطل الحق ومضرب الأمثال في الجحود والنكران كيف تجرؤ على المساس من سمعة أبى محمد على باشا مؤسس الدولة العلوية وأخى القائد إبراهيم وتسخر من تاريخهما وتسفه سعيهما فلولاهما لما كان لك ذكر ولما دان لك مُلك.

وقف عباس بدوره منتفضًا في غضب وهو يقول: لا تتفوهى بما تندى عليه لاحقًا فالملك ملك الله يرفع أقوامًا ويخفض آخرين وليس لأحد فضل

على أحد فالفضل بيد الله وحده واسمعى كلامى وعيه جيداً وأبلغى من خلفك فلن أكرر ذلك الكلام ثانية .

وأشار بإصبعه منذراً وهو يقول: لن أكرر خطأ الراحلين من تبيذير وإسراف .. ليس لأحد إرثٌ في ممتلكات الدولة فميراث الراحلين ليس ملكاً لأحد يستأثر به ويحيا في رغدٍ من العيش بينما ترفل البلاد في مجاهل الفقر المدقع فلن أحرم البلاد من مواردها وسأستصدر فرماناً بأن من يحكم البلاد يكون القيم على إرث العائلة بصرف النظر عن الأسماء فمن ينول له حكم البلاد يستخدم تركة العائلة في مصلحة البلاد وهذا الأمر يطبق علىّ وعلى من يتولى من بعدى.

ثم أكمل بكل الحسم قائلاً: وهذا أمر منى الوالى عباس حلمى والى مصر والسودان .. تنتهت المقابلة.

وانصرف إلى حجرته تاركاً نازلى تقول بكل المقت والغضب: أنت الذى أشعلت نار الحرب يا عباس .. وستلتهمك أنت .

انفجر بركان من الغضب فى أروقة قصور العائلة العلوية بعدما ذاع خبر الجلسة الأخيرة بين الوالى و نازلى هانم وما أتبع ذلك بصدور فرمان الوالى الخاص بتركة محمد على ووقفها للوالى يستعملها فى تسيير أمور دولته ويستعين بمقدراتها فى تدعيم أواصر حكمه، فانطلقت على إثر ذلك احتجاجات شديدة اللهجة وأُسر فى أروقة القصور بخطط للتمرد والانقلاب على الحاكم وهاج القوم وماجوا فى بحر متلاطمٍ لُجِّي ما له من فرار، فلم يكن هناك صوت متزن بالحكمة إلا صوت يوسف بك كامل الذى كان يرى فى الحلول السلمية الدبلوماسية ما يكسر شوكة الوالى

ويهدم مخططه فعهده إلى العائلة أن يخاطب الباب العالي بإسطنبول
ويطلعه على مسلك الوالي المعوج فكتب رسالتين واحدة لصديقه الصدر
الأعظم مصطفى رشيد باشا يطلعه فيها على الموقف ويحثه على اتخاذ
اللازم من تدابير لحل الخلاف بمصر في صالح أبناء أسرة محمد على أما
الرسالة الثانية فللسلطان عبدالمجيد حملها له الصدر الأعظم بنفسه
وفض خاتمها وقرأ ما فيها للسلطان فكان فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

عزة الله جل في سماءه ومتوسلاً بسيد الأنبياء وآل بيته الأتقياء .. أكتب
إليكم سلطان السلاطين خاقان الأراضين ظل الله على الأرض ومنفذ كلمته
والقاضي بحكمه والأمرُ بمراده سلطان العرب والعجم مولانا
عبدالمجيد بن محمود .

أكتب إليكم بأحوال عبيدكم ببلاد مصر المحروسة حيث تلوح في
الأفق غيوم الصراع والشقاق والانفلات فمنذ أيام استصدر الوالي عباس
بن طوسون فرماناً بتقسيم تركة الراحل محمد بن على وتركته ولده
إبراهيم وخص بها نفسه معطلاً هدى حضرة الإله المذكورة في كتابه
الكريم والمنزل من فوق سبع سماوات فحرم الأبناء من ميراث أبيهم ومنع
الأقربون من حقوقهم وقد التجأ رعاياك المحكومين بقدرتك ببابك العالي
للزود عنهم ظامعين في عدلك وإنصافك آملين في حكمتك وسطوتك أن
تعيد الحق لأصحابه دمت مولانا دائماً ملاذ المظلوم وناصر المهزوم باباً
عاليًا لكل مرتجى وطالب، أما من ناحية عبيدكم الراجي عطفكم فما كتبت
هذا المكتوب إلا حرصاً مني على سلامة أحوال الدولة العثمانية وخشية
من أن ينفرط عقد النظام الذي قد فرضتموه بسطوتكم وحكمتكم في

بلاد النيل حيث تعلقو بين الفينة والفينة أصواتٌ غاضبة تطالب بنزع الحق عنوةً والانقلاب على الوالى وخلعه بالقوة وهذا - وهو لا يخفى على حكمتكم - يؤدى بالبلاد للفوضى وعدم النظام مما دعانى للالتجاء بأعتاب ببابكم العالى للزود عن مصالح بلادكم والفصل بين الخصوم داعيًا المولى الإله أن يديم عليكم ملككم ويزيدكم من فضله.

عبدكم يوسف بن كامل .

طوى رشيد باشا الرسالة ووقف منتظرًا رد السلطان الذى جلس على كرسى عرشه برهة من الوقت مفكرًا وهو يداعب أطراف لحيته ثم اعتدل قائلاً: لقد سمعنا منذ زمن عن يوسف كامل هذا فقد كان أحد رجال المقبور محمد على .. كان رئيس ديوانه أليس كذلك يا رشيد باشا.

أحنى رشيد قامته وهو يقول للسلطان: حاشا أن يغيب عن ذهن مولانا عبدٌ من رعاياه .. تمام مولانا السلطان ولكنى أعرف يوسف بك جيداً وأعلم مدى إخلاصه لمقامكم السلطانى، فقد مكث بإسطنبول فترة عاينًا فيها سيرته وإخلاصه فى عمله.

أرخى السلطان يده على عرشه وهو يقول: يبدو أنك معجب بهذا الرجل يا رشيد باشا.

تلثم الصدر الأعظم قليلاً ثم أحنى رأسه أكثر وهو يقول: عفواً مولاي إنما أردت أن أصدقكم القول فأخبركم بخبره وأحيط ..

قاطع الرجل حديثه إثر إشارةٍ من يد السلطان الذى تحدث بصوتٍ أمر: فلتذهب بنفسك إلى مصر ولتخمد نار الفتنة قبل تأججها يؤيدك

سلطاني وخاتمي ولتطلعنا على المستجد في الأمر ولا تصدر حكماً فمهم قبل مراجعتنا.

وكان هذا إيذاناً ببدء مرحلةٍ جديدةٍ من صراع العائلة في مصر.

انصرم شهرين على آخر لقاء بين مجموعة الأصدقاء انشغل خلالها كُلُّ بحياته الخاصة حتى تلقوا دعوة من الأمير محمد عبدالحليم لقضاء يوم العطلة في قصره الكبير بشبرا الذي يقطن فيه هو وأسرته .. وفي حديقة القصر الغناء جلس الأصدقاء حول مائدة مستديرة اصطفت عليها أصناف من الفاكهة الطازجة تم قطفها تَوّاً من حديقة القصر وعلى نفس المائدة إبريق من الفضة الخالصة يحوى شراب مرطب حلو المذاق وأكواب من الزجاج المزخرف.

وفي هذا الجو البديع والمفعم بالنشوة والجمال قال عبدالحليم صاحب الدعوة: مر وقت طويل منذ آخر لقاء جمعنا في حفل الاستقبال بالقلعة .. توالى فيه الخطوب والأحداث فكيف كان حالكم خلال تلك الفترة.

قال أحمد رفعت: نشكرك على تلك الدعوة الكريمة التي جمعت شمل الأخلاء بعد طول فراق ولكن ألم يكن بمستطاعك يا أمير أن تنتظر زيارة الصدر الأعظم ويتم البت في أمر توزيع تركتنا وميراثنا حتى نلتقى وقد صفيت نفوسنا بأخذ حقنا المسلوب.

أجابه عبدالحليم: لقد علمت بأن مقدم حضرته للمحروسة قد تحدد يوم غد حيث اتخذ جنابه طريق الشرق بغرض الاطمئنان على أوضاع

البلاد الشامية ضمن رحلته لبلادنا وقد حضر اليوم رسول من الموكب أكد ذلك.

ثم لوح بيده وهو يقول: وعلى كُلِّ يا أحمد إن مثل تلك القضايا تأخذ الكثير من المباحثات حتى يتم البيت فيها وقد اجتمعت العائلة من قبل لوضع خطط واضحة للتعامل مع الأزمة وقد فوضنا يوسف بك كامل كمتحدث عن عائلتنا فلا داعي للقلق ولنترك الأمور لما ستسفر عنه الأيام القادمة ولننعم بطيب الصحبة ونسترجع معاً ذكريات رحلتنا العلمية مع الخلان.

شبك أحمد رفعت أصابع يديه وهو يقول: والله يا إخواني لا أخفى عليكم سرّاً أنى في أمس الحاجة للبيت في أمر تلك التركة فكما تعلمون أنى قد أمضيت سنوات عمرى السابقة في الدراسة بالخارج ومن قبلها كان أبى وجدى رحمهما الله يدربانى ويستخدمانى في أمور الدولة والعمل السياسى وغيرها من الأمور التى كانت توكل لى.

ثم اعتراه بعض الارتباك وَعَدَّلَ من وضع طربوشه وهو يكمل: كل تلك الامور قد أخذت من عمرى دون أن أفكر في أمر الارتباط وكنت أترقب أمر الفصل في الميراث حتى يتثنى لى الزواج وتكوين أسرة ميسورة الحال.

صاح الجميع مهئين وقال إسماعيل معاتباً: كل هذا يشغل تفكيرك ولم تَبْجِ لى بعزمك إلا اليوم !

رد عليه أخوه قائلاً: وكيف أخبرك وأنا لا أجدك إلا لِمَا .. فمنذ وصولنا من فرنسا وأنت ملازمٌ لعننا سعيد باشا في الإسكندرية ولم أرك إلا أمس حيث جئت أنت وعمك لتكونا في استقبال الصدر الأعظم غداً.

إسماعيل: ماذا أفعل يا أخی .. فحالہ عمنا النفسیة تزداد سوءًا یومًا بعد یوم فهذا العباس لا یألُ جہدًا ولا یذروقتًا فی أن یقتطع من صلاحیاته ومہمش من دورہ.

ہنا تدخل شریف قائلًا: کیف هذا وسعید باشا ولی عهد الدولة؟

إسماعیل: نعم ولذلك فالوالی یمقتہ و یضیق علیہ .. فهو یعلم عشقہ للبحریة والأسطول ومع ذلك یتعمد أن یقیده ولا یعهد إلیہ بصلاحیاته الی کفلہا لہ منصبہ ضاربًا بالكفاءة والخبرة وحتی صلة القربی عرض الحائط.

تحدث أحمد رفعت معقبًا: حقًا هذا الرجل لم یرعی صلة رحمٍ أو قربی إلا وأساء إلیہا وکل العائلة تعاني من أفعاله السيئة معهم.

كان كلاً من شریف وعلی مبارک یلتزمان الصمت احترامًا لخصوصیة الحدیث إلا أن أحمد رفعت نظر إلی علی قائلًا: وأنت یا علی لقد سمعنا أنه استدعاك وقد أوكل إلیك بعض المهام.

قال علی مشيرًا بسبابته: إنه لم یستدعنی أنا فقط بل استدعی معی اثنان من زملائنا بالبعثة للإشراف علی اختبارات المهندسين كما كلفنا بعمل دراسة لشلال أسوان والقناطر الخیریة لمعرفه إمكانية الملاحه فیہما.

عبدالحمید: آیا كان العمل الذی استدعاك من أجله ألا تجد أن من المخزی لك أن تعمل مع مثل هذا الرجل.

علی: سبق أن أوضحت لكم طبیعة تفكیری فلیس لی أى علاقة بشخصه أكان من المحسنین أم من المسینین .. المهم عندی هو طبیعة عملی ومدى أدائی لہ بإخلاصٍ وإتقان.

أحمد رفعت في حدة: لكن هذه خيانة لنا فأنت تعلم مدى خلافنا مع هذا الرجل ثم تذهب أنت وتعمل لديه بإخلاصٍ وإتقان فلتراخِ سنوات العشرة ببلاد الغربية وحق الزمالة والصدّاقة.

عند هذا الحد وقف على وهو يمسك بطربوشه وبهم بارتدائه وهو يقول: بما أن الحديث قد وصل لحد اتهامى بالخيانة فأنا مضطر للانسحاب من مجلسكم .. أشكركم على حسن الضيافة.

أمسك عبدالجليم بذراعه وهو يقول ناظرًا إلى أحمد رفعت بعتاب: يا على لا تكن سريع الانفعال إن أحمد لم يقصد أبدًا اللفظ بمعناه الظاهري ولكنه أراد أن يثنيك عن العمل مع الوالى.

أسرع أحمد رفعت بالوقوف هو الآخر قائلاً: أنا لم أقصد الإساءة لك يا على وأنت تعلم مدى تقديري واعتزازى بصدّاقتك .. وأنا أعلم مدى نبوغك ونباهتك وحقيقة الأمر أنى أضن بمثلك عليه كما أعلم بأنه سيكون لك شأن كبير في المستقبل وأخشى عليك خشية الصديق المخلص من أن يقترن اسمك بأسم هذا الرجل فينتقص هذا من قدرك عند حكم التاريخ عليك في المستقبل.

كانت لكلمات أحمد رفعت أشد الأثر في تهدئة الجو العام للقاء بعدما توترت الجلسة كلها، فترك على الطربوش الذى فى يده على المائدة وجلس وساد الصمت برهة من الوقت قطعها على قائلاً: طالما أنه حديث الأصدقاء والخلان فاسمحوا لى أيها السادة أن أقول لكم إنكم لم تتعلموا أهم الأشياء من بعثتكم بالخارج وهى عدم الخلط بين مشاعركم والإتقان فى العمل فإن أهم ما يميز الإفرنج عنا أنهم يعطوا للعمل حقه من جهد

وعرق مع تنحية أى عواطف قد تعتمل داخل النفوس وقد توثر في كفاءة العمل.

ابتسم إسماعيل قائلاً: أليس من العجيب أنك المصرى الصميم الأصل تقول هذا ونحن المنتمين لأصول غير عربية نقول عكسك .

ابتسم على بدوره قائلاً: أعتقد أنكم بقولك هذا أصبحتم مصريين أكثر من المصريين أنفسهم أو أننا المصريون أخذنا نهل من ثقافات العالم المختلفة حتى تطور فكرنا وتقدمنا.

ضحك شريف قائلاً ليغير دفة الحوار: دعكم من هذا الأمر ودعوني أحدثكم عن الجيش المصرى فأنتم تعلمون أنهم استدعوا كل الضباط الذين كانوا بالبعثة لينتظموا ضمن قوات الجيش.

التقط عبدالحليم طرف الخيط ليقول: نعم حدثنا يا شريف عن تجربتك وما حدث لك في صفوف الجيش المصرى.

قال شريف وهو يداعب أطراف شاربه في افتخارٍ طفولى: كانت البداية عندما استلمت التكليف الخاص بمثولى صباحًا في مركز قيادة الجيش بالخانكة .. وعلى إثر ذلك تجدوننى من باكراً وأنا بكامل الزى العسكرى واقفًا وسط مجموعة من الضباط الجدد، وقابلنا قائد كبير برتبة أميرلاى ورحب بنا في ودٍ شديد وأخبرنا أنه لن يتم توزيعنا على اللواءات حتى نقابل سرعسكر الجيش المصرى .. ثم أخذنا إلى مبنى مجاور تزينه لافتة كتب عليها قيادة الجيش جلسنا فيه بضع دقائق حتى جاء إلينا القائد الأعلى للجيش المصرى ودعونى هنا أصف لكم هذا البطل .

أخذ شريف نفسًا عميقًا ثم استرسل في كلامه: هو السير عسكر سليمان باشا الفرنساوى القائد الأعلى للجيش المصرى .. رجل مهيب قوى البنية ترى بروز عضلاته من تحت ملابسه ممشوق القوام بشكل لا يدل أبدًا على أن صاحبه قد تجاوز السبعون عامًا .. ذو شارب كبير يغطى أغلب وجنتية المكتزتين .. أحمر الوجه أزرق العينين ثاقب النظرات .. تكسو وجهه الصرامة والشدة .. يغطى رأسه بطربوش أحمر قصير، وقف سليمان باشا مليًا متفحصًا وجوه الحاضرين بالقاعة، ثم تكلم بعربية فصحى سليمة فحيانا بتحية الإسلام ورحب بنا فى بداية الأمر وتكلم فى بعض الأمور العسكرية عن قوام وتركيب الجيش وفرقه ولوائه لكن أفضل ما قاله حديثه عن الجندى المصرى حيث قال: إن المصريين هم خير من رأيهم من الجنود، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطيئها على احتمال صنوف الحرمان، وهم بقليل من الخبز يسيرون طوال النهار يحدهم الشدو والغناء ثم تطلع إلى الأفق كأنه يتذكر أيامًا مجيدةً وهو يقول ولقد رأيهم فى معركة قونية- فى ديسمبر 1832 والتي استمرت لسبع ساعات وانتهت بهزيمة ساحقة للقوات العثمانية - يبقون ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعةٍ ورباطة جأشٍ تدعوان للإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية فعليكم باحترام الجندى المصرى وعدم التعالى عليه فهو شديد الاعتداد بنفسه كما أنهم عدتكم وقت الخطوب.

صمت شريف مبهور الأنفاس فقال عبدالحليم: أعرف هذا الرجل لقد رأيته عندما كنت صغيرًا يأتى إلى والدى والذى كنت أستمع إليه يقول إننى مدين بجيشى لسليمان باشا.

عقب أحمد رفعت قائلاً: لقد شاهدته كثيراً في قصرنا فقد كان صديقاً شخصياً لوالدى رحمه الله وخاضاً معاً كثير من المعارك الضارية ضد جيوش العثمانيين وأوروبا فرفعوا راية الوطن عالية خفاقة وأثبتنا للعالم أن المصريين إذا ما توافرت لهم الحياة الكريمة والإمكانات المتطورة الحديثة سادوا الأرض ولم يجارهم شعب من الشعوب في البذل والعطاء والجهد.

وافق على مبارك على كلامه قائلاً: نعم لا يوجد شخص في بر مصر لا يعرف سليمان باشا الفرنساوى ولكن المعرفة عن قرب تجلى معالم الأمور أكثر.

استكمل شريف كلامه: كان هذا اللقاء هو الحدث الأهم والذي كان إيذاناً بانخراطنا داخل صفوف الجيش حيث ترتب عليها فترة من الإعداد والتدريب تتيح لنا التأقلم مع النظام الداخلى بالجيش والتعرف على وحداته وتشكيلاته عن قرب أكثر قبل توزيعنا على اللواءات ولله الحمد حاولت أن أبذل قصارى جهدى ولم أكن أعلم أن فى تلك الأثناء من يراقبنى ويتابعنى وجاءت لحظة التوزيع وعلمت المكان الذى تم اختيارى له وكان مفاجأة.

صمت شريف برهة ليزدرد لعابه فى حين تعلقت أبصار رفقائه به فى شغف فأكمل: لقد تم اختيارى للخدمة ضمن يوران سليمان باشا الخاص .. وعندما أبديت دهشتى أبلغت أن سليمان باشا بنفسه هو من اختارنى لهذا العمل.

صاح أصدقائه مهنيين ومباركين له على هذه الوظيفة الرفيعة التي تم اختياره لها واستمر بهم المجلس في بهجة حتى آخر اللقاء .

جلس شريف داخل العربة التي استأجرها ليعود بها إلى داره وأخذ يتذكر لقاؤه مع أقرانه في ذلك اليوم، إنه لم يقابلهم منذ شهرين مضوا خاضها في تدريبات مضية حتى لفت انتباه قاداته وعلى رأسهم السير عسكر سليمان باشا الذي اختاره ضمن يورانه الخاص .. وكان هذا في حد ذاته نصراً مبيئاً يدعو النفس للسعادة والحبور إلا أنه وفي قرارة نفسه لم تكن سعادته مكتملة كان يشعر أن هناك ما يهيمه ويطلق مضجعه كان يرى أقرانه يسعدون بالإجازات ويقبلون عليها في سعادة غامرة حيث يلتقون فيها بالأهل والأحبة بينما هو كلما دُعِيَ إلى نزول إجازة يعتربه الارتباك والاضطراب فمع من يمضى عطلته وفي أى أمر خارج عمله يقضى وقته لذا كان يرفض أى إجازة تُعرضُ عليه وعزا من حوله ذلك لحبه لعمله وتفانيه فيه وهم عن حقيقة الأمر غير عالمون .. وبينما هو يسبح في سيل خواطره إذ لمح بطرف عينيه عربة مسرعة تمر بجوار عربته إلا أن ما استوقفه هو تلك الفتاة التي تركب داخل العربة إنه لم ينس قط خلال الفترة السابقة تلك العينين الزرقاوين لقد كانت هي تلك الفتاة التي رآها في القلعة وكانت ستصدمه عربتها، نعم كانت الفتاة تجلس هانئة وبجوارها فتاة أخرى تتحدثان معاً وتضحكان في مرح، أحس بقلبه ينتفض داخل صدره من فرط السعادة. فقفز من الشباك يصيح على حوزى عربته: اتبع تلك العربة ولا تجعلها تغيب عنك وسأمنحك أجرتك كاملة وفوقها الحلوان ولكن حذار أن تدعهم يشعروا بأنك تتبعهم.

رد عليه الحوزى بالإيجاب وأخذ يتبع عربة الفتاة من بعيد كان شريف يشعر في ذلك الوقت بأن حياته تتوقف على اتباع تلك العربة وقد اعترته حالة من المصارحة مع النفس فاعترف لنفسه بالعشق والهيام وأن ارتباطه بتلك الفتاة هو ما سيكمل سعادته الناقصة ويملاً فراغ حياته .. ومن شارع إلى آخر حتى توقفت العربة أمام قصرٍ عظيم البنيان فُتحت أبوابه فور وصولها إليه فدلقت داخله وغابت عن الأبصار في حين أكملت عربة شريف طريقها إلى منزله .. وتصارعت الأفكار داخل عقل شريف وأحس بالاكْتئاب يعلو روحه والكدر يغلف شغاف قلبه فقد كان منظر القصر المهيب الذى دلفت إليه عربة الفتاة دالاً على الحياة والمكانة التى تشغلها أسرة تلك الفتاة مما يوحد أمام أحلامه وأمنيته ألف بابٍ وباب، فهو من أسرة مرموقةٍ ووالده ترك له من السيرة والسمعة الحسنة ما يجعله يفتخر بانتسابه إليه إلى آخر العمر إلا أن مشكلة المال تقف حائلاً بينه وبين تحقيق مراده فهو يعيش في منزل صغير من طابقين لا يرقى بأى حالٍ من الأحوال إلى ذلك القصر المهيب، لقد صرف جميع العاملين بالبيت أثناء إقامته في فرنسا لعدم مقدرته على سداد أجورهم إلا عم إدريس الذى تطوع بالقيام بدور الطباخ والخادم وحتى الحديقة هو الذى يرمى أزهارها ويعتنى بزهورها كذلك أصيل وأصيلة الجوادين الخاصين بجر العربة قرر أن يدعهم في الإسْطبل الخاص بهما كي يوفر أجر الحوزى واكتفى بالتريض بهما من أنٍ لأخر كلما سنحت ظروفه، خلاصة القول أنه لا يملك في هذه الحياة إلا راتبه وذلك المنزل الصغير فأنى له إتمام مراده وتحقيق غايته التى امتلكت عليه كل جوارحه .. فمنذ شاهدها أول مرةٍ وصورتها لا تفارق مخيلته في نومه أو صحوه ولا يحجب عنه وجهها المليح إلا تدريباته العسكرية التى يعشقها هى الأخرى ويتفانى في أدائها، كان يعلم منذ رآها أنها من اختارها لُبُّهُ وارتضاها فؤاده لتكمل معه باقى حياته وتؤنس وحدته .. كان تفكير اليائس هو ما يسيطر عليه ويجثم على روحه

إلا أنه ترك أمر الأيام المقبلة إلى الله عزوجل عسى أن يجعل له من بعد ضيقٍ فرجًا ومن بعد عسرٍ يسرًا.

انبلج صباح اليوم التالي على المحروسة والعمل بها على قدمٍ وساق تحسبًا لزيارة الصدر الأعظم للبلاد حيث زينت واجهات القصور بالأعلام و الرايات وشُحنت المدافع بالبارود اللازم للاحتفال واتخذت الخيالة مواقعهم أمام أبواب القلعة على جياذٍ مطهمةٍ بالمعادن البراقة وتأهب الأعداء والعاملين بالقصور للعمل الشاق .. وما أن جاءت البشائر بقرب وصول الزائر حتى هَبَّ الوالى وولده وحاشيته لاستقباله على أبواب المحروسة .. ووصل مبعوث السلطان عند الظهرية وصحبه الوالى إلى القلعة حيث سرائ التشريفات وما أن دنوا من أبوابها حتى انطلقت المدافع تدوى احتفالاً ثم دلف الحضور إلى سرائ التشريفات حيث احتفى الوالى برشيد باشا أيمًا احتفاءً وأجلسه على كرسيه الخاص وأمر بإحضار المشروبات المرطبة والفاكهة الطازجة إلا أن رشيد باشا تعلق بالإرهاق من طول السفر وأراد ان يختلى بنفسه للراحة فأمر عباس باشا ولده باصطحاب الضيف للمكان المجهز له وألحق به حاشيته فى أماكنهم التى سيمكثوا بها داخل القصر.

وفى المساء كان اللقاء على مائدة العشاء حيث وضعت الأصناف من كل ما لُدَّ وطاب وبعد انتهاء العشاء انفرد رشيد باشا بالوالى عباس حيث ابتدره قائلاً: لقد علمت يا عباس باشا سبب زيارتى وما أوكل لى من مولانا السلطان المعظم من مهمة فض النزاع وإزالة أسباب الشقاق بين أفراد أسرتمك الحاكمة للأراضى المصرية.

أجابه عباس وهو يبدي كثيرًا من الأسى: نعم يا جناب الصدر الأعظم أعلم أسباب زيارتكم الميمونة وكلى أسى أن تكون أول زيارتكم للبلاد وأنا مُتَوَلِّ لأموورها تكون لحل منازعة وإنهاء خصومة .. وكنت أود إرجاء الأمر لنقدم كامل الترحاب وعمل الإستقبالات اللازمة لجنابكم.

كان الوالى يريد أن يسترسل فى كلامه إلا أن رشيد باشا استوقفه بإشارة من يده وهو يقول: أعلم يا عباس باشا أننا قد جئناكم على عجلة من أمرنا فأنت تعلم ما ينقل كاهلنا من أعباء الدولة المتاخمة الأطراف ولا نريد إهدار مزيدٍ من الوقت فكفى ما أُهدر فى طريق السفر الطويل.

وأشار بيده قائلاً: فلندخل فى لبِّ وجوهِ الأُزمة مباشرة.

كان عباس يريد أن يفرط فى مرء الصدر الأعظم حتى يستميله لجانبه إلا أن الرجل كان حاسماً مما جعل عباس يحدثه قائلاً: أعلم يا باشا أنى ما أردت حرمان الأبناء من إرث آبائهم .. وتعطيل شرع الله الذى أقره لهم من فوق سبع سماوات .. ولكنى نظرت لإرث جدى وعمى جزاهم الله بما يستحقوا فوجدتهم قد تركوا ثروةً عظيمة قد جُمِعت من خير هذا البلد الفقير .. فلقد جئنا يا سيدى لهذا البلد ولم يكن فردًا من أبناء الأسرة يحوز معشار ما يمتلكه اليوم .. فكان مرادى أن تستخدم تلك الثروات وهذا الكتز فى نهضة هذا البلد و الإنفاق على أبنائه .. فهم رعايا الدولة العثمانية السامية وأحق بما اقتطع منهم بدلاً من أن يستأثر به حفنة تعيش فى رغدٍ من العيش ولن تزيدهم تلك الأموال إلا غنى على غنى .. وكان نهجى فى ذلك أن يكون المتحكم فى تلك الأموال هو والى البلاد ولم أختص به نفسى فمن يجلسه مولانا السلطان يكن وصياً على الأموال وإن الموت والحياة بيد الله فأنا اليوم الوالى وغدًا غيرى يولى ولكن أموال البلاد تنفق فى شؤون البلاد.

ثم نهض واقفاً وأحضر ورقة من على المنضدة المجاورة سلمها إلى رشيد باشا وهو يقول: وهذا فرمان الصادر منا بهذا الخصوص .

فض رشيد باشا الخطاب وقرأ ما به في اهتمام ثم نهض قائماً وهو يقول: لقد استبان لنا مسعاك ومرادك يا باشا .. ولكن كما تعلمنا من الخاقان الأعظم السلطان عبدالمجيد أن من العدل أن نستمع لوجهة النظر الأخرى قبل البت في الأمر حتى نستوفي أركان المسألة .. ويفعل الله ما فيه الخير والرشاد.

بعد ذلك بيومين التقى الصدر الأعظم بيوسف بك كامل كمتحدث رسمى عن أبناء الأسرة العلوية وكان ذلك اللقاء في سراى يوسف بك بالأزبكية حيث عرض على المبعوث السلطاني وجهة نظر الأسرة وحقها الشرعى في التركة ثم مدت ولانم الطعام احتفاءً بالضيف السلطاني حيث جلس جميع أبناء الأسرة العلوية على جانبي المائدة وجلس على رأسها رشيد باشا وعلى الجانب الآخر يوسف بك صاحب الدعوة وبعد انتهاء اليوم عاد رشيد باشا إلى مكان إقامته بالقلعة وأعلن للجميع أنه يحتاج لمزيد من الوقت لبحث الأمر قبل أن يقطع برأيه في المسألة إلا أن حقيقة الأمر أنه كان ينتظر مكتوباً من السلطان بالبت في المسألة بعدما شرح له كل جوانبها وتفصيلها في رسالة سابقة وما هي إلا بضعة أيام حتى خرج عليهم بخطاب السلطان فجمعت العائلة وتلى عليهم خطاب خليفة الأمة الإسلامية وكان بيانه هو:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

حضرة عزة الله جلّت قدرته وعلت عظمته وأصلى وأسلم على سيد الأنبياء وقدوة الأصفياء محمد المصطفى محمود الذكر المؤيد بالمعجزات وبمؤازرة قدس أرواح الأربعة الفضلاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وعن أوليائه الصالحين.

قد بلغ علمنا الشريف على وجهه التفصيل ما وقع بين عاملنا بمصر وبين ذوى قربته من خلاف وأحطنا بكل جوانبه واستبيننا أسباب نشوبه وقد التجأت ببابنا العالى وطلبتكم حكماً العادل فهناك حكمتنا وقضائنا .
توزع التركة على الورثة بمقتضى كتاب الله وشريعته الإسلامية الغراء لا نحيد عنها ولا نقيل .

ونقول لعاملنا المحترم عباس حلمى باشا أننا قد تفهمنا مرادكم الحميد وسعيكم المشكور بخصوص استخدام الأموال للمنفعة العامة إلا أننا لو وافقناكم على مرادكم لكان هذا مناهجاً يتبع فى سائر الأمصار وقد يستأثر به بعض عمالنا لمنفعته الخاصة مانعاً منه المستحقين فنكون بذلك قد أغضبنا حضرة المولى فى علاه بتعطيل شريعته وهو ما لا يحق لمعبوده عبدالمجيد .

وأمر من كان حكماً لصالحهم أن يتقوا الله ويستعملوا حقهم فيما يرضيه ولا ينسوا أنهم لمسؤولون وعن أعيننا غير غائبون وغداً يوم القيامة لموقوفون .

هذا حكمى يقضى بينكم أنا سلطان السلاطين و خاقان الأرضين ظل
الله على الأرض و منفذ كلمته والقاضى بحكمه والأمر بمراده سلطان
العرب والعجم.

عبد المجيد بن محمود الثانى .

وما أن طوى رشيد باشا الرسالة حتى صاح عباس قائلاً: لله در
سلطاننا .. حكم فعدل وفصل فقضى بين الخصوم.

رشيد: بارك الله فيك يا عباس باشا .. أرى صدرك منشرح بالحكم
السلطانى على الرغم من أنه لم يوافق مرادك.

عباس: عفا الله عنك يا باشا إن مرادى هو مراد مولانا فجميعنا له
عبيدٌ مخلصون نعمل لرفع لوائه عالياً خفاً فوق الهامات.

ردد رشيد: عفارم عباس باشا عفارم.

ثم التفت إلى يوسف كامل الذى قال: سيدى جناب الصدر الأعظم لا
يسعى ولا يسع أياً من أبناء الأسرة العلوية تقديم الشكر الواجب فى
حكم لحل هذا الخلاف .. دتمم فوق رؤوسنا ممثلين للحضرة السلطانية
والدولة العثمانية.

رشيد: نحمد الله على توفيقه .. كما أشكر لك يا يوسف بك حسن
استقبالك وترحيبك.

ثم التفت إلى عباس قائلاً: لقد حللنا الكثير من الخلافات المشابهة
ولكن أصدقكم القول فإنها السابقة الأولى التى أجد فيها المضار من

الحكم بمثل تلك السماح والرضا مما يشجعني على أن أطلب منكم عقد صلح بين أطراف النزاع ينهى الخلاف من جذوره.

أراد إلهامي أن يتدخل بالحوار إلا أن نظرةً محذرةً من عيني والده قد استوقفته فأثر الصمت وترك والده يقول: لا يوجد لدى ما يمنع يا باشا فمن أمامك هم آل بيتي وذوي رحمي فكيف أقطعهم وقد وصانا الله ورسوله بحسن وصلهم وأنا أقتضى بمولانا السلطان المبجل لا أعطل أمرًا تحض عليه الشريعة.

فالتفت رشيد باشا إلى يوسف بك قائلاً: وأنتم يا يوسف بك ما ردكم على عقد الصلح.

كاد يوسف أن يتكلم لولا أن تدخل سعيد باشا قائلاً: جناب الصدر الأعظم لقد علمتم بأنني ما جئت من الإسكندرية إلا للترحيب بشخصكم وتقديم أصول التحية والتقدير كولي عهد البلاد ولم أتدخل في تفاصيل هذا النزاع وذلك لمكانتي بين المتخاصمين .. فمن جهة أنا ولي عهد عباس باشا ومن جهةٍ أخرى أنا أحد أفراد العائلة المضارة .. وقد فوض أبناء العائلة يوسف بك ليمثلهم أمام شخصكم الكريم وقد كان كما عهدناه مثلاً للوفاء ورجاحة العقل فله مني كل الشكر .. أما وقد تفضلتم بمساعكم الكريم بالصلح بين المتخاصمين فأنا أبارك مسعاكم وأمثل عائلتي أمام حضرة عباس باشا مُلزمًا جميع أفراد العائلة بهذا الصلح.

ابتسم رشيد قائلاً: نعم ولي العهد أنت يا سعيد باشا.

ثم أكمل وهو يخرج الخاتم السلطاني من جيبه: أما وقد اتفقنا على الصلح فلنكتب بنود المصالحة ولنختتم عليها بختم السلطان المعظم عبد المجيد بن محمود ولنطوى هذا النزاع إلى الأبد.

انتفض إلهامى غضبًا وهو يحدث والده قائلاً: كيف يا والدى ترضى بتلك الدنية في ملكك ولشخصك بعد ما كدت لأعدائك ومنعتهم الأموال التي تعلم أنهم فور حصولهم عليها سينازعوك ملكك وما كان يكفي هذا حتى انطلقت تمتدح الحكم اللعين و تعقد معهم الصلح وتباركه كيف يا والدى بالله عليك كيف؟

كان الوالى يجلس على كرسيه وهو متكئ على مسنده بمرفقه ساندًا رأسه على كفّ يده تبدو عليه أمارات الهم والحزن وخرج صوته معبرًا ذلك وهو يقول: أهذا ما تعلمته من حياة البادية في أرض الحجاز؟ ألم تتعلم حياة القحط الصبر على البلاء ومكاره الخطوب؟ ألم تتعلم بعد متى تبتسم في وجه عدوك حتى إذا ما اطمئن لك واستكانت نفسه وفرح بنصره المزعوم أخذته من حيث لا يحتسب فتستأصل شأفته وتجز رأسه بيديك.

ثم اعتدل في جلسته وهو يقول: ألم تر أنى قد قلبت الهزيمة اليوم لنصيرٍ فقد كسبت لصفى الصدر الأعظم ومن ورائه السلطان .

إلهامى: على اعتبار أن رشيد باشا سيخبر السلطان بمثولك لحكمه وطاعتك لإرادته.

عباس: لن أنتظر كي يخبره بل سأذهب إليه مع بداية العام القادم فأخبره بنفسى وأقدم له أسمى آيات الخضوع والعرفان؟

إلهامى وقد بهت من الخبر: تذهب بنفسك للسلطان؟

أجابه عباس: نعم .

إلهامى: وما العائد من سعيك الدؤوب لاسترضاء السلطان وهو لم يساندنا في قضيتنا؟

عباس: تعلمت من شيخي عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أن أستفيد جيدًا من دروس التاريخ وعبره فجدك محمد على وولده إبراهيم بنوا جيشًا جريًا وقوةً ضاربةً سيتحاكى بها اللاحقون لسنواتٍ طُول إلا أن الخطأ الذى وقعاً فيه هو أنه خرج من عبائة الدولة العثمانية وعصى السلطان بل وحاربه وكاد ينهى على دولته المتهاككة الضعيفة.

إلهامى: كيف تصف فعل جدنا بالخطأ وهو قد حقق مراده فهزم السلطان في عقر داره وكاد يقضى على سلطانه.

قال عباس وهو يبسط راحتيه موضحًا: هناك ميزان يسمى ميزان القوى يحكم الدول الكبرى حقيقة الأمر أن جدى كان يعلم هذا الأمر جيدًا .. ويحرص على عدم الإخلال به قدر استطاعته .. فكان يناوش الدولة العثمانية بين الفينة والأخرى حتى يعلمها بمدى قدرته وقوة شوكته .. لكن ولده إبراهيم كان مقاتلاً فداً إلا أنه فى حقيقة الأمر كان غشومًا جهولًا بالسياسة وتقلباتها فتخيل أن القوه تحكم كل شىء وكان ينظر أسفل قدميه فيرى خصمه مخزولًا مدحورًا لا يستطيع أن ينتصر عليه فغرتة قوته متناسيًا من هم وراء خصمه من الدول الأوروبية والتي ترى فى الدولة العثمانية خصم ضعيف مأمون الجانب وليس من مصلحتها أن تهض

على أنقاضها دولة شابة فتية ترث الدولة الضعيفة فتقلب موازين القوى العالمية.

ثم ابتسم ساخرًا في مرارة حقيقية: حتى فرنسا التي ساهمت في بناء جيشنا وأسطوله قد اتحدت مع إنجلترا وروسيا في موقعة نافارين ودمر الأسطول المصرى وما سبق الموقعة من خيانةٍ عظمى حيث انسحب الضباط الفرنسيون من مواقعهم وتخلوا عن مناصبهم في أحلك الأوقات وأشدّها احتياجًا.

ثم نهض من مقعده وأمسك بعضده ولده وقد اجتاحت موجة من الغضب والحقد البالغين وهو يقول: اسمع يا إلهامى اليوم هو آخر أيام الخضوع وما بعده لنا .. أعدك أننا سندحر من يقف في طريقنا ولن نُخدَل بعد اليوم .. ومن ليس معنا فهو ضدنا .. هذا هو شعار المرحلة المقبلة .. من ليس معنا فهو ضدنا.

إلهامى متسائلًا: ولكن يا أبى إن أعدائنا أقرب إلينا من حبل الوريد وبعد الحكم الأخير سيستقوون بما صار لهم من أموال .. فكيف نكيد لهم؟

ابتسم عباس وهو يلكز ولده بكتفة قائلاً: هذا ما كنت أحدثك به منذ قليل ليس كل حكم اليوم شر قط هناك بصيصٌ من الخير ولكن للمستبصرين اليوم تجلى لنا أعدائنا فعلمنا من معنا ومن ضدنا .. وكل نفس بما اكتسبت رهينة وسيأتى يوم حسابهم وعلى يدك فستنفذ ما أمركَ به وأنا في سفرى عند السلطان.

إلهامى: وما الفائدة من سفرك للسلطان يا والدى؟

لكزه عباس في كتفة ثانية وهو يقول: هذه هي المفاجأة الكبرى التي
أدخرها لهم عند عودتي من عند السلطان.

وصمت قليلاً ثم قال بصوتٍ مُلئٍ بالنشوة والأمل:

- سأغير نظام الحكم في مصر المحروسة.

وبهت إلهامى من المفاجأة.

سافر عباس باشا إلى الأستانة وترك على سدة الحكم في البلاد ولى
عهده سعيد باشا الذى كان يقضى نهار يومه في قلعة الجبل .. حيث
ديوان الحكم ويقضى ليله في قصر النيل حيث أخته نازلى هانم والتي ترك
لديها زوجته وولده الصغير الأمير محمد .. وفي ذات ليلة بقلعة الجبل بعد
انتهاء يوم من العمل الحافل وذهاب كل إلى مخدعه .. ووسط سكون
الليل خرج الأمير إلهامى ممتطياً صهوة جواده مستتراً بظلام الليل هابطاً
من قلعة الجبل إلى خارج أسوار القاهرة .. حيث دنا من هضبة الأهرامات
الثلاثة وسلك درباً على يمين الهرم الأكبر ولم يلبث أن دنا منه فارس
مسرّبلاً بالسواد ممتطياً صهوة جواده الأسود لا يكاد يستبين الناظر
ملامحه في ظلام الليل الهميم .. وما أن اقترب الفارس من الأمير حتى كشف
عن وجهه اللثام وهو يقول بصوته الخشن النبرات: السلام على حضرة
الأمير ابن الباشا الوالى.

أجابه إلهامى: وعليك السلام طاهر بك زعيم الأرنؤود.

طاهر: هل حانت لحظة التحرك وفق الخطة التي أعدها مولانا الوالى
قبيل سفره للأستانة؟

إلهامى: نعم والتنفيذ غداً مساء .. مع الالتزام بتعليمات الباشا بخصوص عدم إراقة الدماء .. فكل ما أمر به أن نُرهب أعدائنا ونقذف في قلوبهم الرعب حتى نقض مضجعهم فيرتدوا عن سبيل الغي الذى يسلكوه.

وكرر فى صرامةٍ أكثر: دون إراقة دماء يا طاهر بك.

طاهر: مفهوم يا سمو الأمير تعليمات أفندينا أوامر .. ولكن هناك هدف إضافي نريد إتمامه ضمن أهداف الخطة الموضوعية.

إلهامى فى توتر: أى هدف ترمى إليه يا طاهر بك .. ولمَ إذن لم تخطر به أفندينا قبل ذهابه إلى الخارج؟

طاهر: إن هدفنا لا يعطل ولا يعرقل خطة حضرة الوالى .. ولكنه سيخدم أهداف جماعتى وسيزيح من أمام طريقنا حجر عثرة يقف حائلاً دون تحقيق مصالح طائفتى.

إلهامى: أى هدف هذا يا طاهر بك؟

دنا طاهر بك أكثر من الأمير وأخبره عن اسم الهدف المنشود وكانت مفاجأة فالاسم المراد كان من الأهمية بمكان وكان مجرد المساس بشخصه يدفع الأحداث إلى الاشتعال بالمحروسة.

على ضفاف البسفور حيث يقبع قصر طوب كابى الذى ترجع تسميته لبنائه من الطوب البنى فى عهد السلطان محمد الفاتح وظل مقراً لحكم الدولة العثمانية لعمودٍ طويلة .. وفى قاعة الاستقبالات وعلى الأريكة

السلطانية جلس السلطان عبدالمجيد يزین رأسه تاج السلطنة الذى تتوسط مقدمته جوهرةً براقَةً بديعةً الشكل .. ووقف عباس باشا مطأطئاً رأسه تسبقه صناديق الهدايا من مختلف الأنواع والأشكال .. وما لبث الوالى أن رفع رأسه إثر إشارة من السلطان فتقدم منه وقبل يده فربت السلطان على كتفه وابتسم له فهض الوالى وتراجع حتى وقف بجانب رشيد باشا الوزير الأول على مسافةٍ من الأريكة السلطانية فابتدره السلطان قائلاً: بوركت يا عباس باشا .. لقد بلغتنا أنبائكم فى مصر وما فعلتموه عندما بلغكم حكمنا .. فسررنا كثيراً أمثالكم له وحسن استقبالكم لمبعوثنا حضرة رشيد باشا.

عباس: وهل يجرؤ على مخالفة حكم أمير المؤمنين ظل الله على الأرض إلا آثم أو جاحد.

نظر له السلطان برهة ثم قال: يبدو أنك تختلف عن جدك وعمك كثيراً يا عباس باشا.

عباس: أرجو أن يكون اختلافي وفق مراد مولانا السلطان.

السلطان مداعباً شعيرات لحيته: إن الأخبار التى تصل إلى أعتاب بابنا العالى ترفع من قدركم لدينا يا عباس باشا.

ثم صمت برهة شرد خلالها ذهنه لحظات وعاد يقول: وكذلك كان جدكم الراحل فى بادئ عهده مع المرحوم بإذن الله والدنا السلطان محمود الثانى.

عباس وقد اعتراه الارتباك: رحل من رحل وبقيت الخلافة العثمانية أطل الله أمدّها فى ظل حكمكم الراشد يا مولاي.

ثم أكمل وقد تما لك نفسه قائلاً: ولعل أن يكون من ضمن ما وصل عظمتكم من أخبار أنى لم أكن ضمن الحظوة المرضى عنها ممن سبقونى على ولاية مصر .. بل كنت على كثير من الخلاف معهم حتى أُلجئتُ للرحيل إلى بلاد الحجاز .. وما عدت إلا لما جئنى خبر وفاة إبراهيم باشا وقد أصبحت الأحق بولاية مصر على حسب عهدكم وفرمانكم الذى تشرف بتوقيعكم بجعل ولاية مصر لأكبر أبناء محمد على سنًا.

السلطان بحدّة: ما رغبتنا يومًا فى منح هذا العطاء إلا من أجل حقن دماء المسلمين والذى ما سالت إلا لمطامع ونزوات عامل من عمالنا أغراه هواه ومن ارتمى فى أحضانهم من الفرنسيس الكفار يشق عصا الطاعة و الخروج على خليفة المسلمين وإمامهم.

ثم أكمل قائلاً فى زوايه: ويال لعبة الأقدار الساخرة فمن أغروه بالأمس وبنوا له جيشه وأسسوا له دولته هم الذين تكالبوا على كسر شوكته لمّا استشعروا أن مطامعه التى لا يحدها حد قد تتعارض مع مصالح دولهم .. فكانوا أرعى منه لمصلحة بلادهم وأمن منه لدينهم وعهودهم.

وتهد فى مرارة قائلاً: ولو أنه قد استخدم عدته وعمارته فى الزود عن بلاد المسلمين ونصرة دين الله القويم لما دخلنا فى حروبٍ طاحنةٍ خسر فيها المسلمون جيشًا حديثًا وشبابًا فتياً راح ضحية الطمع والخيانة.

ثم تابع بسخريةٍ مريرة: وتجلت قدرة الجبار فى نزع ملك العاصى وحط قدره وذهابه لولده فى حياته وأمام ناظره فكان انتقام ملك الملوك على كل غافلٍ يعيين على دينه ويشئت جماعة أمته.

ساد صمتٌ ثقيلٌ بعد كلام السلطان ووقف الحضور مطأطئين رؤوسهم حتى قال رشيد باشا: أدام الله ملك سلطاننا المؤيد بنصر الله فما تحركه العواصف ولا تفت في عضده النوائب .. والحمد لله الذى أخلف من بعد أولئك بعبدٍ يدين لِسُدَّتِكُم الملوكية بالولاء ولدناتكم السامية بالبراء.

أَمَّنَ عباس على الكلام قائلاً: إنما أنا عَبْدٌ من عمالكم أعفر وجهى على أعتاب بابكم العالى رجاء المفازة بعفوكم عن أخطاء السابقين التى لم يكن لى فيها من يد.

ثم تحرك ناحية الأريكة السلطانية وجثا على ركبتيه قائلاً: وإنى أجدد عهدى لكم يا مولاي وأعاهدكم على السمع والطاعة.

تبسم السلطان قائلاً: انهض يا عباس باشا إننى أستشعر صدق حديثك .. وأدعو الله أن يكون خيرًا ولايتك بلاد النيل .. استمتع بإقامتك لدينا فإنك عندنا من الأمنين.

اندمج شريف فى عمله الجديد وكان حبه لهذا العمل السبب الرئيسى فى أن يغلق قلبه على ما فيه من وجدٍ وألم، فأخذ يبذل من الجهد والوقت الشئ الكثير وكان أهم ما يثير فضوله هو شخص سليمان باشا الذى كان يعطى كل وقته للعمل فلا يستريح إلا قليلاً وكان قوى الملاحظة تلفت انتباهه أقل التفاصيل فلا يدع أمراً دون تدخله ووضع لمساته عليه فزاد إعجاب شريف بأداؤه وأسلوب عمله إلا بعض الخشونة فى طباعه تبررها الحياة العسكرية الحافلة بالمعارك والأهوال التى خاضها .. حتى كانت تلك الليلة .. فبعد أن مر شريف على وحدات المعسكر وتفقد نوبات الحراسة

وجاء الضابط الذي سيتسلم منه نوبته فأطلعه على سير العمل في أثناء نوبته وتبادل معه بعض الأحاديث الودية وبينما هما كذلك إذ برز سليمان باشا من مكتبه فأقبل عليه الجندي بعربته فركبها وهو ينظر ببعينه كالصقر إلى كل شاردة وواردة في أرجاء المعسكر وأشار إلى الجندي الذي اعتلى مقدمة العربة أن يتحرك في حين اصطف الضباط والجنود واقفين احترامًا وتقديرًا لقائدهم الذي انطلقت عربته تثير غبار الأرض من ورائها وما لبث أن ركب شريف فرسه منطلقًا إلى بيته وما لبث قليلاً حتى صكت أذنيه أصوات طلقات نارية تأتي من منطقة قريبة فلكز بطن جواده بكعب حذائه ليحثه على الركوض سريعًا وأخرج سلاحه من الحزام الملتف حول خصره وفي أقل من دقيقتين كان يرى المشهد الآتي أمامه .. لقد كانت هناك مجموعة من المثلثين قرابة العشرة رجال مسلحين بالسيوف والخناجر والبنادق تهاجم عربة سليمان باشا من عدة جهات .. وقد أصيب السائق في صدره بطلق نارى فأرداه قتيلاً على الفور ولم يبق على استيلاء المعتدين على العربة إلا بضع لحظات تحول بينهم وبين تحقيق مأربهم .. فانطلق شريف يطوى الأرض من تحت فرسه وهو يطلق الرصاصات من فوهة مسدسه الحديث ماركة كولت متعدد الطلقات⁽¹⁾ .. فأصاب منهم ثلاثة قبل أن يصل إلى مكان العربة .. وأحس المثلثون بالخطر المحدق بهم فحملوا على العربة ليصيبوا هدفهم المنشود ولكن سليمان باشا لم يكن أبداً بالخصم الهين .. فقد حمل عليهم بدوره غير عابئ بالطلقات التي تهمر عليه من جوانب العربة الأربع وانطلقت رصاصاته تحصد من

(1) صامويل كولت: ولد في ولاية كونيتيكت الأمريكية ومخترع أول مسدس متعدد الطلقات حصل على براءة اختراع من بريطانيا في عام 1835 م برقم 6909 ومن أمريكا عام 1836 م برقم 9430 إكس

المهاجمين اثنان .. ولكن كما يقولون الكثرة تغلب الشجاعة فقد أصابت رصاصة غادرة كتف سليمان باشا فسقط السلاح من يده .. وعند ذلك الحد كان شريف قد وصل إلى موضع العربة ورأى مشهد قائد المصاب فزادت غضبته واشتد عزمه على الفتك بالمجرمين .. فانقضَّ على الرجال الخمسة الباقين كالليث الهصور ممتشِّقًا خنجرًا من حزامه فجندل منهم اثنان قتلى .. وتراجع الثلاثة الباقون من شدة بأسه وعنف انقضاضته ثم حاولوا الالتفاف عليه من ثلاثة جهات متفرقة وانقضُّوا عليه انقضاضة رجل واحد .. فقفز شريف من على صهوة جواده قفزة رشيقة تفادى بها نصل أحد السيوف قبل أن يهوى على عنقه وتعلق بقائمة أقرب الجياد إليه فارتقى صهوته خلف الفارس المثلث وقبض على عنقه بساعده القوى وأطلق أحد الفرسان رصاصته على شريف الذى لم يجد بداً من أن يستخدم الفارس كدرع يقيه من الرصاصة وأصاب الرصاصة عنق الفارس فقتل من فوره .. ونظر الفرسان المتبقيان إلى بعضهما البعض وقد أحسوا بأن كفتها الخاسرة فعزما الأمر على الفرار وتولية الأدبار فانطلقا من أمام البطل لا يلوون على شيء وأراد شريف متابعة مطاردتهما لولا أن حانت منه التفاتة إلى عربة الباشا فوجده وقد فقد الكثير من دمه وباتت حياته عرضة للخطر فعدل عن رأيه الأول وقفز إلى العربة فعدَّل من وضع الباشا الذى كان يجاهد الدوار الشديد الذى يعصف برأسه وقال له شريف مشجعاً: تمالك نفسك يا سيدى لقد فر الجبناء وسأنتقل بك فوراً إلى أقرب بيمارستان و.....

قاطععه الباشا قائلاً فى ألم: لا بل اذهب بى إلى قصرى وهم سيتولوا الأمر هناك.

فأسرع شريف يجلس مكان الحوزى وينطلق بالعربة في سرعةٍ مستدلًا بالاتجاهات التي يمدده بها الباشا من داخل العربة حتى لاح القصر لعيني شريف .. وفور وصول العربة انفتحت أبواب القصر في سرعة فدلّف إلى الحديقة .. وسادت حاله من الهرج والمرج داخل جنبات القصر على إثر انتشار خبر إصابة الباشا بطلقٍ نارى .. وأقبل من فى القصر يتوافدون مهرولين للاطمئنان على حالته فى حين نزل الباشا من العربة متحاملًا على كتف شريف .. وفى حقيقه الأمر من يرى شريف بجانب الباشا لا يدرى أهم المصاب من الشحوب الشديد الذى أصاب شريف .. فقد كان هذا القصر الذى دخله منذ قليل هو ذات القصر الذى رأى الفتاة تدخل إليه من قبل ومعنى ذلك أنه قد يراها الآن أمامه إلا أنه تمالك شعث نفسه بعض الشيء صائحًا فى الحاضرين: الحكيم أين الحكيم.

فقال له الباشا مطمئنًا: دعنى أذهب إلى غرفتى وسوف يحضر كلود بك الطبيب إلى هناك.

وبينما هم كذلك إذ انشقت جموع الواقفين ليفسحو الطريق لابنة الباشا و التى هرولت صائحةً بصوتٍ مختنقٍ بالدموع التى تغرق عينها: أبى .. أبى ماذا أصابك يا أبى.

وارتمت راکعة تحت قدميه تجهش بالبكاء والباشا يربت على رأسها فى حنانٍ جَمّ مطمئنًا: إنى بخير يا بنيتى إنى بخير يا فريال.

أما شريف فكان ينتفض كرىشةً فى مهب الريح فقد كانت نفس الفتاة التى تعلق بها فؤاده طوال الفترة السابقة هى ابنة سليمان باشا الفرنساوى والذى شعر بشدة اضطراب شريف فظن أنه قَلِقٌ عليه فصاح

به: اثبت يا فتى فلا بأس علىّ إنه جُرْحٌ غير خطير لا يرقى لقتل سليمان باشا.

ثم وأردف قائلاً وهو ينظر إلى ابنته: لولا وجود هذا الفتى الشجاع لحدث ما لا تحمد عقباه.

أمسك شريف بذراع الباشا صائحاً: أنا لم أفعل شيئاً يستحق الثناء يا سيدى ولكن المهم الآن أن نسرع بالطبيب فالدماء تتدفق من جرح كتفك بغزارة.

قالها وهو يشق طريقه وسط المتواجدين وابنته متعلقة بذراع والدها الأخر لتعيّنه على الحركة .. واستمر بهما الحال حتى أرقدوا الباشا في فراشه بالطابق الثانى .. وبعد لحظات ظهر كلود بك ومعه كثير من المساعدين والممرضات فأخرج الحاضرين من حجرة النوم التى تحولت فى لحظات إلى غرفةٍ للعمليات .. ووقف شريف خارج الحجرة يعصف به القلق فى انتظار خروج الطبيب ليطمئن على الباشا وبينما هو كذلك إذ أقبلت عليه فريال ووقفت بجواره برهة ثم استجمعت شتات نفسها والتفتت إليه قائلة: أشكرك يا سيدى على كل ما قمت به من أجل والدى.

كان شريف يشعر بأن الأرض تميد به من تحت قدميه إلا أنه ازدرد لعابه قائلاً بصوتٍ مبحوح واهن: أنا لم أفعل إلا واجبى وأى شخص إذا قُدِّرَ له التواجد وقت الحادث لفعل نفس الذى فعلت .

فريال: هذا شعور نبيل منك أيها الضابط الهُمَام .. ولكنى أعتقد انى رأيتك قبل الآن .

شريف: إذا سمحت لي أن ازيل عنك عناء التفكير .. فأذكرك بأننا قد التقينا سالفًا في حفلة تكريم البعثات القادمة من الخارج في قصر القلعة.

نظرت له فريال مليًا ثم اتسعت عينيها وقد تذكرت كل شيء فأسرعت قائلة وقد احمرت وجنتيها من الخجل: نعم .. نعم تذكرت .. يا ربي .. إنني أستميحك عذرًا يا سيدي أن تغفر لي ما قد كان مني يومها لقد كنت

قاطعها شريف في انفعال: بل أنا الذى أستميحك عذرًا يا مودموزيل ألا تبررى أى شيء مما حدث .. فليس لمثلك أن تعتذر لذلك .. بل علىّ أنا أن أشكر ذلك الحوضى الذى منحني فرصة رؤياك في ذلك اليوم.

كان يتحدث إليها وديبب قلبه يدوى من الانفعال وقد تلاقت عيناها للحظات كانت أبلغ من مئات الكلمات بث خلالها شريف كل ما كان يكابده من وجد وهيام طوال الفترة السابقة .. ووصلت رسالته كاملة إليها مما جعلها تخفض عينيها في حياء وتنظر إلى غرفة والدها قائلة لتغير دفة الحوار: أعتقد أن الطبيب قد تأخر .. أريد أن أعرف ماذا يحدث لوالدى.

أعادته كلماتها إلى أرض الواقع فشعر بسُخفٍ موقفه وانتابه حرجٌ شديد وهو يقول: تمالكى نفسك سيطمئننا الطبيب على جناب الباشا إن شاء الله.

ثم تذكر شيئًا فأسرع قائلاً لها: اعذرى لى فضولى يا هانم .. ولكنى أقف هنا منذ فترة ولم أرسواك تنتظرين للاطمئنان على صحة الباشا فأين والدتك و باقى أقاربك؟

شردت فريال للحظات ثم قالت بصوتٍ يقطر حزناً: لقد ماتت والدتى منذ أربعة سنوات.

لعن شريف فضوله الذى تسبب في إيلام تلك الفتاة الرقيقة وأسرع
يقول لها في أسفٍ شديد: رحمها الله يا هانم .. وأعتذر عن تذكرك بذلك.

استمرت الفتاة في حديثها كأن لم تسمعه: عندما انتهت الحملة
الفرنسية على مصر لم يرد أبى أن يرحل معها .. فلقد شعر بأن هذا البلد
يشده إليه ووجد وسط أهله من الطيبة والأصالة ما لم يجده في أى مكان
آخر .. وهكذا قرر أن يبقى في مصر تاركًا وطنه الاصلى وبيته في مدينة ليون
وبها العديد من أهله وأقاربه متخذًا من مصر وأهلها وطنًا جديدًا له وقد
اختلط بهذا الشعب حتى امتزج به فأشهر إسلامه وتزوج من بناته.

وَنَمَّتْ شفيتها عن ابتسامةٍ رقيقة وهي تتذكر قائلة: تزوج من أمى ..
وهي فتاة بسيطة من وسط الشعب المصرى كانت ابنة وحيدة لوالدها
تاجر القماش الثرى .. رآها أبى فأحبها وتزوجها وعاش معها في سعادةٍ
وهناء لسنوات .. وكنت أنا ثمرة هذا الزواج .. المثال الجلى على امتزاج
حضارة فرنسا ومصر.

ثم اكتسى صوتها بالحزن مرة أخرى وهي تقول: ولم يعكر تلك الحياة
السعيدة سوى مرض أمى والذى ما لبث أن تمكن من جسدها فأسلمها
إلى حتفها .. وبقيت أنا لا أعلم لى في هذه الدنيا إلا والدى الذى طالما
أغدق عليّ بحنائه ورعايته وبذل من الجهد ما حاول به أن يعوضنى عن
غياب الأم وحنانها.

عند هذا الحد لم تستطع أن تملك نفسها فأجهشت في البكاء فجأة
وهي تقول: والآن هو داخل غرفته مصابًا بطلقٍ نارٍ يصارع الموت .. وليس
لى دونه من أحد فهو أبى وأمى وكل أهلى .. احفظه لى يا رب.

وَدَّ شريف لو يحتويها بين ذراعيه فيبث إليها الطمأنينة أو يمسح
دمعها بيديه فيجلو عنها حزنها .. لقد كان هذا السيل من المشاعر الأليمة
المتدفقة من تلك الفتاة أكبر من قدرة شريف على التحمل فلطالما حلم
بمجرد رؤياها وليس التحدث معها على هذا النحو من القرب والألفة ..
ولم يستطع لسانه المعقود إلا ان يقول لها في حنانٍ جَمّ: سيخرج سالمًا
معاً إن شاء الله العلى القدير.

وما أن انتهى من عبارته حتى انفتح باب الحجرة وخرج كلود بك ..
فهرع إليه شريف وفريال إلا أن الطبيب قد ابتدرهم قائلاً: اطمئنا فالباشا
بخير حال.

انهمرت دموع فريال من الفرح في حين سأله شريف في اهتمام:
والرصاصة التي كانت بذراعه.

كلود بك: لقد استخرجتها له وضمدت الجرح وزال الخطر .. وكل هذا
بفضل شجاعتك أيها الضابط فلو تأخرت فترة إسعاف الباشا عن ذلك
لحدث ما لا تحمد عقباه.

نظرت فريال إلى شريف بامتنان في حين قال هو بيايمان: بل الفضل
لله وحده يا سيدى الطبيب.

أسرعت فريال تسأل الطبيب في لهفة وبفرنسيةٍ سليمة: هل تسمح لي
بزيارته الآن يا مسيو كلود بك.

أجاب كلود بك: نعم ولكن ليضع دقائق حتى نوفر له الراحة التامة
والتي يحتاجها جسده .. وسأزوره غدًا في الصباح للاطمئنان على الجرح.

قالت فريال في امتنان: أشكرك يا مسيو كلود بك.

ونادت على الخدم ليوصلوا الطبيب ومن بصحبته إلى الخارج في حين أسرعته هي الخطى وبصحبتها شريف إلى داخل الحجرة للاطمئنان على الباشا وما أن رآوه حتى ألقت فريال نفسها بين ذراعيه وعينها مغرورقتان بالدموع وهي تقول في لوعة: حمدًا لله على سلامتك يا والدى لقد كنت سأموت إن أصابك أى مكروه .. أوه أبى الحبيب. نطقت المقطع الأخير بالفرنسية.

ربت الباشا على كتفها وهو يرفعها عن صدره قليلاً من الألم وهو يقول: الحمد لله يا بنيتى.

أحست بأنها قد ألمته فرفعت جسدها بسرعة عن صدره وهو يقول مازحًا: لا تجزعى .. أبالك لازال فتبًا يا فريال فلا يغرنك ذلك الشعر الأشيب الذى يكسورأسى.

نمت ابتسامة على ثغر فريال من وسط دموعها الغزيرة في حين قال شريف: حمدًا لله على سلامتك يا سيدى.

الباشا: الله يسلمك يا...

ثم تذكر أنه لا يعلم إلى الآن اسم منقذه فقال: ما هو اسمك يا فتى؟

اعتدل شريف في وقفة عسكرية وأجاب بصوت قوى: يوزباشى محمد شريف يا سيدى القائد .. من الألاى الحراسه الخاص بجنايبكم المصون.

الباشا: شريف .. أشكر لك صنيعك يا شريف ولكن هل علمت من المسؤول عن هذا الحادث.

شريف: لقد سقط كل المعتدين صرعى في حين لاذ اثنان بالفرار وما معنى من تعقيمهم إلا حالتكم الصحية الخطيرة .. فأسرعت بإحضار جنابكم للقصر .. وأنا لم أعادره منذ الحادثة حيث أردت الاطمئنان على صحة جنابكم.

الباشا بحدة: خطأ أيها الضابط كان الأجدر بك أن تعود إلى مكان الحادث مسرعاً كي لا يخفى الجناة آثار جريمتهم ويفروا.
شريف في خجل: أعتذري يا سيدي.

فريال محتجة: يا أبتٍ لقد كان ذلك الضابط الهمام متلهفًا للاطمئنان عليك وما انفرجت أساريره إلا عندما خرج الطبيب من الحجرة فطمأننا على صحتك أفلا نشكره على موقفه النبيل؟!

الباشا وهو ينظر إلى ابنته متعجبًا دفاعها عن شريف: ضابط الجيش لا يعمل وفق المشاعر والرغبات بل يعمل وفق نظام صارم يؤدي به إلى إنجاز أهدافه هل تعي ذلك جيدًا يا حضرة اليوزباشى؟
شريف: سمعًا وطاعة يا سيدي القائد.

الباشا: هذا لا يمنع أنك قد أعجبتني اليوم يا فتى .. فقد واجهت المعتدين بجرأة وقوه تنم عن أنك خامة جيدة وسيكون لك مستقبلٌ مُشرفٌ .. وتذكر منى تلك الكلمات.

شريف: أشكرك يا سيدى القائد .. وأستأذنك بالانصراف فقد
اطمأننت على صحتكم ولله الحمد.

الباشا: تفضل بالانصراف .. تصحبك السلامة.

التفت شريف إلى فريال قائلاً بركة: أستأذنك يا مودموزيل.

فचितه بابتسامةٍ عذبةٍ من ثغرها فانطلق مغادراً إلى خارج القصر
حيث برد الليل القارص ينخر في العظام إلا أن المشاعر والأحاسيس التي
يجيش بها صدره طغت على كل ما حولها ولم تذر إلا دفاء الهوى وحرارة
الجوى.

ساد الصمت والسكون في جنبات قصر يوسف كامل بك بالأزبكية في
تلك الساعة المتأخرة من الليل وَهَبَّتْ نسمات من الهواء البارد ارتجف
على إثرها جسدى الحارسان الواقفان لحراسة بوابة القصر فأخذوا في
تبادل أحاديث السمر ليزجيا وقت الليلة التي بدت لهم طويلة ومملة غير
شاعرين بهؤلاء المثلثمين الخمسة المتشحين بالملابس السوداء الزاحفين
على جانبي أسوار القصر.. ولم تمض لحظات حتى انقضوا على الحارسين
وطعنوهما بالخناجر في صمت ثم أزاوهما جانباً وتسللوا إلى داخل
القصر حيث اتجه ثلاثة منهم إلى اسطبلات الخيل والتي كانت خالية من
العمال في هذا الوقت المتأخر من الليل فاتجهوا إلى أكوام التبن والقش
فأضرموا فيها النيران أما الإثنان الأخران فاتجها إلى مبني القصر الرئيسى
فألقوا عليه شعلات اللهب والتي سرعان ما أمسكت بالنباتات المتسلقة
على جدران المبني فأحاطت النيران بالقصر من الخارج ثم انسحبوا

مسرعين بعدما أضيء ظلام الليل بالنيران المحرقة وانطلق صراخ سكان القصر من خدم وعمال مفزوعين من النيران المستعرة وخرج يوسف بك من شرفة قصره فهاله منظر النيران فصاح على زينب هانم واندفع إلى حجرتها فوجدها في سُبَاتٍ عميق فأنهضها من فراشها صارخًا في فزع وألقى عليها الأغصية الصوفية حتى تقيها ألسنة اللهب وأخذ يجاهد وهو يشق طريقه وسط الدخان الكثيف والنيران المستعرة.

وقفت نازلى هانم تداعب ابن أخيها الصغير ووقفت بجوارها أمه ملك هانم وهى تبتسم فى اندهاش مما جعل نازلى تسألها قائلة: لماذا أرى علامات الاندهاش تبدو على ملامحك يا ملك هانم؟

أجابتها ملك وقد أصابها الحرج من عدم استطاعتها إخفاء انفعالاتها: معذرة يا سمو الأميرة نازلى .. ولكننى أتعجب من الأحاديث المتناقلة حول صرامة طباعك وشده بأسك ولا أكتم مقامك سرًا لقد كنت أخشى كثيرًا من الفترة التى سأقيمها فى قصرك وقد حاولت التعلل بأى سبب لأمكث بالإسكندرية إلا أن سعيد باشا لم يكن يرغب فى أن يمضى مده سفره بعيدًا عن ولده.

أدنت نازلى رأسها من ملك هانم مداعبة وهى تقول: عن ولده فقط وماذا عن أم ولده؟

ابتسمت ملك فى خجل وهى تقول: إن سمو الأمير سعيد وعلى الرغم من كل المهام الجسام الملقاة على عاتقه إلا أنه لا يألُ جهدًا تجاه رعاية أسرته.

ثم استطردت كلامها عن نازلى قائلة: ولكنى أصدقك القول يا هانم فلقد خبرتك عن قرب وشاهدت بنفسى أفعالك وتصرفاتك وإنى لأشهد بكل ثقة أن كل تلك الأقاويل التى تتناثر حول شخصك الكريم ما هى إلا محض افتراء فأنتِ دمثة الخلق بشوشة الوجه رقيقة المشاعر وإنى لأراكِ وأنتِ تداعبين ولدى محمد وكأنكِ تحولتِ إلى طفلةٍ صغيرةٍ تلهو وتعبث في براءةٍ وانطلاق.

وضعت نازلى الصغير في فراشه بحنان ثم التفتت إلى ملك قائلة بصدق: إنى لأعشق الأطفال وأشعر منهم بالصدق والبراءة و الحنان وهى أحاسيس ومشاعر قلما تجديها في عالم الكبار حيث يغلب الكذب والخداع والجفاء على أغلب تصرفاتهم.

ملك: معك كل الحق وإنى لأخشى كثيراً على سعيد باشا من مخاطر الحكم والتي يغلب على العاملين بها تلك المشاعر البغيضة .

ثم استطردت بقلبي جَمّ: حتى لا أدرى لِمَ تأخر هذا المساء عن مواعده اليومى.

أجابتها نازلى: لا تخافى على الباشا فهو ولى العهد وأمل العائلة في أن تعود الأمور إلى نصابها على يديه .. فأبى محمد على اجتباة برعايته منذ نعومة أظفاره فحمله من المسئوليات ما شد عوده وقوى عزيمته كما ..

قاطعها صوت جلبة في خارج الغرفة فقالت في مرح: ها هو ذا أميرك الهمام قد عاد من الخارج فهيا لنستقبله.

وأشارت بيدها إلى الخادمة لتتقدمهم وتفتح الباب من أمامهم وما أن فتحت الخادمة الباب حتى أطلقت صرخة فزع حيث وجدت أمامها رجلاً

ملثمًا مسربلاً بالسواد يسد عليها الطريق بقامته الفارعة ممسكًا بيده خنجر ماضي كبير الحجم فلاذت بالفرار إلى داخل الحجرة إلا أنه ابتدرها بطعنه نجلاء شقت صدرها فهوت مخضبة بدماءها ومن خلفها انطلق صراخ المرأتين إلا أن الرجل أسرع بالهروب دون أن يتعرض لهما بسوء فأمسكت نازلي بشمعدانٍ معدني في يدها لتدافع به عن نفسها وتحسست طريقها إلى خارج الغرفة وخلفها سارت ملك هانم تحتفى بها وما أن صارا خارج الحجرة حتى صدمهما منظرٌ مهول .. فلقد أمتلأت جنبات القصر بجثث الخدم والعاملين وتلطخت أرضياته بشلالاتٍ من الدماء، كان المنظر شنيعًا وهو ما لم تحتمله سيدة رقيقة كملك هانم فسقطت فاقدة الوعي وصرخت نازلي هانم منادية باسمها وافترشت بجوارها الأرض محاولة إسعافها دون جدوى .. ولأول مرةٍ في حياتها انهمرت دموعها على وجنتها معبرة عما تشعر به من عجز وقهر.

دخل عباس باشا إلى البلاط السلطاني في قصر طوب كابي وقدم التحية اللائقة للسلطان عبدالمجيد الذي أشار له بيده محيياً فأخذ مكانه بجانب رشيد باشا حيث قال له السلطان: أرجوا أن تكون إقامتك لدينا بدار الخلافة قد نالت رضاكم يا باشا.

عباس: ومن لا يتعم بالراحة في جواركم يا مولانا.

السلطان عبدالمجيد: لقد كان من دواعي سرورنا أن خَبَرنا أخلاقك الحميدة عن قرب يا باشا فأنت رجل دَيِّن مواظب على الصلاة والتنفل والذكر وهذا لعمرى من أهم الخصال المطلوبة في عمالنا على الأمصار كما

علمنا أنك لم تطرق أبواب اللهو والمسرات على الرغم من أنك في مستراح من أعباء الحكم.

ثم تابع في شيءٍ من الصرامة: ولكن أرجو أن يكون هذا ديدنك في كل الأحوال وليس مرآة لأحدٍ من الخلق.

هنا تحدث رشيد باشا قائلاً: يا مولانا السلطان إن سيرة عباس باشا تسبقه فهو سباق إلى مجالس العلماء وأهل الذكر والوعاظ.

عباس: يعلم الله أن كل مرادى هو نصرة دين الإسلام ورفع راية مولاي السلطان عالية خفاقة فوق الهامات.

السلطان عبدالمجيد: أعلم يا باشا أن من حسن تدبر المرء أن يتعظ من عبر ومآثر سابقه وأوصيك بالمصريين خيراً فهم زراع مهرة أرضهم خصبة تمد الخزانة العثمانية بأجود المحاصيل الزراعية ولا تستأسدهم عليك بتعويدهم حمل السلاح وخوض المعارك الضارية ولا تستعديهم عليك بتولييتهم للمناصب العليا فيطمحوا إلى ما هو أكثر فينازعوك حكمك ويشاركوك سلطاتك .. وتذكر دائماً يا باشا أن حكم أمه جاهلة أسهل من حكم أمة متعلمة وليكن لك فيمن سبقوك من عبرة ومزدجر.

عباس باشا: نصائحكم الغالية يا مولانا نبراسٌ ينير لنا درب الحكم ومنهاجٌ لا نعيد عنه ما حيننا وأشكر لعظمتكم سعة صدركم وهو ما شجعتني بمفاتحتكم في أمرٍ لظالما ترددت في خوضه مغبة أن يؤول في غير محله.

أشار له السلطان أن يسترسل فقال: إن حديثكم الذي أنعمتم به على يوم قدومي لبابكم العالي نزل منى منزلة التدبر والتفكير وشغل على

وجدانى .. وما أقل مضجعى إلا خشيتى على دولة الخلافة من أن يعيد التاريخ نفسه كما تفضلتم وذكرتم يومها وإنى قد عاهدتكم على الوفاء والإخلاص ما حييت وإننى يا مولانا لا أملك إلا نفسى وولدى الذى نشأ وترعرع على الإخلاص لبابكم العالى ولكنى أشعر بأنى أسبح عكس التيار وأغرد فى السرب منفردًا وسط عائلتى التى يخالفنى أكثرها أفكارى ومعتقداتى وإننى لأخشى إن وافتنى منيتى أن يجلس من بعدى من يبدل ويحيد عن منهجكم القويم.

السلطان عبدالمجيد متسائلًا: إلام ترمى يا باشا من كلامك هذا؟ تكلم بدون موارد.

عباس: لقد تفضلتم وأنعمتم على أسرتنا بفرمان 19 إبريل 1841 والذى نص على أن يتولى حكم مصر الأكبر من أبناء محمد على .. وهو أمر كان وقتها حلًا وفقًا لمقتضيات الموقف آنذاك .. أما الآن فقد أن الأوان لتعديل هذه الهيئة والعطاء وفق مستجدات الأمور فقد يأتى من بعدى من يسلك دريًا مغايرًا فيرفع لا قدر الله راية العصيان من جديد.

السلطان عبدالمجيد فى صرامة: لا زال كلامك غير واضح يا باشا .. ما هو مطلبك الذى ترمى إليه؟

وهنا تحرك عباس إلى عرش السلطان وخر على قدميه أمامه فى خضوع وهو يقول: إن مرادى أن تمنوا على عاملكم المقتضى بعدلكم عباس بفرمان يجعل ولاية مصر من بعدى لعبدكم المستضى بنور عطفكم إلهامى ولدى.

السلطان عبدالمجيد في صرامة: أتريد منا أن نبدل في فرمانًا وقعنا عليه باسمنا الهمايوني وأن نعود في كلمة أحسننا بها عليكم أبناء محمد عليًا.

بدا الإنزعاج على رشيد باشا إثر غضب السلطان في حين قال عباس باشا: أقسم لكم بأن هذا ليس طمعًا في جاهٍ دنيوى أو عزٍ فانٍ ولكن خشيةً منى على مصالح دولتكم العلية .. فلتسألوا عن الأحوال بمصر حيث ترك محمد على رجاله في كل المجالات ليتداولوا سيرته ويقدموه للعامه كصلاح الدين الأيوبي وخلفه إبراهيم كخالد بن الوليد وأبناءه وأحفاده المتفرنجين كيف يتحدثون عن الخلافة والدولة العثمانية ويصفونها بالرجعية وأسألوا كيف يتعاملون مع القيم الإسلامية بالزراية وعدم التوقير المطلوبين .. فكيف بالله يا مولانا تنتظر أن يكون منهم واليًا صالحًا تأمنونه على رعاياكم وتأمّلون أن يصير منهم من يسير على درب عدلكم وينحو وفق مرادكم.

كان يتكلم وقد بدا على ملامحه الصدق واضحًا جليًا .. وبعد برهةٍ من الصمت الثقيل أشار السلطان لرشيد باشا كي ينهضه قائلاً: انهض يا باشا لقد لمسنا مدى الإخلاص بكلامك وعلمنا صدق نواياك.

ثم تابع وهو يداعب أطراف لحيته: ولكن ما تدعوا إليه أمرٌ جليل لا نقول به إلا بعد الدراسة والمشاورة وليقض الله أمرًا كان مفعولاً .

استمرت اللقاءات تتوالى بين شريف وفريال فقد كان شريف يجيء دومًا إلى القصر بحجة الاطمئنان على صحة سليمان باشا .. وكانا كثيرًا ما يتبادلان بعض العبارات الخجولة القصيرة يتهامسان بها قبل الدخول إلى

الباشا أو بعد الخروج من عنده .. ثم ما لبثا برهة من الوقت حتى تألفت الأرواح وصفت النفوس وامتلات برحيق الصباية والبهيام .. واكتمل شفاء الباشا ولم يعد للزيارة المتكررة معنى واشتد الكرب على شريف ولم يعد ليومه نفس البهجة التي كان يشعر بها في ظل لقاء الحبيب فيستمد من لقاءه نشوة تغذى روحه وتنعش فؤاده.

ومرت الأيام بطيئة فارغة من كل سعادة تجلو آلام الفراق ووحشة البعاد لولا بعض الاحتفاء الذي غمره به سليمان باشا والذي لم يدع مناسبة إلا وأشاد به وبشجاعته مما أحاطه دائماً بنظرات الإعجاب والحسد من رؤساءه وأقرانه .. وأغلق شريف قلبه على ما به من الوجد وانغمس في عمله حتى إذا ما خلا بنفسه تجددت أحزانه وجثم الشوق على روحه فأبكى قلبه .. وظل على تلك الحال حتى كان يوم الإحتفال المقام بالقلعة بمناسبة عوده الوالى عباس باشا من إسطنبول وأصر سليمان باشا على أن يقدمه للوالى بنفسه ويشيد أمامه بعمله ولم يتقبل أى أعذار حاول شريف أن يتعلل بها للتخلف عن تلك الدعوة .. وهكذا ارتدى شريف بذلته العسكرية وأخذ كامل زينته وامتطى صهوة جواده وانطلق إلى قصر الباشا وكاد عقله يجن من فرط التفكير في فريال .. هل ستأتى مع والدها إلى ذلك الحفل أم لا؟ وأخذ يمنى نفسه بلقياها والأنس بسماع صوتها العذب وشفاء نفسه السقيمة بالنظر إلى ضيِّ عينيها وتسعد روحه بقرب وصالها .. فلكز بطن جواده بقدمه ليحثه على الإسراع وعبر بوابة القصر الشاهقة ووقف ينتظر نزول الباشا من قصره وأخذ يختلس النظرات إلى شرفة القصر لعله يحظى بنظرة من محبوبته .. وفُتحت أبواب السراى وظهر الباشا وبصحبه كريمته وثمره فؤاده فريال تعلق يدها بيد والدها الذى بدا متألِّقا في جلته العسكرية تزين صدره النياشين والأوسمة .. وتهللت أسارير شريف لرؤية محبوبته فخف هابطاً من على

جواده ليستقبل الباشا الذى قال له:مرحبًا يا شريف فى موعدهك تمامًا إلا أنى الذى تأخرت فللفتيات طقوسهن التى لا تنتهى فى الحفلات.

وغمز بعينه تجاه ابنته فابتسم شريف فى ارتباك واحمرت وجنتا فريال خجلاً وركبت العربة فى حين اتجه شريف إلى جواده ليركبه فرآه الباشا فاستوقفه قائلاً: الى اين أنت ذاهب يا فتى؟

فأجابه شريف: سأتبعكم بجوادى إلى القلعة يا سيدى.

فقال الباشا بصوته الجهورى: بل ستركب معى إلى القلعة.

فتردد شريف قائلاً: ولكن يا سيدى.....

قاطعه الباشا: بدون لكن هذا أمر.

فترك شريف جواده وصعد إلى متن عربة الباشا التى انطلقت تجرها الخيول إلى القلعة وأثناء الطريق أخذ الباشا يحدث شريف عن بعثته فى فرنسا والقادة الذين قابلهم هناك وتعلم على أيديهم فيئنى على البعض ويلعن البعض وشريف يجيبه على أسئلته بلباقية وسرعة بديهية نالت إعجاب فريال .. واستمر بهم الحال حتى وصلوا إلى القلعة وما لبثوا برهة حتى بدأت مراسم الحفل .. ودلف الباشا وخلفه شريف وفريال إلى قاعة الحفل ومثلوا بين يدي الوالى عباس الذى كان يقف بجانبه ولده إلهامى فحياه سليمان باشا قائلاً: السلام على أفندينا الوالى حمداً لله سلامه وصولكم سالمين إلى أرض المحروسة.

فقام له عباس باشا محيياً وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله .. بل حمداً لله على نجاتك أنت من الحادث الدنيء الذى تعرضت له يا باشا

لقد اطمأننا على صحتك من كلود بك فور وصولنا وعلمنا بالأمر.. ونعدك بأننا سنجرى تحقيقاً دقيقاً ولن ندع من اقترفوا هذا الجرم دون معاقبة.

سليمان باشا: أشكر اهتمام جنابكم ولله الحمد والمنة فإننى بخير..

ثم نظر إلى شريف قائلاً: ويسعدنى أن أقدم لجنابكم الضابط الهمام اليوزباشى شريف الذى كان متواجداً ساعة الحادث وأبلى أحسن البلاء ويرجع الفضل له فى نجاتى من موتٍ محقق.

فتقدم شريف بين يدى الوالى واحنى جبهته قليلاً وقال: السلام على مولانا الوالى.

عباس باشا: وعليكم السلام عفارم عليك أمها الضابط.

لكن إلهامى باشا علق قائلاً: أحسنت صنعاً بالزود عن قائدك ولكن ما كان ينبغى أن تترك أولئك البغاة يفرون بفعلتهم دون أن تعلم من مدبر هذا الجرم.

هم شريف أن يرد لولا إشارةً من يد سليمان باشا الذى قال بصوته الجمهورى: إن إصابتي قد فرضت نفسها على الموقف مما اضطر شريف أن يفاضل بين القبض على المعتدين أو الإسراع لمداواتى فقرر الثانى على الأول حفاظاً على حياة قائده.

أشار الوالى بيده قائلاً: على كلِّ حمدًا لله على سلامتك يا باشا.. ولك منا المكافأة المجزية يا صاغ شريف.

ابتسم سليمان باشا وضرب بيده على كتف شريف محيياً وهو يقول:
مبارك عليك إنعام أفندينا ورضاه عنك بترقيتك تلك الترقية الاستثنائية
يا بطل.

تقدم شريف من الوالى وقيل يده شاكرًا له على إنعامه وهو يتمتم
بعبارات الثناء ..

ونظر الوالى لفريال التى تقف بالخلف متسائلًا: أهذه ابنتنا فريال؟

أجاب الباشا وهو يفسح المجال لابنته: نعم يا أفندينا.

ثم أشار إلى ابنته: حيي مولانا الوالى يا فريال.

أمسكت فريال طرفي ثوبها وأحنت رأسها قليلاً: السلام عليك يا
أفندينا أدامكم الله فوق الرؤوس والهلمات.

هز الوالى رأسه بالتحية قائلاً: وعليك السلام يا بنية ما شاء الله كبرت
كثيراً و صرت عروساً كالبدور .. لنهبي إلى الحراملك حتى تستمتعي بالحفل
من هناك فالآن سوف تبدأ مراسم الاحتفال.

فحيته فريال ثانية وانصرفت إلى الحراملك ولم يغب عن شريف تلك
النظرة التى حدى بها إلهامى فريال وهى تنصرف ولكنه حاول السيطرة على
مشاعره حتى لا يبدو على وجهه أى انفعال فى حين أشار الوالى بيده إلى
كبير الحرس ليعلن بدء مراسم الاحتفال فى ساحة القلعة فنفخ بالمزامير
وضربت المدافع وانطلقت الخيالة فى صفوف متوازية تحمل سيوفها
البراقة كالشموس من ضوء المشاعل المتراصة على جدران القلعة بينما
يطلق الرماة أعيرةً من بنادقهم فى سماء الساحة.

ووقف الوالى فى شرفة كبيرة أعلى قصر القلعة يتابع مراسم الحفل وعن يمينه ولده إلهامى وعن يساره سليمان باشا وشريف الذى كان يشعر بكثير من الخجل لوقوفه فى صدارة المشهد بجانب أكبر مقامات الدولة فى حين يقف قاداته فى منزلة أدنى فتقل ذلك على نفسه وأخذ يلتفت يمنا ويسرة لعله يجد عذراً يتملص به من تلك الجلسة فلمح فى الواقفين صديقه على مبارك فأسرع يشير إليه بالتحية مما جعل سليمان باشا يلتفت إليه مستفسراً فقال له شريف مفسراً بارتباك: صديقى على مبارك زاملنى فى بعثة فرنسا.

ثم أردف قائلاً: أستميحك عذراً يا سيدى أريد الذهاب إليه .. فلم أقبله منذ فترة كبيرة .

ابتسم سليمان باشا قائلاً فى خفوت وبالفرنسية التى لا يجيدها عباس: اذهب كما يحلو لك فأنا أعلم ما تشعر به من كدر بسبب الصحبة السمجة ولكن ياليتنى مثلك أملك ترف الهروب.

حاول شريف أن يتمالك نفسه من الضحك ورسم على وجهه الجدية قدر المستطاع وهو يهز رأسه بتحية الانصراف إلى سليمان باشا وما أن أدار ظهره للواقفين حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة حسيها صديقه على مبارك ترحيباً به فأقبل عليه يعانقه ويبادلته التحية وهو يقول له: عيى عليك باردة .. أرى أنك قد تقدمت كثيراً يا شريف فى حياتك العملية .. فأنت تجاور السير عسكر وأفندينا وولده وتقف معهم بنفس الرواق وعلى رأى أهل المحروسة من جاور السعيد يسعد.

أبتسم شريف قائلاً بصدق: أعلم يا على أنى ما بلغت تلك المكانة بتخطيطٍ أو تديير ولكن الأحداث فرضت نفسها علىَّ وصعدت بى لهذا المرتقى وإنى ما قدمت اليوم إلا بالجاح من سليمان باشا.

على: طبعاً يا سيدى فما دمت قد أنقذت حياته فمن الطبيعى ان يغدق عليك الباشا بكرمه ويفتح ما أغلق دونك من أبواب.

شريف: أعلمت بما جرى لى مع سليمان باشا.

على: وهل فى ربوع المحروسة اليوم من لم يسمع باليوزباشى شريف منقذ سليمان باشا الفرنساوى.

شريف: ألهذا الحد ذاع الأمر وبلغ.

على ضاحكاً: طبعاً إن الناس تتحدث عن بطولتك وشجاعتك فى مواجهه المعتدين كما لو أنهم يتحدثون عن عنتره بن شداد فأقف فخراً وتميهاً وأقول لهم إن من يتحدثون عنه لهو صديقى.

شريف: إننى لم أفعل إلا واجبى وما قدر لى ذلك إلا بتوفيق الله.

وأراد شريف أن يغير دفة الحديث لشعوره بالخجل من امتداح محدثه له: وأنت يا أستاذنا الكبير ما قذف بك فى أتون هذا القصر ووسط حاشية الوالى المقربين.

أجابه على: لقد كنت أشرفُ على امتحان المهندسين المتخرجين من المهندسخانة وحسبت أن الأمور ستنتهى بانتهاء الامتحانات لكن أفندينا أسند لى مهمة استبدال المهندسين القدماء بغيرهم من خريجي مدرسة المهندسخانة يكونوا على كفاءة و..

يبدو أن الصاغ شريف لا ترتضى نفسه الأمانة بالسوء صحبة الوالى
يا على أفندى.

كانت هذه العبارة من إلهامى باشا ابن الوالى والذى وجده الإثنان
خلفهم كأنما انشقت الأرض وأنبته فهيت الإثنان من أثر المفاجأة إلا أن
شريف أسرع قائلاً: معاذ الله يا باشا.

وحاول على أن يتجاوز الأمر قائلاً: صاغ مرة واحدة .. إنه ليومٌ مجيد ..
مبارك يا شريف وإنى لأشهد لك أمام حضرة الأمير بأنك أهل لكرم أفندينا
ولى النعم.

إلهامى: وباليته قد قابل هذا الإنعام بالشكل اللائق بل ترك مرافقة
الوالى وانصرف دون حتى أن يستأذن.

شريف: لقد طلبت الإذن من سليمان باشا كي أتحدث لبضع دقائق
مع صديقى على فأذن لى.

إلهامى برود: إن مرافقك لمدعوٌ مثلك أيها الضابط وليس هو صاحب
الدعوة .. كما أنك كرجل عسكرى محنك يجدر بك أن تكون على علم
بأنك وأنت فى حضرة الوالى تكون أمام قائدك الأعلى فوجوده يجُب كل
الرتب الأدنى.

احمرت وجنتا شريف من الانفعال وهم أن يرد بحدة لولا تدخل على
مبارك قائلاً: يا جناب الباشا ليس فى الأمر أى تعدى على شخص أفندينا
المصون ولكن كل مراد صديقى شريف هو أن يصل رفيق بعثته ويطمئن
على حاله فقد كنا زملاء فى بعثة فرنسا لمدة خمسة أعوام متصلة.

ثم استطرد قائلاً: وإن كان هناك أى ضيق قد سببه ذلك فلکم منا كل الأسف والاعتذار.

إلهامى: كنت أود أن أسمع هذا الاعتذار من حضرة الصاع.

لكز على قدم شريف يحثه على حسن الكلام فى حين لبث شريف برهة من الوقت يدارى فيها انفعاله بسبب هذا التحرش الغير مبرر لشخصه ثم انصاع للكزات لصديقه على وقال بهدوء: أعتذر إذا كان قد أسيء فهم موقفى بالشكل الخاطيء.

نظر إلهامى لشريف فى عينيه مباشرة وهو يضغط على حروف كلماته على نحو مستفز: اعتذارك مقبول نظراً لجهلك بأصول مجالسة الحكام من أبناء الأسرة العلوية الشريفة ولكن فى المرة القادمة فلتلتزم مكانك ومكانتك.

لم يبعد شريف عينيه عن إلهامى وبأدله النظر بنفس التحدى وهو يقول: يبدو أن الباشا لا يعلم بأننى كنت أزالم أربعة من أبناء الأسرة العلوية لمدة خمسة سنوات كاملة كنا فيها كالأخوة الأوفياء ولم يكن يترك أحدنا أقرانه إلا لينهل من بحار العلم والمعرفة.

وضغط شريف على آخر كلمتين لما تحتويه من مغزى أراد إيصاله للباشا الذى تلقى رسالة شريف جيداً وفهم مغزاها وما تحتويه من تعريض بوالده الوالى الذى لم ينل قسطاً مثلهم من التعليم الحديث فاقرب إلهامى من شريف ببطاء ثم مال عليه وهو يقول فى غضبٍ مكتوم: ليسوا سواء .. أبناء الأسرة العلوية ليسوا سواء.

واستدار منفعلًا بغضب وانصرف على حين ارتسمت ابتسامة سخرية على شفاه شريف وهو يتابعه حتى غاب من أمام عينيه.

انتهت مراسم الحفل وانصرف المدعوين وانتشر خدم القصر يقومون بأعمال التنظيف وإزالة المخلفات الناتجة عن الحفل .. وبداخل أروقة قلعة الجبل وبإحدى غرفها المغلقة جلس طاهر بك منتظرًا قدوم الوالى واخذ يُمنى نفسه بالمكافآت المجزية على ما قدمه من أعمال تخدم مصالح الوالى وتحقق مراده، وما لبث برهة حتى فتح الباب ودلف عباس باشا على عتبته فوقف طاهر محيياً وهو يقول: حمداً لله على سلامتكم يا جناب ال... ..

لم يممهه عباس حتى يكمل عبارته بل انقض عليه وأخذ بتلايبه وهو يصيح به فى غضب شديد: ماذا فعلت فى غيايى يا ملعون؟ ماذا فعلت يا سفاح؟ سأقتلك بيدي هاتين قصاصاً لما سفكته فى غيايى من دماء.

تراجع طاهر وهو يقول وقد حاكى وجهه وجوه الموتى من الشحوب: الرحمة يا أفندينا الرحمة .. إننى لم أفعل شيئاً بخلاف ما أمرتمونا به .. فلم يمس رجالى أى فرد من أفراد الأسرة العلوية بسوء .. وكل ما فعلناه هو إرهابهم وإصابتهم بالهلع والخوف.

ضغط عباس على عنقه أكثر وهو يصيح: لقد كادت زينب هانم وزوجها أن يلقوا حتفهم حرقاً لولا نجاتهم فى اللحظات الأخيرة بمعجزة قبل أن تحرق النيران القصر بأكمله .. وتلك المذبحة التى اقترفها رجالك فى قصر نازلى هانم .. تقتلوا كل من بالقصر من حرس وخدم وتريقوا نهرًا من الدماء يا سفاحين.

طاهر وقد احتقن وجهه من الاختناق: لقد فعنا هذا لندخل الرعب في قلب الهانم ونشعرها بأنها ليست بعيدة عن الموت إذا ما خالفت أوامركم .. وذلك دون أن يمسه رجالى بسوء .. أرجوك يا أفندينا إننى أكاد أختنق .

كاد عباس أن يقتله خنقًا إلا أنه لم يلبث أن ترك عنقه مرة واحدة فشهق طاهر وهو يملأ رئتيه بالهواء في نهم وهو لا يكاد يصدق نجاته .. في حين سقط الوالى على أقرب مقعد وأخذ يضرب بكفه على راحته وهو يقول بأسى: كيف أقابل ربي وفي رقبتة وزر هذه الدماء التي سفكت ظلمًا وعدوانًا؟ .. ماذا أقول له يوم الموقف العظيم؟

قال له طاهر وهو يتحسس رقبتة في ألم: هون عليك يا مولانا فللك حربٍ ضحايا .. ويكفى أن مرادكم قد تحقق وغرسكم قد أثمر أكله .. فيوسف كامل بك قرر الرحيل للأستانة كذلك فعلت نازلى هانم وهم الآن يستقرون بقصر الأمير محمد عبدالحليم لحين تحديد موعد سفرهم.

رفع عباس وجهه وقد امتلأت عيناه بالدموع وهو يقول: ليس بهذا الثمن الباهظ من الأرواح التي أزهقت .. لقد كانت جل غايتنا أن نبعدهم عن التدخل في شؤون البلاد ونحكم وفق مراد الله وليس وفق هواهم المتفرنج.

أسرع طاهر قائلاً بمدهانة: وقد علم الله نبل غايتكم فحقق مرادكم وأعانكم على من ينازعوكم ملككم ويشارككم حركم .

عباس وقد تذكر فقال بحدة: و ما دخل سليمان باشا يا ملعون أكان ضمن ما رسمته لك من أهداف؟

ظاهر في ارتباك: والله يا أفندينا ليس لي من الأمر شيء .. ولكن رجالى قد أصبروا على أن يكون ضمن الأهداف المطلوبة وأقسموا بأنهم لا يمثلون بتنفيذ الأوامر إلا وهو ضمن خطهم .. وذلك لأن الباشا يعتبر حجر عثرة في سبيل دخول الأرئوود إلى صفوف الجيش ويزكى عليهم أبناء الفلاحين ويدعم منزلتهم .. فكان لزامًا علينا إزاحته من طريقنا لتحقيق الهدف المنشود فنرجع إلى سابق عهدنا ونستعيد سطوتنا على هؤلاء الفلاحين الأوباش.

نطق تلك العبارات الأخيرة وعيناه تلتمعان في شراسةٍ وجشعٍ جليين فحدق الوالى في وجهه برهة مما جعل ظاهر يتراجع بمداهنة قائلاً: ولقد أصبرت عليهم وأخذت عليهم الأيمان ألا يقتلوا الباشا سليمان .. وأن يكون كل بغيتهم أن يحدثوا به إصابة تعوقه عن القيام بمهام وظيفته فيؤثر التقاعد ويترك منصبه.

ثم استطرد بمقتٍ شديد: ولا أعلم من أين انشقت الأرض وخرج منها هذا الضابط كأنه الشيطان .. فجندل وقتل من الرجال ما أفسد المهمة ولولا انشغاله في إصابة الباشا لفُضح أمرنا فما أن انصرف حتى رجع الفتية وحملوا زملائهم وأخلوا الموقع من أى أثر يدل على هويتهم ولأذوا بالفرار.

عباس في شماتةٍ واضحة: أتعلم يا بك لقد رقيننا هذا الشاب اليوم نظير فعله وبعدهما استمعت منك عن ما فعله .. سنمنحه نوط الشجاعة بعدما لطخ أنوفكم في التراب وحده وأذاكم مرارة الانكسار .. بل أقسم أن أمنحه البكاوية نظير ما فعل بكم.

ظاهر في خزي: أتشمت بنا يا مولانا ونحن عبيدك المؤتمرون بأمرك .

عباس بغضب: حاشا لله يا بك أن نكون قد أمرناكم بإقامة تلك الأتهار
من الدماء.

ظاهر في انكسار مصطنع: يشفع لنا عندكم يا أفندينا أننا كنا
وسنكون سيفكم ودرعكم في وجه أعدائكم .. لا نرفع سيوفنا إلا بأمركم
والزود عن ملككم .. ولا نطلب منكم إلا الرضا والقبول والفوز بعطفكم.

عباس وهو ينهض منهياً للقاء: يالك من مراوغٍ ملعون .. لا نريد أن
نرى وجهك القبيح في الأيام القادمة دون أن أستدعيك وحادار من أى تهور
يصدر من أفراد عشيرتك بالأيام القادمة فليس لكم عندي من شفيعٍ ولا
ناصر .. فلتحذروا عضبي يا بك .

جلس عباس باشا على طاولةٍ ممتلئةٍ بالفاكهة في حين جلست بجواره
برلانته قادين تقطع شرائح التفاح بسكينٍ رفيعٍ وهي تقول: إذن فلقد كانت
زيارتك للباب العالی مثمرة يا مولاي.

عباس: إلى أقصى درجة يا قمرى فلقد فزت بالحظوة عند مولانا
السلطان ونزلت في نفسه منزلة الرضا .. كما طرحت عليه فكرة توريث
الحكم في مصر من بعدى لولدى الأمير إلهامى وأظن بأن سهمى قد أصاب
هدفه وحظيت ببعض تقبله للأمر.

برلانته وهي تضع قطعة التفاح في فم الباشا: إن الفوز برضا الباب
العالی لخطوة هامة في تدعيم أواصر ملككم بالبلاد .. أما بالنسبة للأمر
الثانى فليس مجرد تقبل الأمر يكفى بل يجب أن تتخذ الإجراءات اللازمة
لتحقيق ذلك.

عباس: كيف لنا بذلك والسلطان هو الذى أبرم فرمان 19 إبريل
القاضى بتوارث الحكم بين أكبر أبناء العائلة الذكور .. فكيف السبيل
لإلغاء فرماناً قد أبرمه السلطان؟

برلانته: بأن يلغيه السلطان بنفسه .. فيصدر فرماناً آخر يقضى فيه
بحصر توارث الحكم البلاد بين ذريتك.

عباس: يبقى السؤال يا برلانته كيف السبيل إلى ذلك؟

برلانته وهى تضع يدها على كتف الباشا بدلال: عندى اقتراح إذا
سمح لى مولاي يحقق المراد وينجز المأمول.

عباس فى لهفة: تحدثى يا برلانته ما هو هذا الاقتراح؟

برلانته: إن سمو الأمير إلهامى وسيم الطلعة حسن الهيئة يجيد
الفروسية وشعر الفصحى وله من الصفات ما قد يزكيه عند مولانا
السلطان ويعضد مقترحكم بجعل ولاية البلاد فى ذريتك.

عباس وهو يفكر فى الأمر: إن ولدنا الأمير ما شاء الله وضاء الوجه زينة
فتيان العائلة أنشأناه على حب الإسلام والخلافة وبغض الإفرنج وهو
لعمري ما قد يعظمه فى نفس السلطان.

ثم التفت إلى برلانته قائلاً وقد التمعت عيناه: لا حرمنى الله من رأيك
السديد يا قمرى.

وتابع فى حماس: فليذهب ولدنا إلى السلطان ويستميل قلبه .. ومن
ناحية أخرى نرى ما سيفعل الإنجليز فى هذا الأمر كما وعدوا على لسان
المسترمورى.

برلانته: تبقى لدى سموكم معضلة العائلة ومضايقاتها.

عباس مشيحًا بيده: لا لا إن تلك المشكلة قد انتهت وكفانا الله شرهم .. فإن ما وقع لهم أثناء سفرنا من حوادث دفعهم لاعتزام الهجرة للأستانة وأراحنا من مشكلتهم نهائيًا.

برلانته: اسمح لى يا مليكى أن أختلف معكم فى هذا الأمر .. فسفرهم سيزيد من ضررهم أكثر.

عباس متعجبًا: كيف ذلك؟

برلانته: إن سفرهم للأستانة سيجعلهم بمقربةٍ من الباب العالى وهو ما يمكن لهم من نقض غزلكم ويقوى شوكتهم ويجعل تأثيرهم أكبر .. أما وجودهم هنا بالمحروسة يجعل خطواتهم أمام ناظريكم مما يمكن لكم السيطرة على الأعيهم واتقاء شرورهم.

عباس متجهمًا: وماذا نفعل للحيلولة دون ذلك؟ لقد عزموا السفر وبدأوا ترتيبات الهجرة.

برلانته: يجب أن تحتوهم يا مولاي وتخفص لهم جناحكم وتؤمنهم على أنفسهم وكنوزهم حتى يأمنوا جنابكم ويخضعوا لهواكم فينزلوا عن عزمهم الذى اعتزموه.

عباس: سيكون هذا كبيرًا على نفسنا المتألمة من تعاليمهم وبغيمهم .. ولكن بكلامك من الواجهة ما يجعلنا نفكر بالعمل به.

ثم قبض يده قائلاً في مقتب شديد: وذلك لحين إحكام قبضتنا عليهم واقتناصهم.

في صبيحة اليوم التالي وبداخل بهو قصر الأمير عبدالحليم بشيرا حيث أضحى جُلّ أبناء الأسره العلوية مجتمعين وقد أخذوا يتحدثون في ترتيبات سفرهم إلى الأستانة وكيفية إقامتهم بها وبينما هم في ما يشغلهم إذ أقبل عليهم عباس باشا ممتطيًا صهوة جواده متخليًا عن حرسه خارج أسوار القصر وما أن دنا من مجلسهم حتى قامت نازلى هانم وتركت المكان ولم يخف ذلك على الباشا الذى نزل من على جواده وحياهم قائلاً: السلام عليكم أبناء عائلتنا .. لقد أصررنا على لقائكم فور علمنا بما حدث لكم في غيابنا ونحن بسفرنا عند مولانا السلطان .. وعزمنا على أن نأتى بأنفسنا للاطمئنان عليكم فردًا فردًا ولم نرد مجيئكم إلى القلعة حتى لا نشق عليكم لكن يبدو أن بينكم من لا يريد لقائنا.

أشار له سعيد باشا قائلاً: تفضل يا عباس باشا .. نشكر لك اهتمامك بشؤوننا.

جلس عباس وهو يقول: كيف حالك يا سعيد باشا .. ألا زلت مصرًا على الإقامة في قصر الأمير عبدالحليم مكتفيًا بإطلاعنا على ما فاتنا وقت السفره تاركًا مكانك الطبيعى لدينا بالقلعة؟

سعيد: لم يكن مكان إقامتى قصر أخينا الأمير عبدالحليم ولكنه كان قصر أختنا نازلى هانم إلا أن ما وقع من حوادث مفاجئة قد ألجانا إلى الانتقال هنا مؤقتًا .. حتى يحين موعد عودتنا للإسكندرية ومباشرة أعمالنا هناك.

عباس: على كُلي لا تترك المحروسة قبل استكمال التحقيقات التي بدأتها فيما وقع من أحداث.

سعيد: كل التحقيقات التي بدأتها لم تسفر عن أى خيط يصل بنا إلى المجرمين الذين ارتكبوا تلك المجازر.

عباس: سنعيد التحقيقات ثانية يا باشا وستكون تحت إشرافنا الشخصى وسنكشف اللثام عن من اقترف هذا الجرم فى حق أبناء عائلتنا الشريفة وسنعاقبه على جرمه .

هنا تحدث إسماعيل ساخراً: هل حقًا لا تعلم من اقترف تلك الجرائم يا باشا؟

عباس بحدة: ماذا تقصد من سؤالك هذا يا أمير؟ أوضح كلامك دون موارد.

إسماعيل محتدًا هو الآخر: ابحث عن المستفيد يا باشا لتصل إلى المجرم الحقيقى .. فما وقع من جرائم ليس له إلا مستفيد واحد.

عباس ساخراً: ومن هو هذا المستفيد أيها الأمير المحنك؟

إسماعيل ببرود: سيكشف عنه ما هو مقبل من أيام .. وإن غدًا لناظره قريب.

عباس بغضب: الأمر لا يحتمل عبث الأطفال ولا تنجيم المرجفين .. أريد أسماء واضحة من يملك معلومات تساعدنا على تحقيق العدالة فليقدمها وأقسم أن أقطع رأس المجرمين بيدي هاتين ومن لا يعى ما يقول فليصمت خيرًا له.

أشار مصطفى فاضل بإصبعه السبابة قائلاً: ومن ذا يشكك في عدل أفتدينا الذي ينعم في ظل عدله القطر المصري كله .. وكفانا أنكم فور سفركم للأستانة تكالب علينا المتآمرون والمعتدون ولم نجد بالبلاد من ناصرٍ ولا معين.

كان كلامه يحوى في ثناياه تعريضاً بعمه سعيد والذي وقعت الجرائم أثناء توليه مسؤولية البلاد مما جعل إسماعيل يفعل غضباً وهو يقول: فلتستحي مما يتفوه به لسانك يا ابن القائد إبراهيم وتحدث ببعض الرجولة .. ممن تنتظر النصر والإعانة الست رجلاً وبوجهك شارب تتفنن في تزيينه وإطالته على وجنتيك المكتنزتين وخذها منى صريحة يا ابن أبي لن تضام عائلتنا وأبنائها على وجه البسيطة يحملون سلاحهم بوجه المعتدين والمتآمرين.

احتقن وجه مصطفى فاضل وَهَمَّ بالرد على أخيه لولا تدخل أخوهم الأكبر أحمد رفعت قائلاً بصرامة: فليلزم كل منكم حده وتحدثوا بما يليق بأمرء من الأسرة العلوية.

والتفت إلى عباس قائلاً: نعتذر منكم جناب الوالى على ما بدر من الأمراء فأنتم تقدرون حمية الشباب.

عباس: ما جئت اليوم لمشاهدة مهاترات الصبيان ولكنى جئت للاطمئنان على أحوالكم.

والتفت إلى يوسف كامل بك الذى كان يجلس معهم وقد بدا على وجهه شدة الحزن فقال له عباس: لِمَ تتجنب مشاركتنا الحديث يا يوسف بك .. بل أكاد أجزم أنك تتجنب النظر إلينا ونحن ما قدمنا إلا للاطمئنان على حالكم أنت والعمة زينب باشا .

قال يوسف بصوتٍ حزين: أشكر لكم اهتمامكم يا باشا.

عباس: لقد علمنا بأمر عزمكم السفر للأستانة ولكننا جننا اليوم لنعلمك برغبتنا في بقاءك بالمحروسة ولك منا كل الترحاب .. ونعدك بأن ما ارتُكِبَ في حقك أنت والعمة باشا لن يتكرر ما دنا على ظهر البسيطة ونأمل أن يلقي عرضنا منك القبول.

نظر إليه يوسف ملياً قبل أن يقول كأنما يتحدث لنفسه وقد سرح فكره بعيداً: عندما التقيت بمحمد على باشا لأول مرة كنت موظفاً صغيراً بالديوان .. ولم يمنعه منصبه الكبير من الحديث إلى موظف صغير مثلى والبشاشة في وجهه .. مما جرأني على التحدث إليه بحرية حول معوقات العمل داخل الديوان واستمع إليّ الباشا جيداً ثم انصرف ولم يعقب .. وقد أحسست يومها بأنى قد تجاوزت حدودى وتفوهت بما لا يجوز .. وبعد يومين جائني مبعوث من القلعة يستدعيني للمثول بين يدي الوالى.

وابتسم يوسف وهو يكمل: يومها ظننت بأنى مساق إلى حتفى وأخذت ضربات قلبى تتزايد ويعلو صوتها على صوت تدريبات الجند بصحن القلعة .. وما أن دخلت على الباشا حتى نظر لوجهى ففطن لما أعانيه من خوفٍ ورهبة فضحك بصوتٍ عالٍ وقال لى (أوتظن يا أفندى أننا مُهدِرُوا كفاءةً إداريةً عظيمةً مثلك إنك منذ اليوم المسؤول الأول عن ديوان حضرتنا كما أنعمنا عليك بالبكاوية حتى يتناسب وضعك مع مقامك الجديد) ومن يومها ولم أفترق عنه إلا لماماً حتى أثناء سفره للخارج كان يصحبنى معه ويقدمنى للملوك والسلاطين بلقب يوسف ولدى حتى أنعم على الباشا مرةً أخرى فزوجنى بابنته .. معلوم أنى لم أكن من رجال الحرب والضرب لكنى كنت موظفاً مخلصاً أتقن عملى خدمت بالمحروسة وتزوجت بها وكنت أملُ أن أمضى حياتى بها.

ثم استطرد وهو ينظر إلى عباس قائلاً: لكن بعد ما وقع لى فيها من أحداث وأنا أشعر بالغبرة وتعصر قلبى وحشة مُقبِضَةً لى نزول عنى إلا بالهجرة عن البلاد.

كان لكلام يوسف بك وقعاً مؤثراً على كل الموجودين .. فساد الصمت لحظاتٍ طوال حتى قطعه عباس قائلاً: لعلكم لاحظتم أننى تركت حرسى خارج أسوار القصر وجئتم منفرداً لأحدثكم لى كوالى البلاد ولكن كفرد من أفراد عائلتكم .. لقد اختلفنا كثيراً فى الأيام السابقة وتقاذفتنا الأهواء والرغبات المتضاربة وقد قلتم وقلت وفعلتم وفعلت وانتصر كلُّ منا لشيطان نفسه.

ثم وقف قائلاً: وها أنا ذا أقف بينكم عباس حلمى بن طوسون أمد لكم يدى لنبدأ معاً عهداً جديداً .. لكم فيه منا الرعاية والأمان .. لا يضام أحد منكم إلا بجرم اقترفه ولا نأخذ منكم مال إلا بحقه .. عليكم ما على أهل البلاد ولكم ما لهم .. هذا لزاماً علينا نلقى به الله جل فى علاه.

كان وعداً صريحاً من الباشا وكلاماً واضحاً بعث أملاً داعب أذهان الحضور للحظات .. قطعها اندفاع نازلى هانم صائحة بكل غضبها: لعلك تظن أننا من الغباء كى نصدق وعودك الكاذبة وننسى أفعالك الملتوية السابقة .. يا باشا إن وعودك هباءً منثوراً وكلامك لا يكاد يتجاوز أثره حنجرتك .. كيف تأمل أن يصدقك اليوم من كدت تقتله بالأمس؟ كيف تحاول لم شمل العائلة وإننت لم ترع صلة قبرى ولا رحم؟ بل كيف تقف الآن على قدميك وكاهلك محمل بدماء الأبرياء؟

صاح عباس باشا وقد احمرت عيناه من الغضب: انظرى لى يتفوه به لسانك يا هانم قبل أن نحاسبك على افتراءك .. كيف تجرؤين على أن

تخاطبينا بتلك الوقاحة يا غافلة .. أقسم أن أحاسبك على كل كلمة
تكلمت بها يا سلي.....

عباس باشا .

نطق بها سعيد باشا صائحًا بغضب وتابع قائلاً: ما هكذا تُخاطب ابنة
محمد على باشا.

وقف الحاضرون جميعًا وبات جليًا أن الأمر على وشك الانفجار فأشار
إلهم عباس باشا وهو ينتفض من الغضب: ما جئكم اليوم راجيًا ولا
متوسلاً وإنما رغبة في مصالحةٍ ضننتم بها على أنفسكم .. وستندمون على
إهداركم لتلك الفرصة.. ستندمون أشد الندم.

وانطلق مغادرًا القصر تاركًا خلفه غضب وكره متأججين.

جلس شريف على مقعدٍ وثيرٍ داخل صالون سليمان باشا وقد اعتراه
ارتباكٌ شديد وتصعب العرق من جبينه بغزارة في حين جلس بجانبه كل
من صديقيه أحمد رفعت وإسماعيل الذي أخذ يتغامز على شريف قائلاً:
من يراك الآن لا يعتقد أنك ذلك الضابط المغوار الذي تتحدث عنه
المحروسة كلها بل تلميذ خائب يذهب به للعقاب خانة.

جز شريف على نواجزه من الغيظ وهو يقول: اسمع يا إسماعيل الأمر
لا يحتمل مثل هزرك هذا فلا تجعلني أندم على اصطحابك معي اليوم .

عَلَّقَ أحمد رفعت برصانة: اترك الرجل فكفاه ما يعانيه الآن فلقد
جئنا اليوم لنسأله ولم نأت لزيد من إرباكه.

ثم التفت إلى شريف قائلاً: وأنت يا بك لا ينبغي لمن هو في مقامك أن يكون في مثل هذا الارتباك.

شريف: أنت لا تعلم مدى صرامة الباشا إننا بالمعسكر لا نكاد نقيم وجوهنا في وجهه من هيبة مقامه.

أحمد مشجعاً: اثبت يا رجل فإنك الآن خارج المعسكر.. فلا تثقل على نفسك فيزيد ارتباكك.

نهض إسماعيل قائلاً: اصمتا الآن فالباشا قادمٌ علينا.

نهض الحضور لاستقبال الباشا الذي رحب بهم قائلاً: مرجباً بالأكرمين أبناء الأكرمين لكم تسعدني رؤيتكما التي تذكرني بصديقي القائد إبراهيم وصولاتنا معاً وجولاتنا أيام المحاربة.

وسلم على شريف وهو يقول ببعض الصرامة: أهلا بالصاغ شريف أنتهت نوبتك أم تركتها لأحد زملائك حتى تنعم بصحبة الأمراء والسمير معهم متناسياً مهام عملك.

خرج صوت شريف مختنقاً موشياً بما بداخله: أنتم تعلمون يا جناب الباشا أنني ما فرطت قط في واجبات عملي منذ إلحاقى بالحرس الخصوصي لحضرتكم ولكنني اليوم في عطلة رسمية .

هز سليمان باشا رأسه متفهماً ثم بدأ في الاطمئنان على أحوال أسر الأمراء وكاد يخوض من جديد في أحاديث الذكريات إلى أن تدخل أحمد رفعت قائلاً: إننا نعلم مدى الصداقة التي كانت بينكم وبين والدنا المرحوم وهو ما شجعنا اليوم للمجيء إليكم من أجل مطلب نتمنى من جنابكم ألا تردنا عنه خائبين.

سليمان باشا: معاذ الله يا أبنائي واسمحووا لي بمخاطبتكم بذلك فأنتم في معزة ابنتي فريال بالضبط.

ابتسم إسماعيل وهو ينظر بخبث ناحية شريف فور نطق الباشا باسم ابنته فزاد ارتباكاه وكاد يقع من مقعده الذي كان يجلس على أطرافه من شدة توتره .. في حين تابع أحمد رفعت قائلاً: بل نشكركم على ذلك ونبادلكم شعوركم النبيل بالمثل يا باشا ولقد اختصرتم علينا الكثير من المقدمات بكلامكم هذا .. ولندخل في الأمر مباشرة حتى لا نطيل على حضرتكم.

ثم نظر إلى شريف قائلاً: لقد خبرنا شريف في سفرنا بالبعثة مدة خمسة أعوام قضيناها بفرنسا والمرء لا يبرز معدنه الأصيل إلا بعيداً عن موطنه .. حيث تسقط الأقنعة ويتعامل كلُّ على طبيعته دون حذر من رقابة أهلٍ أو مجتمع .. وأصدقكم القول إن شريف كان مثلاً للطالب المجتهد الذي لا يشغله عن دروسه لهوٌ ولا نصب.

تدخل إسماعيل بالحديث قائلاً: نعم يا باشا ففرنسا بلد الحسن و الجمال إلا أن صاحبنا كان كالعبد الخصى لا تؤثر فيه الغيد الحسان ولا يهره شدو القيان لا يعرف طريقاً لحانةٍ ولا يشترك في نزوات أقرانه من المسكن للمدرسة ومن المدرسة للمسكن.

تمتم شريف ببعض كلمات السباب في خفوت وهو يفرك أصابعه من شدة الارتباك والغیظ في حين نظر له أخوه أحمد رفعت نظرة عتاب وهو يكمل: وذلك يرجع كما لا يخفى على حضرتكم إلى أصله النبيل .. فوالده كان قاضى القضاة كما أن جدنا وأبينا الراحلين قد شملاه برعايتهما والتمسا فيه النجابة من صغره .. فنشأ كأخ لنا لا يكاد يميزه الناظر بين

أبناء عائلتنا من شدة ملازمتنا له وملازمته لنا .. كما مئى عن قريب بترقية استثنائية وأصبح صاعاً متخطياً أقرانه بفضل رعايتكم له ولجده واجتهاده .. كما أنعم عليه الوالى بالبكاوية وهى حظوه لا ينالها من هو فى حدائة سنة .. وقد جنناكم اليوم نطلب له إحساناً وإنعاماً جديداً.

قال سليمان باشا وهو ينظر ناحية شريف: أرجوا ألا يكون فى مطلبكم ما يميزه عن أقرانه فمنذ تولينا منصبنا ولم نحابى أحداً سواءً لقرابةٍ من أميرٍ أو والٍ أو حتى سلطان..

أسرع أحمد رفعت قائلاً: يا باشا إن طلبه بعيداً عن الجندية والجيش .. إنه يطلب يد ابنتكم صاحبه الصون والعفاف.

رفع سليمان باشا حاجبية مندهشاً وقال بالفرنسية: أوه يا إلهى.

ثم قتل طرف شاربه وهو يقول: إذن فالأمر كذلك .. وأنا أحسب توددك إلىّ وكثره عيادتك لى وقت إصابتى تقديراً من ضابطٍ لقائه .

أسرع شريف قائلاً: إن إعجابى بكم يا باشا لا يشوبه شائبة ويشهد الله أنى قد اتخذت من شخصكم مثلاً أقتدى به فى حياتى.

وأكمل وهو ينظر من جديد إلى موضع قدميه حياء: كما أنى عندما رأيت كريمتكم أول مرة لم أكن أعلم أنها ابنتكم لكن القدر كان كريماً معى وجمع لى الحسنين قائداً قدوة وأملٌ أنشد قربه.

نظر له سليمان باشا قائلاً بصرامةٍ أبداها ولم تكن صريحةً بداخله: رأيتها أول مرة .. لعلك تحدث نفسك بأن نشأتى بفرنسا قد جعلت منى خواجه متفرنجا على رأى أولاد البلد هنا بل لك أن تعلم أن إقامتى فى مصر واعتناقى دين الإسلام وزواجى من بنات المحروسة قد مرعلىّ دون أن

يترك أثره بداخلي .. إذا فكرت بذلك فأنت مخطئٌ لا محالة .. إن هذا البلد العظيم وهذا الدين القويم لقادرين على إنشاء الإنسان نشأً آخر ماحين كل ما قبلهما من حياةٍ باعثين للحياةِ إنسانًا جديدًا ينظر للعالم بمنظوريهما ويسير في حياته وفق مراديهما.

أطلت نظرات الإعجاب من إسماعيل لسليمان باشا في حين قال أحمد رفعت: حقًا يا جناب الباشا لقد حدثنا شريف كثيرًا عن شخصكم العظيم .. ولكن حقًا ليس من سمع كمن رأى.

شبك الباشا أصابع يديه وهو يقول: لا تبالغ يا ولدى فمن يستحق الإعجاب حقيقة هو هذا الدين وتلك البلاد التي جعلت منا ما يهركم الآن.

ثم تابع ببعض الحزم: سننظر في طلبك يا حضرة الصاغ ولتمهلنا بعض الوقت نستخبر فيه المولى ونتشاور مع ابنتنا وسنوافيك بردنا في هذا الأمر بعد دراسةٍ وروية.

ومضى يحادثهم في أحاديث الماضي المحببة إلى قلبه تاركًا شريف في بحر متلاطم من الخوف والرجاء.

وقف عباس باشا أمام خارطةٍ كبيرةٍ تمثل القطر المصري ووقف إلى جواره كل من أحمد باشا يكن رئيس الديوان و حسن باشا المنسترلى محافظ القاهرة وأحمد باشا المنكلى ناظر الجهادية حيث أشار لهم عباس قائلاً: لا يخفى عليكم ما تعانيه البلاد في الآونة الأخيرة من الضعف الأمني حيث انتشرت أعمال اللصوصية والبلطجة وقطع الطريق على المسافرين وعابري السبيل .. وهو ما لا يتفق مع ما نرومه للبلاد في عهدنا من أمنٍ

وأمانٍ للأهلين في ربوع القطر المصرى .. لذا فقد ارتأينا اتخاذ بعض الإجراءات لتحقيق هذا الأمر .. فأنت يا حسن باشا ستكون مهمتك استدعاء كل رؤوس القبائل والعربان في سيناء والبادية وتعمل على التوصل معهم إلى اتفاق يلزمهم بالتعاون معنا في ضبط الخارجين على النظام وعدم تقديم أى مساعدةٍ لهم فضلاً عن إيوائهم والتستر عليهم .. ولتستعد يا أحمد يكن باشا لعقد الديوان تحت رئاستنا وبحضور هؤلاء العربان ورؤوس القبائل لنستمع إلى مطالبهم وما يأملوه منا ولنعمل على تذليل ما يواجههم من عقبات حتى نضمن ولائهم لنا أما أنت يا أحمد منكلى باشا فلتجتمع مع سليمان باشا قائد الجيش ليرشح لك مجموعة من جنوده الأكفاء ليكونوا اللبنة التى ستنتشر في ربوع البلاد لتحقيق الأمن الداخلى وأقترح بتسميتها "بفرقه الشاوشية" هذا هو اجتهادى فى تلك المسألة هل لكم يا سادة أى مقترحات تضيفونها على ما تقدم.

عَلَّقَ كل من محافظ القاهرة ورئيس الديوان بالنفى فى حين قال أحمد باشا المنكلى بسخريةٍ واضحة: يبدو أن أفندينا يعز عائلته كثيراً ليقوم بكل تلك الإجراءات فور تعرضهم للتهديدات.

نظر له عباس باشا بصرامةٍ وهو يقول: إن إجراءاتنا من أجل العباد كافة يا باشا ولم أخصص أى إجراءات لأحدٍ دون أحد .. وأرجو أن يكون كلامى هذا واضحاً للجميع.

ثم التفت مخاطباً الجميع: فليقم كلُّ منكم بالمهام الموكلة إليه على الشكل المأمول وليذكر لنا التاريخ أن عهد عباس حلمى هو عهد اختفاء الشطار وقطاع الطرق .. عهد الأمن والأمان.

طرق سليمان باشا غرفة ابنته وانتظر حتى سمع صوتها يدعوه للدخول ففتح الباب ودخل إلى غرفتها فوجدها جالسة بجوار شرفة غرفتها تمسك بكتابٍ تقرأ فيه وما أن رآته حتى نهضت قائلة: تفضل يا والدى هل رحل الضيوف الذين جئنا لزيارتك؟

أجابها والدها: نعم يا ابنتي هل تعلمين من كان عندنا؟

فريال: لا يا والدى ولكني ميزت بينهم صوت الضابط شريف وأنا أشرف على إعداد المشروبات.

سليمان باشا بهدوء: وهل أصبح صوت هذا الضابط مألوفًا لديك حتى تميزي صوته من بين الحضور؟

فريال بارتباك: نعم يا والدى .. أقصد لا .. أعني لقد اعتاد على زيارتنا في الآونة الأخيرة مما جعل صوته مألوفًا لى.

سليمان باشا: هل تعلمي لِمَ جئني هؤلاء الزوار اليوم؟

فريال: لا يا والدى .. خيرًا إن شاء الله.

سليمان باشا وهو ينظر إلى عيني ابنته: لقد جئنا ليخطبوك منى يا بنيتي .. فما ردك؟

فريال: الرأى رأيك يا أبى فأنت أدرى بالضابط شريف فهو يخدم ضمن ..

سليمان باشا مقاطعًا بحزم: ومن أخبرك أننى أتكلم عن شريف؟

فريال وقد زاد ارتباكها: لقد اعتقدت أنه .. أنه ..

سليمان باشا وهو يشيح بيده: على كل حالٍ إننى أبدي تحفظى تجاه هذا الشاب.

فريال بجزعٍ جلى: ولمَ يا والدى؟ .. إننا لم نر منه إلا كل خير فيكفى إنقاذه لحياتك وشهامته ودماثة خلقه والتي خبرتها فيما مضى من أيام.

سليمان باشا: إن شريف شاب شجاع مهذب وسيكون له مستقبل مشرف ولكنه لا يرقى لمصاهرة من هى فى منزلتك.

فريال: منذ متى وأنت تقيم الناس طبقاتٍ يا أبى؟! .. كما أننا نعلم منبته الطيب النبيل فهو ابن قاضى القضاة الراحل.

سليمان باشا: أنا لا أتحدث عن حسبه و نسبه .. فالفتى من بيتٍ طيبٍ أصيل ولكنى أتحدث عن ضيق حاله وقلة ما يملك من ثروة تكفية نوائب الدهر ونوازله.

فريال: كنت أحسب أن المال لا يشغل تفكيرك يا أبى .. فكم أنفقت منه فى عملك وعلى جندك المحتاجين وإننى لأذكر والدتى رحمها الله حين كانت تعاتبك على كثرة تبهذيرك فكنت تجيبها بأنك تتخذ المال وسيلة تسعد بها المحتاجين فما بالك اليوم تهتم بالأموال بعدما كنت تزدرىها؟!

سليمان: إن الأمر لا يتعلق بى ولا بمبادئى فى الحياة إنما يتعلق بحياتك أنتِ فقد شببت على حياة الدعة والرفاهية وأخشى عليك من شظف العيش وقلة ذات اليد.

فريال: إننى ابنة سليمان باشا الفرنساوى قائد الجيوش المغوار الذى تتحاكى بسيرته الأنام فكيف أكون بمثل هذا الضعف أمام صغائر الأمور والتي تتضائل فى سبيلها حياة تملؤها المودة والرحمة .. أما إذا كنت ترى

في طباع شريف ما يشين أو يدل على سوء خلقه فحينها لا أملك إلا موافقة مرادك فأنت نافذ البصيرة تملك من الخبرة ما تميز به الغث من الثمين.

نظر لها سليمان باشا ملياً ثم ابتسم وهو يربت على خدها بحنان ويقول: يبدو أنك قد كبرت يا فريال ولم تعودى تلك البنت الصغيره والتي لا تجيد نطق كلمتين معاً .. كما يبدو أن هذا الفتى الصعلوك كانت أمه راضية عنه حتى تعجب به أميرة باهرة الحسن مثلك .. سأبلغه بقبولي له زوجاً لك.

وارتسم على ثغر فريال أعذب الابتسامات.

حظى أفراد الأسرة العلوية بالحفاوة والترحاب فور وصولهم إلى إسطنبول خاصة يوسف بك كامل الذي كانت تسبقه سيرته الحسنة وعلاقاته الجيدة التي دعمت دخوله في سلك الوظائف الرفيعة بالدولة العثمانية .. وفي أمسية بديعة حيث هبت النسيمات العلييلة والمميزة لنهر البسفور من شباك حجرة مكتب يوسف بك داخل مسكنه البسيط حيث أخذ يكتب منهمكاً في بضعة وريقات أمامه مما جعله لا يشعر بدخول زينب هانم إلى الحجرة ووقوفها بجانبه تتطلع لما يخطه بيده حتى ابتسمت قائلة: ما الذي يشغل بالك ويأخذك منى في تلك الأمسية الجميلة؟

تطلع لها يوسف وهو يبتسم قائلاً: إن نسيمات البسفور قد ملأنتى بالنشوة والأمل مما جعلنى أكمل ذلك الكتاب الذى كنت قد بدأته فى مصر ولم أكمله؟

زينب: كتاب كمال الكمال لتاريخ الأمم .. إنه لعمل هام أبشرك بأنه سيكون تحفة زمانه وسينال إعجاب قارئيه.

يوسف: بشرك الله بالخير يا زوجتي الحبيبة وأرجو أن يكون فيه الكفاية للباحثين في تاريخ الأمم.

زينب: سيكون وأكثر بإذن الله .. وإنني لمتفائلةٌ خيرًا بتلك البداية الجديدة التي نحن على أعتابها وأشعر بأن السعادة تطل علينا من جديد بعد طول غياب.

يوسف: أحقًا تشعرين بالسعادة يا زينب بالرغم من أننا نعيش في هذا المسكن المتواضع والذي لا يرقى بحال لقصرنا بالأزبكية.

وضعت زينب مرفقيها على منكبي زوجها قائلة: إن المكان الذي أسكن فيه بجوارك هو جنتي حتى وإن كان أصغر من هذا ألف مرة .
ابتسم يوسف قائلاً: يال نفسك النقية القنوعة يا زينب.

ونظر لها برهة في هيام ثم قال وقد تذكر: ولكن أخبريني كيف حال نازلي هانم؟ إننا لم نعد نراها كثيرًا منذ وصولنا إلى هنا.

زينب مبتسمة: إن نازلي وفور وصولها أصبحت ضيفة على صالونات قصور إسطنبول وأخذت تمارس هوايتها في أن تجمع حولها أنظار المعجبين من الرجال والنساء فمنهم من يُفتن بحسنها الباهر ومنهم من يفتن بعقلها المستنير وشخصيتها الجذابة الجريئة ولقد كونت صداقات كُثُر وكأنها ولدت ونشأت في تلك البلاد.

ابتسم يوسف قائلاً: يبدو أننا قد تأخرنا كثيرًا في المجيء إلى هنا
لنحظى بتلك الأفاق الرحبة.

زينب: والله يا يوسف لا أخفى عليك شدة كدرى بسبب تركنا مصر
والرحيل عنها ففيها نشأنا وعشنا معًا أسعد أيام حياتنا.

يوسف: أتفق معك في كل ما قلتيه ففراق مصر وأهلها يؤلمنى كالآم
فراق الروح للجسد ولكننا ما تركناها إلا مكرهين من بطش الوالى عباس
وظلمه حتى كدنا نلقى حتفنا هناك وكان لزامًا أن أتخذ قرارًا بالرحيل حتى
أطمئن على سلامتك ولو كان الأمر خاصًا بى وحدى لما تركت المحروسة إلا
جثة هامدة.

زينب: أبعد الله عنك كل شراى زوجى الحبيب .. حقًا أما أتخذت مثل
هذا القرار إلا من أجلى يا يوسف؟

يوسف: نعم يا قمرى وهل تطيب لى الحياة وأنتِ تعانين أبسط أنواع
الكدر.

زينب: ألا زلت تحببى يا يوسف بعد أن مر على زواجنا ستة أعوام
كاملة حتى مع أننى لم أنجب لك إلى الآن أى أبناء؟

يوسف وهو يتحسس وجنتى زوجته فى حنان: فى أى أبناء أفكر وانت
تملأين على جنبات حياتى فلا يوجد فى قلبى متسع لهوى سواك يا ملاكى
أتعلمين كم أحبك.. احبك أكثر مما يعيش المتنبى محبوبته إذ قال لها .

ونظر لعينها فى هيام قائلاً:

لَعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَا لَقِيَ وَلِلْحُبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مَنَّى وَمَا بَقِيَ
وَمَا كُنْتُ مَمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقُ قَلْبَهُ وَلَكِنَّ مَنْ يُبْصِرُ جَفُونَكَ يَعْشَقِي
وَبَيْنَ الرَّضَى وَالسُّخْطِ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى مَجَالٌ لِدَمْعِ الْمُقْلَةِ الْمُتَرْقِقِ
وَأَحْلَى الْهَوَى مَا شَكَّ فِي الْوَصْلِ رَبُّهُ وَفِي الْهَجْرِ فَهَوَ الدَّهْرِ يَرْجُو وَيَتَّقِي

جلس أحمد المنكلى باشا في مكتبه بنظارة الجهادية منهمكاً في عمله
مطالِعاً العديد من الأوراق المتكدسة أمامه وفجأه فتح باب مكتبه ودخل
منه إلهامى باشا فهب أحمد باشا من خلف مكتبه ليرحب به قائلاً: مرحباً
بجناب الباشا لقد شرفتمونا بزيارة مكتبى المتواضع.

إلهامى: لقد وجدت الطقس اليوم عليلاً فخرجت للتريض بجوادى في
هذا الجو الصحو فأخذنى الطريق إلى جوارك فقلت ألقى عليك السلام.

أحمد: إنه لمن دواعى فخري أن أشغل اهتمامكم يا باشا.

إلهامى: يا باشا إنك من رجال الدولة المحترمين .. ولكم وددت أن
أتعرف عليك عن قرب وأشعر بأننا سنكون على تفاهم تام.

أحمد: أشكر لكم شعوركم النبيل يا جناب الباشا وأرجو أن تجدوننى
عند حسن ظنكم.

إلهامى: أكيد يا باشا .. كيف حال العمل لديكم في نظارة الجهادية .

أحمد باشا: يسير على خير حال وفق مراد أفندينا ومرادكم يا باشا.

إلهامى: عظيم عظيم .. ماذا فعلت فى أمر أفندينا بخصوص تكوين فرقة الشاويشية ؟

أحمد: لقد جلست مع سليمان باشا وشرحت له مراد أفندينا وهو الآن ينتقى لذلك أفضل العناصر التى تقوم بأداء الوظيفة من بين أفراد الجيش على النحو الذى يرضى الباشا ويحقق مسعاه.

إلهامى: يجب أن يكون لك رأى فى اختيار الأفراد ولا تترك سليمان باشا يستأثر بالأمر وحده ولا تنس أنك المسئول أمام أفندينا إن حدث أى تقصير فلترجع بنفسك كفاءة الضباط والجنود المكلفين وتختبر جلدَهُم وتستبعد منهم من ترى فيه قصور أو ضعف.

أحمد: أعدكم بتنفيذ أوامرکم على خير وجه يا باشا.

إلهامى: إن سليمان باشا قدم الكثير من الخدمات لدولتنا العلية ولكنه الآن كبر سنه ووهن عظمه وبات من المحتم أن يستريح ويترك الأمر لرجالٍ ثقات يتميزون بالوفاء للوالى ومن يمثله.

أحمد: إننا جميعًا جند طوع بنان مولانا الوالى لا نصبو إلا للفضوز برضاه .. ورضاه من يمثله.

شابت جملة أحمد باشا الأخيرة رنة سخرية واضحة إلا أن إلهامى تجاوزها وهو يهيم بالنهوض قائلاً: هناك ضابط همام قد لفت أنظار أفندينا وأنعم عليه بالباوية كما منحه ترقية نظير جهده .. ذلك الذى قد أنقذ حياة سليمان باشا .

أحمد: تقصد جنابك الصاغ محمد شريف بك.

إلهامى مشيخًا بيده: أعتقد أنه هو .. فلتجعله على رأس إحدى الفرق
المزمع إنشائها وإرسالها إلى حدودنا الشرقية .. حيث أن شخصًا في كفاءته
سيفيد في تأمين تلك الحدود من المهربين وقاطعى الطريق.

أحمد مترددًا: ولكن يا جناب الباشا إن هذا الضابط قد أصبح صهراً
لسليمان باشا مما يجعله قد يعارض مثل هذا القرار.

إلهامى فى صرامة: يبدو أنى طرقت الباب الخاطئ يا باشا .. فلم أكن
أعلم أنك تخشى من سليمان باشا لدرجة تجعلك لا تتخذ التدابير اللازمة
لتنفيذ المهام الموكلة إليك.

أحمد مضطربًا: أبدًا يا جناب الباشا ولكن لا أخفى عليكم أن
سليمان باشا هو قائدى السابق وقد خضت تحت قيادته الكثير من
المعارك وليس معنى أن أجلس على كرسى نظارة الجهادية أنى ..

إلهامى مقاطعًا: إن عمل الجندية لا يخضع للمحسوبيات يا باشا
المهم هو أداء الوظيفة على أكمل وجه ومن الجيد أنك أوضحت وجهة
نظرك حتى نجعل الأمور فى نصابها ونُقيد لهذا المقام من يقوم بمهامه خير
قيام.

أحمد مسرعًا: لا تتعجل فى الحكم علىّ يا سمو الأمير وأنى أعدكم أن
أكون طوع بنانكم.

إلهامى: سنرى يا أحمد باشا .. سنرى.

جلس الوالى على كرسى حكمه وجلس عن يمينه أفراد ديوانه فى حين وقف أمامه المستر مورى القنصل الإنجليزى حيث قال له عباس: لقد استدعيناك اليوم يا مستر مورى لنخبرك بأننا قد وقع اختيارنا على العرض المقدم من جانبكم .. وذلك بعد الاضطلاع على التقارير المقدمة من المهندسين المتخصصين المصريين .. ومن ثم فقد منحناكم الإذن ببدء العمل فى المشروع .. وأصدرنا أوامرنا إلى حسن باشا المنسترى محافظ القاهرة للتعاون معكم وتذليل أى عقبات تقابلكم أثناء التنفيذ.

مورى: نشكر لكم ثقثكم يا جناب الوالى .. ونعدكم أننا سنعمل على تنفيذ المشروع بالدقة والموعد المحدد بأوراق المشروع وسأكتب إلى لندن أستدعى المهندسين الذين سيقومون بالإشراف على المشروع حتى يقوموا فور وصولهم بالبدء فى عملهم.

عباس مبتسماً: كنا أخبرناك أن حسن باشا هو المسؤول عن التعاون معكم إلا أنك وقد تعجلت الحديث فى الإجراءات فلتعلمن أن لدينا بعض الاعتراضات بخصوص آلية التنفيذ.

مورى: ما هى تلك الاعتراضات يا جناب الوالى؟

عباس: بخصوص المستر روبرت أستفنسن المهندس المشرف على المشروع ليس لدينا أى اعتراض ولكن على أن يكون المهندسين المساعدين له من المصريين وهناك قائمة تضم أسمائهم سيقدمها لك حسن باشا .. وسيقتصر تنفيذ المشروع على الحكومة المصرية دون الشركات الإنجليزية المطروحة من قبيلكم وسيتولى صرف كل المستحقات مصطفى باشا الخازن دار .. كما سيتولى المنكلى باشا إمدادكم بالمجندين اللازمين لتكيب القضبان الحديدية وتعبيد الطرق التى سيمر خلالها المشروع.

مورى: ولكن يا سيدى إن تكلفة المشروع كبيرة وقد تعجز ال ..

عباس بصرامة: مستر مورى نحن أعلم بإمكانات خزائننا العامرة وما تستطيع تحمله .. ولم ولن نحملها قروضاً وديوناً أجنبية تؤدى للإضرار بها فى المستقبل.

مورى: نتفهم وجهة نظركم يا جناب الوالى وسنبداً فى تنفيذ المشروع وفق مقترحاتكم الجديدة.

عباس: وليسجل رئيس ديواننا وقائع الجلسة وتاريخ تمامها حتى نذكرنا التاريخ بأننا نعد ثانى البلاد التى أنشأت خطأً للسكك الحديدية فى العالم .. انقضى الديوان.

وَهَمَّ الحضور بالخروج من الديوان إلا أن عباس باشا نادى على المستر مورى مستوقفاً وحادثه قائلاً بمداهنة واضحة: لقد نفذنا المطلوب من جانبنا يا صديقى العزيز المستر مورى وأبدينا حسن النوايا ويتبقى أن توفوا بوعدكم بخصوص مساعدتنا لدى الباب العالى لتولية ولدنا إلهامى باشا حكم البلاد.

مورى: إن ما فعلتموه اليوم يا باشا هو طفرة كبيرة فى العلاقة بين بلدينا ولتقر نفسكم عيناً فانجلترا لا تنسى أصدقائنا أبداً.

عباس باشا وهو يربت على كتف المستر مورى فى انكسار: أمل ذلك من جانبكم فلا تخذلونا يا صديقى .. ولتعلم أنك منذ اليوم مرحباً بك فى قصورنا فى أى وقتٍ تشاء وإنك لدينا من المقربين.

وابتسم المستر موري في ثقة فقد حقق هدفه الدبلوماسي المنشود
وعلى أكمل وجه.

انهمرت الدموع ساخنة من عيني فريال وهي تخاطب والدها قائلة:
شهر يا أبي مر منذ رحيل شريف إلى الآن ولم تتدخل لإنقاذه فكيف يا أبي
لا يستطيع من هو في مكانتك أن يوقف مثل هذا القرار؟!

سليمان: في واقع الأمر أننى قد استشعرت بأن أمر هذا النقل خلفه
سر خفى حيث أن شريف هو الوحيد الذى أصر أحمد باشا ناظر الجهادية
على اختياره بنفسه وألحَّ عليه مما حرك شكوكي بأن الأمر متعمدًا ولا
أعرف لذلك سببًا .. وقد حادثت شريف بهذا الخصوص لأعلم منه إن كان
هناك سابق معرفة بينه وبين أحمد باشا إلا أنه نفى ذلك وأصر على أنه
ليس لديه أية عداوات تجعل من الأمر متعمدًا .. وفي حقيقة الأمر يا بنيتي
أننى ضد كل أنواع الوساطة والمحسوية إلا أننى وقد استشعرت تعمد
هذا النقل وافتقاره إلى الحيادية فقد عزمت أن أقف ضد هذا القرار
وأمنع سريانه شأنى في ذلك كشأنى مع أيِّ من ضباطي الأكفاء .. لكن
شريف فاجأنى برفضه لتدخلى وتقبله لمهام وظيفته.

فريال بجزع: هل تريد إخبارى يا والدى أن شريف كان مصرًّا على
تنفيذ هذا القرار متعمدًا الابتعاد عن المحروسة وما بها من أهل وعلان؟

سليمان: لا تظلمى الشاب يا بنية .. إن رفض شريف لتدخلى يرجع
لنفسه الأبية التى استنكفت أن تستخدم صهرها لتحقيق مأرب من مأربها
.. وهو ما زاد من إعجابى به واطمئناتى إلى أن قرارى بمصاهرته كان قرارًا
صائبًا.

ثم تابع قائلاً: وعندي لك منه مفاجأة.

وأخرج من يده مظروفًا قدمه لها قائلاً بابتسامةٍ حنون: أول رسالة تصل منه منذ نقله كانت من نصيبك.

احمرت وجنتا فريال خجلاً وهي تتناول الرسالة من يد والدها وتفرجها مسرعة في خفر فتصعد إلى حجرتها وتغلق بابها خلفها وتقرأ الرسالة المنشودة في لهفة:

أكتب إليك خطابي من أقصى مشارق بلادنا الجميلة وعلى امتداد بصري تنتشر كتبان من الرمال لا نهاية لها .. مستمداً من دفء حبك ما يعينني على تحمل زمهرير ليالي الشتاء في قلب الصحراء مستضيئاً ببريق عينيك الزرقاوتين وسط غبشة الليل الهميم .. وأردت أن أطمئن قلبك على حالي وأعلمك بمآلي .. إنني والله الحمد والمنة في أتم صحةٍ وعافيةٍ منتشيئاً بأدائي لواجبي تجاه وطني مثلي في ذلك مثل سائر أقراني غير متميزاً عنهم بصلةٍ قربي أو مستعيناً بواسطة .. فمئذ رحيلنا من المحروسة منذ شهرٍ مضى ونحن نضرب في بقاع الأرض من منطقةٍ لأخرى حتى وصلنا إلى حدود بلادنا الشرقية .. فليثنا فترة من الزمن في عمل دؤوب قسمنا فرقتنا إلى مجموعات على رأس كل مجموعة ضابط يقيم نظامها وتبادل كل مجموعة مع نظيراتها التناوب في الحراسة .. وإنني منذ استلمت مجموعتي عملت على ترسيخ أواصر الإخاء والاحترام بين أفرادها مما سهل أماننا كثيراً من صعوبات العمل ومشاقه كما عملت على تدعيم روح التواصل و الود مع قبائل البدو والعربان بالمنطقة الذين تقبلوا مبادرتنا بالترحاب الشديد .. وحقيقة الأمر أنني لم يكن لي سابقة تعامل مع أولئك القوم إلا أنهم بهروني بعاداتهم ووفائهم لعهودهم ولاحظت شدة كبريائهم وعزة

نفوسهم فعاملتهم معاملة الند بالند وليس معاملة السيد لأتباعه ..
فقابلوا ذلك بالصدق والوفاء وأضحت مجموعتي هى همزة الوصل بين
الكتائب المنتشرة بالمنطقة وبين الأهلين .. فكانوا يرشدوننا إلى آبار المياه
الصالحة للشرب ويدعوننا إلى الولائم والمناسبات التى تزخر بها نجوعهم
وعاونونا على ضبط النظام وكانوا عيوننا على الدروب الخفية التى يلجأ
لها الأثمين وقاطعوا الطريق فانتشر الأمن فى ربوع المنطقة وحل الأمان.

هذا ما كان من أمر العمل أما ما كان من أمر نفسى فلا أخفى عليك
أنى لا أجد فى قلبى وحشة لبعدهك عنى .. وكيف أجد الوحشة ووجهك
الصباح حولى أينما أولى وجهى .. فإذا ما حل الليل تذكرت شعرك الذى
يتنافس معه فى سواده البديع .. وأقلب وجهى فى السماء فأنظر القمر
والليل محيطاً به فيتجلى أمامى وجهك الوضاء منافساً لضياء القمر
وشعرك محيطاً به .. وتتداخل الصورة لناظرى لا أدرى الليلُ محيطٌ
بوجهك أم شعرك هو الذى يحيط بالقمر .. وأنظر إلى النجوم تتلألأ فى
ظلمة السماء فيذكرنى تلالأها وضياءها بتغرك الرقيق حين تبتسمين فى
إشراقِ فتنيرى الدنيا بصفوف اللؤلؤ والألماس البراق المتلألئ بفاك .. تلك
الابتسامة التى ادفع عمرى وحاضرى وغدى وملكى ومملكى وسلطانى
وصولجانى حتى تدوم على شفتيك .. فإذا ما انقشع الليل وانبلج الصباح
أنظر إلى البحر فلا أرى إلا عيناك تفوقان البحر فى زرقته وصفائه .. فإذا
التفتُ إلى الجبال الراسيات التى تزخر بها سيناء فأتذكر أنفك الشامخ فى
رفعةٍ وكبرياء مدللاً على نبل الأصل وعراقة المنبت .. فوجهك أمام ناظرى
يَجِبُّ عنى كل الموجودات من حولى ويؤنس وحشتى ويسعد مهجتى .. ولا
ينقصنى غير خطاباتك الحبيبة فلا تضنى بها على حتى يطرب فؤادى

بكلماتك وتسعد أناملى بلمس أحرف خطها يداكِ وإلى لقاءٍ قريبٍ بإذن
الله الرابط على القلوب طاوى الأرض ومقرب البعيد.

وقف إلهامى باشا وبجواره نوبار أفندى أمام باب السلطان ينتظران
الإذن بالدخول وشرد إلهامى فى آخر حديث دار بينه وبين والده وهو يودعه
حيث قال له: يجب أن تهرهم يا ولدى بشخصك ولا تترك مناسبة أمام
السلطان إلا وتؤكد خلالها بأن قرار توريثك للحكم يصب فى الأساس فى
مصلحة الدولة العثمانية .. ولا تنس أن العثمانية قوم يحبون التبجيل
والتفخيم لشخصهم فعليك بالمغالاة فى تفخيم جناب السلطان .. لتتذكر
دائمًا أن السلطان هو أمير المؤمنين وممثل العالم الإسلامى فعليك
بالتزامك بتعاليم دينك الإسلامى وأداء مناسكك فى خشوعٍ وورعٍ بالغين.

إلهامى بضيقٍ واضح: يا ابنتِ أنت تعلم أن دينى هو حياتى وعقيدتى
دون مرءاتٍ لسلطانٍ أو غيره من البشر.

عباس باشا: بوركت يا ولدى .. أنا أعلم هذا ولكن يجب أن يكون هذا
فى علم السلطان أيضًا .. كما يجب عليك أن تؤكد للسلطان مدى انحلال
أبناء الأسرة العلوية وعدم التزامهم بتعاليم دينهم ورغبتهم الخفية فى
الانفراط عن عقد الدولة العثمانية إذا ما سنحت لهم الفرصة لذلك.

تفضلوا بالدخول على سلطان السلاطين أمير المؤمنين.

قاطع ذلك النداء الذى جهر به أغا باب السلطان حبل أفكار إلهامى
حيث أسرع بالدخول على السلطان وخلفه نوبار أفندى تتبعهم غلمان
محملين بالهدايا القيمة من مختلف الأشكال والألوان .. حيا إلهامى

السلطان وقبل الأرض بين يديه الذى ابتسم له قائلاً: ما شاء الله .. إن لعباس باشا ابنُ شابٍّ وسيمٍ المُحَيَّا .. أرجو من الله أن يكون خُلقك كما وجهك الوسيم يا باشا.

إلهامى: أمين أظال الله عمر مولانا السلطان وهش له وبش يوم لقياه وحشركم مع زمرة الأنبياء والصالحين فى علاه.

طرب السلطان من كلام إلهامى فقال: أمين .. يبدو من بيانك أن لسانك كوجهك القسيم.

ثم تابع ببعض الجديدة: فلتخبرنا يا باشا عن حال والدكم وكيف تركت رعايانا بمصر المحروسة؟

إلهامى: إن والدى يبعث لفخامتكم بعظيم التحيات ورعاياكم فى مصر يلهجون بالدعاء لبابكم العالى على عدلكم الذى ينعمون به فى ظل حكمكم الرشيد وأمنكم وأمانكم الذى يرفلون فى معيته.

عقد السلطان حاجبية قائلاً: عن أى أمنٍ وأمانٍ تتحدث يا باشا لقد لاذ بأعتابنا أفراد عائلتكم بعدما تعرضوا له من أحداث كادوا يلقون خلالها حتفهم وتحدثنى اليوم عن الأمن والأمان.

لم يفقد إلهامى رباطة جأشه وتحدث بثقةٍ قائلاً: يبدو أن هناك من زيف الحقائق حتى تظهر أمام مولانا السلطان على غير حقيقتها.

السلطان: وما هى حقيقتها يا باشا؟

إلهامى: حقيقة الأمور يا فخامة السلطان أن أبناء أسرتى وللأسف الشديد يتعاملون مع أبناء الشعب المصرى بمنتهى الصلف والكبرياء

والشعب المصرى شعبٌ أبى لا يرضى بالضييم ولا الهوان وزادت الأمور تعقيداً عندما جهر معظم أبناء العائلة بحياة التفرنج والانحلال وعدم الالتزام بتعاليم الأسلام حتى وصل ببعضهم السخرية من شعائر الدين الحنيف ولا يخفى على جنابكم أن المصريون شعبٌ متدينٌ بفطرته يحب الله ورسوله وآل بيته وأوليائه الصالحين ويقبل الجوع والفقر والظلم ولكن لا يقبل المساس بعقيدته ولقد أُنذرتناهم مغبة أفعالهم ولكن ما من مُدكرٍ.. كل هذا جعل الأمور تصل إلى ما آلت إليه.

السلطان: إذن فأنت تلقى بمسئوليه تلك الأحداث على أبناء عائلتك.

وهز رأسه قائلاً: على كل ليس هذا بالوقت المناسب للوقوف على حقيقة الأمور فأنت لم تسترح بعد من سفرك الطويل ولقد أعددنا لك ولحاشيتك الاستقبالات المناسبة مع تخصيص جناح كامل لإقامتكم.

إلهامى: نشكركم يا أمير المؤمنين على حسن استقبالننا.

السلطان: هذا حقكم بدار السلطنة .. ولا يقلقنك عدم رؤيانا فى الأيام المقبلة حيث كنا قد اعترمنا القيام برحلتنا السنوية للصيد وذلك قبل علمنا بمجيئكم فلا جعلوا ذلك يؤثر على حريتكم ولتسعدوا بأوقاتكم ولتتعاملوا كما لو كنتم بدياركم.

استأذن نوبار أفندى للكلام فأذن له السلطان فقال: يا مولاي السلطان إن إلهامى باشا لفارسٌ لا يُشَقُّ له غبار كما أنه صائدٌ ماهر فإن لم يكن هناك ما يمنع فلتنعموا عليه بعطفكم وتجعلوه ضمن مرافقيكم فى رحلتكم.

ابتسم السلطان قائلاً: هل هذا صحيح يا باشا ما تحدث به مرافقك من إجادتك لأصول الصيد والقنص؟

إلهامى: إن مرافقى يببالغ قليلاً يا مولاي؟

السلطان: لا تخفى حقيقتك بالتواضع يا باشا .. على كُليّ سنرى غداً حقيقة مواهبك فإما أن يكون مرافقك صادقاً أو العكس فنقطع له رأسه.

وقهقه ضاحكاً فتضاحك كل الحضور فيما عدا نوبار أفندى الذى ازدرد لعابه وشحب وجهه وهو يتحسس رقبتة فى رعب كبير.

خرج أحمد باشا المنكلى من عند الوالى بعدما أنهى لديه بعض الأعمال وهو فى طريق الانصراف لمح صديقه المقرب الطبيب إبراهيم باشا النبرواى خارجاً من سراى الحرملك فأسرع الخطى تجاهه وهو ينادى عليه ويصافحه فى حرارة فبادله إبراهيم باشا التحية قائلاً: مرحباً يا أحمد باشا ما تلك الفرصة السعيدة التى جمعتنى بك هذا اليوم؟

أحمد: إن من الطبيعى أن أكون دائماً فى هذا المكان فأنا ناظر الجهادية وأعمالى تُحَيِّمُ على التواجد هنا ولكن عفواً يا باشا فمعك كل الحق فى سؤالك هذا بعدما أصبحت من أصحاب الحظوة المرضى عنهم وتم تعيينك يا ابن قرية نبروه الحكيم الأول لجناب الوالى ووالدته مقام الوالدة باشا.

إبراهيم قائلاً وهو يضحك ملء فيه: ابن نبروه وبائع البطيخ السابق من فضلك .. الذى هرب خوفاً من بطش والده لتضييعه نقود حمل البطيخ الذى قدم به من نبروه ليبيعه بالعاصمة فالتحق بالأزهر الشريف وكان ضمن الطلبة المختارين للسفر إلى فرنسا لدراسة الطب فعاد أول دفعته فتم تعيينه مساعداً لكود بك حتى اختارنى أفندينا الحكيم الأول له ولأسرته .. إنه لتاريخ أفتخر به يا باشا فلقد حصلت على وظيفتى بالتعب والجد والاجتهاد وليس مثلكم يا أصحاب البديل العسكرية ترتقون لبراعتكم فى الضرب والعراك ولا يخلو الأمر من بعض التملق للرتب الأعلى.

أحمد: وكيف لا أتملقهم وهم حكام البلاد المتعجرفين الذين لا تستكين نفوسهم إلا بالمداهنة ولا يؤمن جانبهم ويتقى شرهم إلا بالتذلل لهم وإذا ما استشعروا اعتدادك بنفسك أطاحوا بك ومزقوك شرممّزق.

جذبه إبراهيم من ذراعه وهو يهمس له: أخفض صوتك يا رجل .

علق أحمد معترضاً: لا تخش شيئاً .. فما هم إلا حفنة من الأفاقين ورثوا ملكاً خلفه لهم باشا قدير ذهب مع أصحاب القبور وترك من بعده ورثة لا يمتازون بمهارةٍ فى نزالٍ أو جدارةٍ فى علم.

إبراهيم: يبدو أنك ما زلت سليط اللسان متهوراً كعهدي بك حتى بعدما توليت من المناصب أرفعها وخالطت عليه القوم بعدما كنت تجالس الرعاع.

أحمد: يا إبراهيم إنك تتعامل مع الجانب الإنسانى فى حياة أولئك القوم فتراهم بمرضهم ضعافاً متألّمين يأملون أن ينالوا شفائهم على يدك .. وهو ما جعلك بعيداً عن الجانب الأسود لحياتهم المليئة بالدسائس والكيد للأخرين أتدرى ما حدث من الأمير إلهامى قبيل سفره إلى الأستانة؟

نظر له إبراهيم متسائلاً فتابع بغضب قائلاً: لقد جائني وألقى إلي أوامره بخيلاء وتخيل ما نوع تلك الأوامر اللعينة .. كانت بخصوص ضابط نفث عليه الأمير المدلل مكانته ولم يراع مصاهرة هذا الضابط لسليمان باشا الفرنسي الذي خدم الدولة العلوية في تفاني وإخلاص على مدار عقود من الزمان ولم يرع منصبى ومكانتى بل هددنى فى مكتبى وتوعدنى إن لم أنفذ أوامره فسينالى العقاب بالاستبعاد من جنه الخلد التى نصيها لنا والده على أرض بلادنا.

إبراهيم: اهدأ يا رجل ملعون أبو من يضايقك .. على كل دعك من أولئك الظالمين واترك أمرهم لغدٍ ناظره قريب.

ثم استطرد: إن حالتك هذه ليس لها علاج إلا سهرة فى بيتى نعيد بها أمجاد زمان حيث الغناء والشراب والانسجام.

أحمد: ستظل طوال عمرك لن تتغير يا إبراهيم ابن بلد أصيل مهما بلغت بك المناصب أو مريك العمر.

إبراهيم ضاحكاً: عن أى عمر تتحدث يا رجل .. إن من يرانى بجانبك يحسبني أصغر منك بعشرين عاماً كاملة .. أقول لك حكمة .. ملعون أبو النكد.

وانطلقا يضحكان غير عالمين بأن خليل غلام الوالى قد أنصت إلي حديثهما كاملاً ووعى كل حرف مما قالوا.

انتفض إسماعيل غضبًا وهو يخاطب أخوه أحمد رفعت قائلاً: لقد تمادى الوالى فى غيِّه ولن يرتدع بعدما استسلمنا لطغيانه وتركنا له البلاد يرتع فيها فسادًا كيفما شاء.

أحمد: إننا لم نغادر البلاد بمَلِكِنَا ولكن كنا مجبرين بعدما تعرضت له أفراد عائلتنا من مخاطر.

إسماعيل: لقد كنت ضد هذا الرأى ولازلت عند كلامى من أن القوة لا يجابهها إلا القوة.

هنا تدخلت نازلى هانم قائلة: إن الأمور لا تصير بمثل هذا الاندفاع والتهور يا إسماعيل بل بالروية وحسن التدبير .. كما أن قرار هجرتنا من مصر لا يعنى أننا قد تركنا البلاد مستسلمين لعباس وولده ولكن كما قلنا من قبل إننا هنا بمقربةٍ من الباب العالى وبيعض الحنكة نستطيع التأثير على الوالى بمصر ولقد بدأنا مسعانا لذلك فور وصولنا .. فأنا وطدت علاقاتى بأعلى المستويات فى إسطنبول .. ويوسف بك دخل فى زمرة المقربين من السلطان العثمانى بعد تعيينه فى قصر طوب كابي كموظف بديوان السلطان .. وأنت يا إسماعيل ألم يعينك السلطان عضواً فى مجلس الأحكام وأنعم عليك بالبشاوية ولا تنس أنه زوجك بالوصيفة شفق نور قادين التى تحمل الآن بولدك فى أحشائها .. إننا الآن عصابة متحدين نستطيع القيام بالكثير ونحن مبتعدين عن يد الباشا الملعون.

قال إسماعيل: وهل تعتقدى أنه سيتركنا لما نحن فيه لقد بعث بولده المختال إلهامى فى أثرنا وهو الآن بصحبة السلطان يوسوس له كيفما شاء ويلقى له بالأباطيل التى تحط من قدرنا لديه.

عقب أحمد قائلاً: أتفق معك في هذه النقطة يا إسماعيل فهذا الفتى هو أكثر ما يجب أن نخشاه في تلك الآونة فهو حسن الطلعة شديد الذكاء وقد يلاقى استحساناً من السلطان وقد بات جلياً المسعى الدؤوب الذى يعمل الوالى على تحقيقه وهو تولية ولده من بعده وتغيير نظام الحكم بمصر ليتوارثه أبناء عباس دوننا.

إسماعيل: والله هذا لن يكون ونحن على ظهر البسيطة ولو أتخذ السلطان مثل هذا القرار ليكون من النادمين .. لننشقن بمصر من عبائة دولته ولنعلن الاستقلال عن خلافته إننا الحاكمين الشرعيين للبلاد فكيف يجرؤ كائناً من كان على منعنا هذا الحق.

أحمد متعجباً: ما لى أراك منزعجاً من ضياع الحكم من بين أيدينا وقد كنت من قبل تنأى بنفسك عن دائرته !

إسماعيل مرتبباً: نعم أعلم أننى غير مرشح .. وأن عمى سعيد هو ولى العهد وأنتك ولى عهد عمى سعيد ولكن .. عمنا سعيد باشا ماذا سيكون حاله إذا علم بأن الوالى يعمل على تنحيته عن الحكم وتولية ولده .. كيف ستكون ردة فعله وهو وحده بالإسكندرية دون وجود سند أو معين من أفراد عائلتنا .. إننى سأعتذر من السلطان عن منصبى الذى ولانيه وسأعود لمؤازرة عمى والوقوف بجانبه إذا ما احتدمت الأمور بالمحروسة.

نظر له أحمد برهة ثم قال: لا تعتذر عن أى مناصب فإنى أعددت العدة لسفرى للأسكندرية لأكون بجوار عمى فأنا كما قلت ولى عهده والأولى بالوقوف بجانبه فى الأزمات.

ثم تابع: ولقد أخبرني يوسف بك أن السلطان قد صحب معه الأمير إلهامى فى رحلته الصيد وهو ما يدل على أنه قد وقع فى نفسه وأن مخطط الوالى يسير وفق مراده.

نازلى هانم وهى تضرب على مسند مقعدها فى مقت: يبدو أننا لم نعط لهذا العباس حقه فهو كالثعبان الذى يبث سمومه ويزداد خطره يوماً بعد يوم .. والقضاء على الثعبان لا يكون إلا بطريقة واحدة .. قطع رأسه.

قالت عبارتها الأخيرة بشراسة جعلت قلبى الأميران يرفجا داخل صدرهما.

أخذ غزالٌ صغيرٌ يلعب ويتقاذف وسط الأعشاب الخضراء اليانعة مستمتعاً بشمس الصباح الدافئة التى تميز تلك البقعة الساحرة من الأرض بأشجارها الباسقة وجوها الصبحى المعتدل وهدوئها الشديد الذى بدده صوت طليق نارى دوى وسط السكون كألف قذيفة مدفع وقع على إثره الغزال صريعاً فتعالى صياح الحضور مهئين إلهامى باشا الذى وقف مختالاً بمهارته فى القنص حيث أشار له السلطان قائلاً: لقد أنقذت اليوم رقبة تابعكم نوبار أفندى .. إن هذا هو سابع هدف تصيبه اليوم كما أنك أبديت مهارةً فى سباق الخيل تستحق الإعجاب.

إلهامى: وما تكون مهارتى بجانب مهارة مولانا السلطان.

ابتسم السلطان: أنت يا باشا ابن أصول وقد أحسن والدك تربيتك حقاً .. أحسبت أننى لم أدرك أنك لكزت باطن جوادك بقدمك حتى تخفف من سرعته فتجعلنى أفوز بالسباق.

ثم أشار السلطان لولديه قائلاً: يبدوا أنى سأوكل لك ولدى هاذين لتدربهما على أصول الفروسية والرماية.

أحنى إلهامى رأسه قائلاً فى احترام: إنه سيكون من دواعى سرورى وفخرى أن أقوم بتلك الوظيفة يا مولائى .

نظر السلطان لولديه قائلاً: إن ولداى لا يزالان صغاراً لكن تدربهم تلك الأصول عندى لمن أهم الأمور.

إلهامى: إن مولائى يعمل بحديث سيدنا رسول الله حيث قال علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل .. وذلك ليكونوا عدة الإسلام وفخره فى مواجهة الكفر وأهله.

ردد السلطان: صلى الله عليه وسلم .. بوركت يا باشا إنك مثال للشباب الملتزم المتمسك بتعاليم دينه.

علق الأمير عبدالحميد ببراءة الأطفال: إن إلهامى كان يراجع معى طوال مدة رحلتنا ما حفظت من القرآن الكريم ولكن أحنى مراد كان يفر منا ولا يريد المراجعة.

ضحكا من قول الأمير الصغير وعقب السلطان قائلاً: اسمه إلهامى باشا وليس إلهامى إنك لم تعد صغيراً يا أمير عبدالحميد.

إلهامى: اتركه يقول ما يحلوه يا مولائى فإنهما لى بمثابة الأخوين .

تثائب السلطان وهو يقول: الأصول هى الأصول يا باشا .. على كُلى يبدوا أنه قد ألم بى الإجهاد فلنعد إلى المعسكر لنلتمس لأنفسنا قليلاً من الراحة.

أسرع الأغوات بتلبية الأمر في حين تردد إلهامى قليلاً مما جعل السلطان يقول له: ماذا هناك يا باشا ألا تريد أن ترتاح قليلاً .

أجابه إلهامى قائلاً: إننى ألتمس منكم العذر أن تعفوننى من تلك الراحة فإننى أتوق للتجول قليلاً في هذه الأنحاء للتمتع بالمناظر الخلابة التى تزخر بها المنطقة وذلك من بعد إذن عظمتكم.

ضحك السلطان قائلاً: اذهب حيث تريد يا باشا فأنت لست بسجن .. إننا ما جئنا هنا إلا لنمرح وننعم بالنسيم العليل ولكن خذ حذرك فالمنطقة تعج بالحيوانات التى تريد أن تأخذ بثأرها مما فعلته بها اليوم.

ابتسم إلهامى وانحنى محيياً السلطان وأسرع بامتطاء صهوة جواده وانطلق به شاقاً غابات الأشجار العالية المحيطة بالمعسكر وقد سرح بذهنه في والده والصراع الدائر بينه وبين عائلته وذهب به فكره لأيام صباه بأرض الحجاز ولهوه مع أبناء القبائل بالجزيرة العربية حيث كان أول عهده بتعلم أصول الفروسية الحقة وحفظ القرآن الكريم على أيدى مشايخ الحجاز بالحرمين الشريفين وتعلمه لمعتقداتهم التى تأصلت داخل وجدانه وأثمرت حبه لله ودينه ورسوله .. وبينما هو شارد الذهن إذ لمح جواداً أبيض شاردًا ينهب الأرض نهباً وعلى متنه فارس يجاهد كى يستطيع السيطرة على جموح فرسه وما هى إلا لحظات حتى بات جلياً عجز الفارس عن السيطرة على جواده بل أصبح يجاهد فى استماتة كى يظل على صهوته ولا يقع فتدق عنقه .. مما دفع إلهامى للانطلاق فى إثر الفارس ليقدم له يد المساعدة وطوى الأرض بجواده الذى لان للكزات فارسه الخبير فضعف من سرعته حتى حازى الجواد الأبيض الأخر وما دنا منه حتى فقد الفارس الأخر السيطرة على نفسه فسقط من على صهوة فرسه إلا أن إلهامى قد أمال جزعه لأقصى مستطاعه متمسكاً بقدميه على بطن

جواده فتلقف الفارس بيده اليمى وتشيث به فى اللحظة الأخيرة وجاهد بكل قوته كى لا يسقط معه إلى الأرض وأسرع بإيقاف جواده ليسعف الفارس الذى كان قد فقد وعيه من شدة الفزع فأرقدته على الأرض برفق وأخذ يربت على وجنتيه ولما لم يجد استجابةً فكَّ غطاء رأسه كى ينعش الهواء صدر الفارس ويساعد على إفاقته .. إلا أنه ولهبول المفاجأة قد انحسر الغطاء عن فتاةٍ بديعة الحسن انسلَّ شعرها الأسود الفاحم على وجنتيها .. فحدق إلهامى فى وجهها لبرهةٍ غير مصدقٍ لما يراه وبينما هو كذلك إذ فتحت الفتاة عينها وقد أفزعها هذا الرابض بجانبها ينظر لها فى فضول فصرخت من هول المفاجأة وتراجعت دافعةً الأرض بقدميها فى فزع .. فهض عنها إلهامى وقد ألجمه الخجل فتنحى جانبًا حتى تعيد الفتاة غطاء رأسها وتعدل من هندامها ثم قال لها بارتباك: لقد رأيتك وقد كان الجواد ينطلق وأنت على صهوته وكدتِ تقعين لولا ستر الله أن مكنتى من اللحاق بك وإنقاذك فى اللحظات الأخيرة.

عدلت الفتاة من هندامها وهى تنظر له وتقول بصوتٍ رقيق: أشكرك أيها الفارس النبيل على ما فعلته فلولا وجودك الآن لما كتبت لى النجاة.

إلهامى وقد التفت إلهامى: الفضل لله وحده .. ولكن ما دفعك لخوض تلك الأنحاء المترامية وحدك دون رفيق؟

نظرت له الفتاة لحظات ثم سألته قائلة: يبدو أنك غريب عن تلك الأرض أيها الفارس النبيل؟

أجابها إلهامى: إننى ابن والى مصر وأنا هنا ضيف عند فخامة السلطان عبد المجيد الذى أنعم علىّ واصطحبني معه أثناء رحلة صيده .. ولكنك لم تجيبى عن سؤالى بعد؟

ترددت الفتاة برهَةً ثم قالت: إنني ضمن حرمك السلطان المصاحب
لفخامته في رحلة الصيد وقد كنت أسير في حدود المعسكر لولا أن جمح بي
هذا الجواد وكاد يوردني التهلكة.

أسرع إليّهم بسؤالها في لهفة: أنتِ ضمن الحريم الخاص بمولانا
السلطان أم تعملين بالحرمك؟

نظرت له الفتاة وهي تقول باسمه: إنني الوصيصة الأولى لفخامة
السلطانة فاطمة ابنة مولانا السلطان فقد جاء السلطان كعادته لرحله
الصيد بجميع أفراد أسرته.

أقبل جواد الفتاة الأبيض يحوم حولهما فخاطبته الفتاة وهي تعقد
حاجبها في غضب: سيكون لي معك حسابًا عسيرًا عندما نعود إلى
المعسكر يا شبل.

ضحك إليّهم من غضبها وأخذ بعنق الجواد يتحسس ناصيته بيده
وهو يقول: أهذا اسمه .. اسمك جميل يا شبل.

ثم تابع وهو ينظر إلى عينيها العسليتين في هيام قائلًا: أتعلمين أنني
مدينٌ لهذا الجواد بالكثير لأنه قد أتاح لي التعرف على صاحبة أجمل
عينين رثيتهما في حياتي.

خفضت الفتاة عينيها في حياء وقد توردت وجنتها خجلًا وهي تقول:
يبدو أن ما يقال عن أهل مصر حقيقي؟

سألها إليّهم في اهتمام: وما يقال عن أهل مصر يا ترى؟

أجابته: أنهم أهل الكلام الظريف والحديث اللطيف فلا يجاريمهم في حديثهم قوم إلا وكانوا هم الغالبون.

كان لا يعتبر نفسه من أهل مصر إنما تربى على أن المصريون هم رعيته وعبيده يأترون بأمره وينتهون بهيه إلا أنه وجد نفسه يقول: إننا أهل مصر الشعب الوحيد الذى يتخذ من الضحك منهجًا ومن النكات حكمة.

لا يدري لِمَ قال ذلك فلقد كان يسير دومًا فى الطرقات بصحبة والده أو منفردًا فيستمع إلى تغامز الناس وتلامزهم فلما استوضح من أحد المقربين أخبره بأن العوام يتغامزون بالنكات على أسرتهن الحاكمة كلها .. ثم تلا عليه بعضها فضحك منها رغماً عنه إلا أن مكانته جعلته لا يبدي ذلك للراوى بل ونهره.

سالته الفتاة متعجبة: وما النكتة؟

أجابها مبتسمًا: هى موقف يروى بسخرية عن صعوبات الحياة ومعوقاتها وعن الحكام أيضًا ولكن فى تلك الحالة يروى بالتلميح فيقف الحاكم إزائه عاجزًا لا يملك إلا تجاهله.

الفتاة: إنه لعمري لشعب ذكيٌّ لمَّاح.

ثم استأنفت قائلة: ولكن فليعلم الفارس القادم من بلاد النيل أن هذا المنهج لا يسرى هنا على بنات البسفور.

قال لها صادقًا: لا والله إننى لم أخاطب فتاة من قبل بمثل ما خاطبتك ولكن ما حيلتى أمام سحر عينيك هاتين؟

أشاحت عنه الفتاة بوجهها قائلة: أتعلم لو رآك أحدٌ من الجنود الآن لظن بك الظنون ولحملوك من فورهم إلى غياهب السجون بتهمة التعدي على نساء السلطان.

قال لها: فليفعلوا ما يحلوا لهم سأكون ساعتها ضحية جمالك.
الفتاة: لا لا لقد بالغت في غيِّك أيها الفارس وقد أن أوان الرحيل .
وأخذت بقوائم فرسها فأعانها إلهامى على ركوبه وهو يقول: سأكون هنا في انتظارك غدًا في نفس هذا المكان وهذا الزمان؟
قالت له: لن أعدك بشيء .. ولكن سأفكر.

أسرع يقول لها متداركًا: إننى إلى الآن لا أعرف ما اسم الحسنة.
انطلقت بجوادها وهى تلتفت إليه بدلال وتقول: اسمى شاذيل ..
ويدعونى شذى.

وانطلقت بجوادها مخلفة ورائها عاصفة من الغبار تفوقت عليها
مشاعر إلهامى الثائرة.

امتطى شريف صهوة جواده فى جولةٍ تفقديةٍ طاف بها حول المعسكر متابعًا نوبات الحراسة التى يقوم بها الجند ومدى التزامهم بها واطمئن على سير العمل وفق التعليمات الصادرة للجنود .. ثم دخل إلى المعسكر متجهمًا لمكتبه حيث استوقفه جندى قائلاً بعدما أدى له التحية العسكرية: هناك رساله وصلتك تَوًا يا سيدى .

حَيَّاهُ شَرِيفٌ وَتَسْلَمُ مِنْهُ الرِّسَالَةُ وَأَسْرَعُ إِلَى مَكْتَبِهِ وَفَتَحَهَا فِي لَهْفَةٍ
فَكَانَتْ مِنْ فَرِيالٍ خَطِيبَتِهِ وَقَرَأَ بِهَا: إِنَّ لِسَانِي وَمَا يَنْطِقُ بِهِ وَقَلْمِي وَمَا
يَخْطُهُ لِيَعْجِزُ عَنْ وَصْفِ مَدَى مَا أَكَابَدَهُ مِنْ آلامِ فِرَاقِكَ يَا شَرِيفَ .. فَمِنْذَ
أَنْ سَافَرْتُ وَتَرَكْتُنَا إِلَى تِلْكَ الْبِقَاعِ النَّائِيَةِ وَأَنَا فِي غَرْبَةٍ عَنْ كُلِّ مَنْ حَوْلِي ..
فَأَنَا دُونَكَ فِي مَنْفَى يَحْوِلُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَى سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ وَكَيْفِ أَنْعَمَ بِمَبَاهِجِ
الْحَيَاةِ وَمَسْرَاتِهَا وَقَدْ بَاعَدْتَ بَيْنَنَا الْمَسَافَاتِ وَحَرَمْتَنَا حَرَارَةَ الْإِقْتِصَادِ وَدَفَعْتَ
الْوَصَالَ .. وَلَمْ يَخْفَفْ عَنِي تِلْكَ الْوَحْشَةَ إِلَّا كِتَابُكَ الَّذِي بَعَثْتَهُ إِلَى فَزْلِ
مَنْ نَزَلَ قَطْرَاتِ النَّدى عَلَى الْأَرْضِ الْقَاحِلَةِ فَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهَيْجٍ ..
وَقَدْ أَخَذْتَ أَقْرَأَهُ وَأَعِيدَ كَلِمَاتِهِ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ حَتَّى اسْتَشَعَرْتَ صَوْتَكَ
الْحَنُونَ الدَّافِيَّ يَحَادِثُنِي بِكَلِمَاتِهِ وَيَخَاطِبُنِي بِعِبَارَاتِهِ .. وَلِبِئْسَتْ بَرَهَةٌ تَمْلِكُنِي
خَالَهَا إِحْسَاسٌ عَظِيمٌ بِالنَّشْوَةِ طَوَى عَنِي مَسَافَاتِ الْبَعْدِ وَوَحْشَةَ الْفِرَاقِ
.. فَرَأَيْتَكَ رَأَى الْعَيْنَ تَرْنُو إِلَى بَعِينِكَ الْحَائِثِيَّتَيْنِ تِلْكَ النُّظْرَةَ الَّتِي تَبْلُغُ مِنْ
وَجْدَانِي أَلْفَ كَلِمَةٍ عَشْقِيٍّ وَغَرَامٍ .. فَلِبِئْسَتْ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ سَاعَةٌ مِنْ
الزَّمَانِ أَوْ يَزِيدُ ثُمَّ أَفْقَتُ مِنْ أَحْلَامِي وَتَلَفْتُ حَوْلِي فَلَمْ أَجِدْكَ بِجَانِبِي
فَعَاوَدَنِي شَجْنِي وَعَاوَدْتَنِي وَحْشَتِي فَلِبِئْسَتْ فِي بَكَاءٍ وَرثَاءٍ لِحَالِي لَمْ أَعْهَدُهُ فِي
نَفْسِي مِنْ قَبْلِ .. وَلَا أَمْلِكُ إِلَّا أَنْ أَدْعُو رَبِّي عَسَى أَنْ يَجِيبَنِي فَيُزِيلَ عَنَّا هَذَا
الْبِعَادَ وَيُعْجِلَ لَنَا بِاللِّقَاءِ.

قَبْلَ شَرِيفِ الرِّسَالَةِ بَيْنَ أَنْأَمَلُهُ فِي هَيْامٍ ثُمَّ طَوَّأَهَا وَضَرَبَ بِقَبْضَتِهِ
سَطْحَ مَكْتَبِهِ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ فَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ كَلِمَةً بِمِثْلِ
هَذَا الْعَجْزِ الشَّدِيدِ.

بِسْمِ اللَّهِ نَفْتَحُ الْيَوْمَ جَلْسَةَ الدِّيْوَانِ.

بهذه العبارة افتتح عباس باشا ديوان الحكم حيث اجتمع له رجال ديوانه مع استدعاء على مبارك أفندي وحماد بك وعلى إبراهيم باشا من رجال التعليم بمصر وقد اتخذ عباس باشا مجلسه وقال: في ظل سياستنا الإصلاحية التي عزمنا على تحقيقها بالبلاد فقد ارتضت إرادتنا أن يتم تخطيط صحراء الحصة وتجهيزها لتكون صالحة للسكنى وأن ينفق بها ذوات البلاد وكبرائها الأموال لتعميرها وقد أصدرنا أمرنا إلى رئيس مجلس الأحكام بسرعة التنفيذ ولكن هذا لم يحدث وحيث أنني مصممٌ على أمرى وإرادتى السابقة فيجب على المجلس أن يحدد مدةً وموعداً لإنشاء القصور وتبليغ جميع الذوات والأمراء ومن يتأخر عن الامتثال بعد ذلك في المدة المعينة فعلى المجلس تعيين جزائه لأن ذوات مصر تعودوا أن يلاقوا المعاملة بالشدّة وإنزال الجزاء عليهم ولا يدركون معنى انبهار الوجه ولطف المعاملة لذلك يجب نشر وإعلان هذا وعرض النتيجة علينا.

ثم تابع الوالى: هذا وقد بدأنا بأنفسنا فأنشأنا قصرًا لنا وأصدرنا أوامرنا بإنشاء أربعة قشلاقات للجيش ومدرسة لتعليم الضباط كل هذا دعمًا منا لإعمار تلك البقعة من الأرض وحتى لا يجد المتخلف عن التنفيذ ما يتعلل به من أن المكان مهجور.

ثم نظر إلى رئيس ديوانه قائلاً: وليسجل بالديوان اليوم يا أحمد باشا إرادتنا بتسمية تلك المنطقة بالعباسية.

صاح الحضور مهنيين الوالى على حسن اختياره ثم بعد برهة تحدث الباشا قائلاً: الأمر الثانى اليوم يتعلق برأى السادة مسؤولى التعليم فى المدارس الملكية ورؤاكم المقترحة لتطويرها علمًا بأننا قد طرحنا الأمر من قبل على لاميير بك وحدد ميزانية 20000 كيس نقدية إلا أننا استكثرتنا تلك التكلفة.

تحدث على إبراهيم باشا قائلاً: أرى يا جناب الوالى أن نعيد المدرسون الفرنسيون ليقوموا بعملهم من جديد وأن نلحق بهم مجموعة من طلبة الأزهر يتم اختيارهم بعناية ليكملوا دراستهم بتلك المدارس ويتخرجوا فيها.

بدا عدم الاقتناع على وجه الوالى ونظر إلى حماد بك الذى قال: أمّا رأيي يا أفندينا أن تلك المدارس لم تؤت ثمارها المرجوة من إنشائها لذا أقترح إغلاقها ونقتصر على مدرسة أو اثنتين حسب الحاجة الملحة للمشروعات المأمول تنفيذها بالبلاد.

مطّ عباس باشا شفتيه علامه عدم الرضا ثم التفت إلى على مبارك أفندى وقال: وأنت يا أفندى هل لديك تصور بهذا الخصوص؟

أجابه على مبارك قائلاً: إن تلك المدارس على تباعدها وانتشارها لا تؤدى الغرض من وجودها لذا فأقترح يا مولانا أن تكون جميع المدارس في مكانٍ واحد وتحت إشراف مدير واحد وهذا في تقديري المبدأى لن يتكلف إلا 1000 كيس نقدية فقط وأقترح أن يكون هذا المكان بمنطقة العباسية وبذلك نكون قد خفضنا مصروفات تلك المدارس واستفدنا منها بعدم غلقها وحققنا الزواج المأمول لتلك المنطقة الجديدة التى سيذهب لها الطلاب كل يوم وما سيتبعه ذلك من خدمات توفر لهم.

نظر له عباس برهة ثم ابتسم قائلاً: إنك يا على أفندى وبالرغم من حادثة سنك فقد حباك الله بنباهة نادرة.

ثم التفت إلى أحمد يكن باشا قائلاً: فليصدر مرسومنا بتحقيق هذا المقترح ويعين على مبارك مديراً لمجمع المدارس الملكية المزمع إنشاؤه كما أنعمنا عليه بالبكاوية ليتفق مقامه مع منصبه الجديد وليعلن هذا المرسوم على الجهات المختصة.

بدا الضيق على وجهه على إبراهيم باشا وقد كان يشعر في خبيثة نفسه ببعض الحقد تجاه على مبارك وقد ظهر ذلك جلياً عند سماعه لتلك القرارات مما دفع عباس باشا للنظر له بحدة وتابع إمعاناً في كيد الباشا الحقود وقال: وقد أنعمنا على حضرة البيك القدير على مبارك بأبعادية 300 فدان يديرها كيفما شاء وأوكلنا له رئاسة المهندسخانة وما يتعلق بها .. هذا عطاؤنا وإنعامنا الذى نجتى به من نشاء وكيفما نشاء لا معقب لحكمنا ولا مانع لسخاء أيدينا.

تمتم الحضور بعبارات التهنئة لعلى الذى لم يكن يصدق ما سمعه من الوالى فهض واقفاً وتقدم من الوالى وقبل يده قائلاً: إنك لتغمرنى بعطف جنابك وأدعوا الله أن أكون أهلاً له يا أفندينا.

ابتسم الوالى برضا وسط نظرات الحضور الذين أيقنوا بان اليوم سيكون له ما بعده فى حياه على مبارك.

جلس إلهامى باشا والوصيفة شذى مستندين إلى جذع شجرة باسقة من أشجار الصنوبر المنتشرة بالمنطقة وقد سرح إلهامى بخياله متعجباً من تلك الفتاة التى بجواره وكيف أثرت فيه على هذا النحو رغم أنه لم يرها إلا منذ أيام قليلة وتعجب من حاله حيث كان كل أمله حين قدم إلى تلك البلاد أن يحصل على مرسوم يتيح له وراثه الحكم بعد أبيه .. فكيف له اليوم يترك قرب السلطان متناسياً كل شئ غير لحظاتٍ ينعم فيها بلقاء شذى حيث يسعد بحديثها العذب .. كان يستشعر فى وجودها بسلامٍ غامرٍ يملأ نفسه فأخذ يروى لها كل شئ عن حياته منذ نشأته فى أرض الحجاز وشبابه هناك وعودته لمصر وقد أصبح ابن والى البلاد وروى لها صراع

عائلته وطبائع أفرادها وحدثها عن مصر .. ولشدة عجبه أن كان حديثه مليئًا بالشوق والحنين فوصف لها عراقه بنائها وجمال نيلها وطيبة شعبيها .. شعبيها الذى طالما نظر له بتعالٍ وترفعٍ كبير .. كان يشعر في وجودها بأن الكون بكل ما فيه صار أجمل .. وكانت هى تحدثه بصوتها الرقيق عن الحرملك العثماني وحياته الخاصة المليئة بالقصص المثيرة التى لا تنتهى .. وتحدثه عن الحياة فى إسطنبول وحب الناس للسلطان العثماني والأسرة العلية .. وحدثته عن تاريخ تلك الأسرة العريق وما زاد من عجبه أنها كانت ملمة بهذا التاريخ الطويل وملمة بدقائق تفاصيله وخفاياه .. لقد فتحت أمام عينيه آفاقًا لم يرتدها من قبل فأسرته بلباقة حديثها وغزارة علمها ولمس فيها نبأً لم يلمسه من قبل لدى أبناء السلاطين والأمراء.

غداً سينهى السلطان رحلة صيده ويعود إلى الأستانة وسيكون هذا هو آخر يوم نتقابل فيه يا إلهامى باشا.

أفاق إلهامى من حلمه الجميل على عبارة شذى فنظر لها لحظةً واجماً ثم قال: أعلمى يا شذى أننى لا أستطيع أن يمر علىَّ يومٌ دون رؤياك وإننى لن أتخلى عن لقائك مهما كانت العراقيل وسأراك هناك كما تعودت أن أراك هنا.

شذى: إننا هنا نحيا فى جو من التنزه تقل فيه الرقابة وتُرخى فيه قيود الانضباط .. أما بقصر طوب كابي فالأمر يختلف فالحياة هناك تسير بصرامةٍ ووفق نظامٍ دقيقٍ وتكثر فيه الرقابة ويعد على المخالفين الأنفاس.

إلهامى: سبق وأخبرتكم بنشأتى بأرض الحجاز .. وقد لا تكون أصولى عربية ولكن تلك النشأة رسخت بداخلى تقاليد وشيم العرب .. كل هذا يجعل لحيى سبيلاً واحداً ليس له آخر.

وأخذ نفسًا عميقًا وقال بعزمٍ وتصميم: سأطلب يدك للزواج من مولانا السلطان عبدالمجيد.

نظرت له شذى وقد رَفَّت على شفيتها الرقيقتين ابتسامة سعادة ثم قالت: واه يا باشا .. ألهذا الحد أنت متمسكٌ بي ..

ثم تابعت وقد اعترى صوتها نبرات القلق: وهل تعتقد يا باشا وأنت في أهلك حسيبٌ نسيبٌ أن يكون أمرزواجك من جارية مثلى متقبلاً بين أفراد عائلتك؟

إلهامى: إن تلك حياتي ومستقبلي ولن يجرؤ مخلوقٌ على أن يقوض هنأى وسعادتي.

شذى: إن والدك يأمل في توريتك حكمه ويعول عليك أمالاً عِظَامًا فلا تجعل مئى حائلاً بينك وبين أهلك.

إلهامى: إنها حياتي أخوض غمارها حسيما أرى .. ولا تبخسى نفسك قدرها فأنتِ الوصيصة الأولى لابنه السلطان العثماني وستصبحين عما قليل زوجة والى مصر.

شذى: وهذا سببٌ أخريحول دون ارتباطنا.

إلهامى متعجبًا: ولم؟

شذى: قد لا يجمل بي أن أحادثك بمثل هذا الحديث ولكن ما دمت قد صارحتى برغبتك بالارتباط بي فسأبدلك صراحتك بصراحة .. إننى لم أعرفك إلا منذُ وقتٍ قريبٍ وعلى الرغم من ذلك فقد عايشت خلال تلك

الأيام القليلة مشاعر لم أخبرها من قبل في حياتي ولا أنكر أنى وجدت
بقلبي نفس ما وجدت بقلبك وهذا ما يدفعني إلى عدم الارتباط بك.

صاح إلهامى مندهشاً: وكيف يتفق هذا وذاك أتبادلينى نفس
المشاعر ولا تريدان الارتباط بى كيف يا شذى!؟

شذى وقد اختلج صوتها من أثر العبرات: لأننى لا أريد أن أفقدك ..
لقد أخبرتنى عن الصراع المحتدم بينك وبين عائلتك على الحكم مع أنك
لم تحصل بعد على وعدِ السلطان بمنحك إياه فكيف إذ بلغت غايتك
فحينها لن يستطيع أحد توقع ردة فعلهم.

إلهامى: فليفعلوا ما يحلو لهم وقتها يكون قد سبق السيف العزل
ونكون قد حصلنا على مرادنا من السلطان ولن يقدر كائنًا من كان أن
يمنع تنفيذ هذا القرار.

كان يتكلم وقد بدت في عينيه نظرات المقت والغضب الشديد فقالت
له شذى: لأشد ما يخيفنى تلك النظرة التى تطل من عينيك الآن .. إن
الحقد يولد حقدًا والمقت يولد مقتًا .. إنك إن نجحت في تحقيق مسعاك
فستكون ساعتها قد حرمت أبناء عائلتك من كلِّ أملٍ لهم في هذا الحكم
ووقتها سيفقدوا مع ما فقدوه كل تعقلٍ وتريثٍ قد يحول بينهم وبين ارتكاب
أشد الجرائم وأفظعها.

صاح إلهامى منفعلاً: اعلمى يا شذى أنه ليس من شيمى الجبن وقت
الخطوب فليفعلوا وسعهم وسيجدوننى أمامهم بالمرصاد.

صاحت شذى بدورها: وأنا لا أستطيع تحمل أن يأتونى بك مقتولًا يا
إلهامى .. أنت لا تعلم ما أعلم من دسائس القصور إذا ما احتدمت شهوة

الحكم إنها سبباً في أشنع الجرائم وأفظعها فكم فقدت أمّ ابنا وباتت زوجةً ثكلى وتيتم أبناءٌ بسبب صراعات الحكم ومطامعه ألا لعنة الله على الحكم .. ألا لعنة الله على الحكم .

قالتها وأجهشت في بكاءٍ شديد فحاول إلهامى أن يخفف عنها ويمسح دموعها المنهمرة على وجنتها إلا أنها دفعت يده بعيداً عنها ومسحت دموعها في كبرياء ثم نهضت وقد بدا على وجهها العزم حيث قالت له بتصميم لم يعهده فيها من قبل: اسمعنى جيداً يا باشا .. إن أردت الارتباط بى وكنت صادقاً فى عزمك واثقاً من قرارك .. فلتترك أمر هذا الحكم دون رجعة..ولتعلم أن قرارك هذا مهرى الذى لا أرجو منك سواه .

وأسرعت تنصرف تاركةً إياه مضطرب النفس حيراناً.

جلس عباس باشا متراًساً ديوانه جامعاً رجالاً دولته حيث قال لهم: لقد علمتم بانتهائنا بفضل الله تعالى ومنته من بناء قصر الدار البيضاء بطريق مصر - السويس وإننا نذهب إلى هناك بين الفينة والأخرى وكنا نطالع مدى الوحشة والخراب الذى يعانى منه هذا الطريق فقمنا بتزويده بدوريات الحراسة اللازمة لتأمين حياة الناس إلا أننا عاينا مدى سوء حالة الطريق ووعورتها على السالكين فعزمنا على تعبيده وإصلاحه.

ونظر إلى مصطفى الخازندار وقال له: فلتقم بعمل دراسة عن تكلفة هذا المشروع وتعرضها علينا فى أقرب وقت حتى ندير له المصاريف اللازمة.

ثم تابع: وأنت يا على مبارك بك فلتقم بما يلزم هذا المشروع من دراسات فنية ولتقدم إلى مصطفى باشا دراسة وافية بكمية الخامات المطلوبة حتى يتسنى له تقديم دراسة وافية.

هز مصطفى بك وعلى بك رأسهما علامة على تفهمهما .. فتابع عباس باشا: ولقد استدعينا اليوم إلى مجلسنا سليم باشا فتحن أحد أبرز القادة بالجيش المصرى حتى يشرف على إمدادكم بما يتطلبه المشروع من أيدى عاملة فيوافيكم بها من جنود الجيش.

ثم نهض قائلاً: هل من استفساراتٍ أخرى بهذا الخصوص.

أجاب الحضور بالنفى فقال لهم الوالى: إذن فلينتهى كلُّ من عمله الموكل إليه وليعرض علينا النتائج في مجلسنا القادم بإذن الله.

واتخذ طريقه إلى خارج الديوان فأسرع أحمد باشا المنكلى بالخروج خلفه واستوقفه قائلاً: عفوك يا أفندينا وددت محادثتكم للحظات .

قال له عباس باشا بصرامة: ولمَ لم تُخبرنى بما تريد وأنا بداخل الديوان يا باشا؟

أجابه أحمد باشا: معذرة يا باشا ولكن ..

قاطعه عباس باشا قائلاً: ماذا تريد يا باشا .. وأسرع فإننى على عجلةٍ من أمرى.

تلعثم أحمد باشا قائلاً: وددت أن أستوضح من جنابك هل هناك قصبرت فى أيِّ من المهام التى أوكلتموها إلىَّ يا مولاي؟

نظر له عباس باشا شذراً وهو يقول: لِمَ تقول هذا يا باشا؟ تحدث دون مواربة.

أحمد باشا: اليوم يا أفندينا قد استدعيتم قائداً من الجيش يعمل تحت إمرتي وعهدتم إليه بالمهام دونما أن ..

قاطعه عباس باشا غاضباً: وهل سنأخذ منك الإذن قبل استدعاء من نريد إلى ديواننا هل تعي أذنك ما يتفوه به لسانك يا باشا.

ثم تابع بصرامةٍ شديدة: الزم حدودك يا باشا .. ولا تنس أننا من أنعمنا عليك بمنصبك الذي تختال به الآن .. ولكن يبدو أن هذا المنصب أصبح كبيراً عليك .. على كَلِّ لازال لدينا من الوقت متسع لتدارك هذا الأمر.

اسودَّ وجه أحمد باشا وهو يقول: ماذا فعلت لكل هذا يا باشا؟ إننى لم أقصر أبداً في أي ..

قاطعه عباس بإشارةٍ من يده ثم قال: أنت تعرف جرمك جيداً وستنال جزائك عليه قريباً ولكن لكل مقامٍ مقال.

ثم انصرف تاركاً أحمد باشا غارقاً وسط نظرات تتفاوت بين الشماتة والتعاطف ألقاها عليه المنصرفين من الديوان.

ظل إلهامى شارد الذهن طوال رحلة العودة حتى دعابات السلطان عبدالمجيد لم تخرجه عن هذا الشرود حتى لاحظ كثير من المحيطين ما يعانیه من كِدْرِ وقد كان يتعلل للمتسائلين بقلقه على أهله بمصر حيث لم

يتسلم منهم أى رسائل طوال رحلة الصيد .. ولكن تلك الحجج الواهية لم تكن تخفى على رفيقه نوبار أفندى الذى دنا منه وقال له: أرى يا مولاي الأمير أن ما يعترك من شرود وكدر يؤثر بشكل كبير على الهدف الذى جئنا من أجله لتلك البلاد .. إنك لم تعد تتودد إلى السلطان لتستكمل ما أحرزته من الفوز بإعجابه والحصول على رضاه.

إلهامى: حقًا يا نوبار إننى لا أجد فى نفسى ميلاً للمراء والتزلف لأحد .. فأنا كما أنا إذا قرر السلطان أحقيتى بهذا المكان فليمنحنى إياه وإن لم ير ذلك فليفعل ما يشاء.

نوبار: يا سمو الأمير مالى أراك غير مبالي هكذا .. أنسيت وصية أفندينا .. لقد بنى على تلك الزياره آمالاً عريضة.

إلهامى بحدة: الكل يخطط من أجل آماله وأمانيه الخاصة ولكن أين آمالى وأمانىّ أنا؟

نظر نوبار إلى إلهامى للحظات ثم قال متعجبًا: كنت أحسب أن مرادك هو توليك الحكم من بعد والدك وإننى لفى غاية العجب من حديثك هذا وأكاد أجزم بأن هناك ما قد طرأ على فكرك وغير من قناعاتك فى أثناء تلك الرحلة المشؤومة.

إلهامى: لا أستطيع أن أخبرك بحقيقة الأمر فلا أعتقد بأنك ستفهم كلامى وتقدر معاناتى.

نوبار بصدق: ولمَ يا أمير إننى نوبار أمين ديوان والدكم ومترجمه الخاص وأنا من سعى لملازمتك فى هذه الرحلة لأعضد من موقفك بعلاقاتى المتشعبة داخل إسطنبول حيث أسرة صهرى كيفورك بك

أرمينيان ذائعة الصيت والتي على صلة وثيقة بالباب العالي .. وما فعلت هذا إلا لرغبتى الأكيدة في خدمة والدكم الذى حبانى بكرمه وعطفه فأنزلى مكانة لم يطأها من هم فى عمرى الصغير إلا برعايته ودعمه فوددت أن أرد له بعضًا من فضله علىّ بتقديم ما أستطيع من أجل تحقيق مراده وتدعيم غايته.

صمت إلهامى للحظات ثم قال: لم أكن أقصد التقليل من شخصك يا نوبار أفندى فأنت رجل دولةٍ قدير ولا أحد ينكر إخلاصك ووفائك للباشا الكبير ولكن ما أردت قوله .. أن ما طرأ علىّ لا يمتُّ لشؤون الدولة وقوانينها بصلة .. ولا يخضع للحكم وتعقيدهاته .. إن ما طرأ علىّ يتعلق بقلبى يا نوبار .. هل تستطيع أن تفهمى؟

تطلع إليه نوبار بدهشةٍ للحظات ثم قال مبتسمًا: هل أميرنا الوسيم قد وقع أخيرًا فى العشق والغرام؟

أجابه إلهامى: يبدو ذلك يا نوبار.

نوبار بفضول: مرحى يا سمو الأمير .. ولكن من تلك الأميرة سعيدة الحظ التى وقع اختيارك عليها؟ ولأى بيتٍ عثمانى تنتمى؟

أجابه إلهامى: ليس لأيهما يا نوبار .. إنما تكون الوصيصة الأولى للسلطانة فاطمة بنت مولانا السلطان عبدالمجيد.

نوبار: عفوك يا سمو الأمير .. لا أريد إغضابك ولكن جنابك ذو حسب ونسب رفيع كما أن الله قد حباك بجمال الخلقة وإن مثلك إذا طرق أبواب الملوك والسلطين باغيًا النسب لأجابوه فى مطلبه فكيف يقع اختيارك على جاريةٍ لبنت السلطان.

إلهامى مبتسمًا: ألم أخبرك أنك لن تستطيع فهمي؟ ليت الأمر يكون بالحساب والمدارسة كما تعتقد ويحلو لك يا نوبار .. فلغة القلوب لا سلطان لأحدٍ عليها ولا تخضع لحسابات.

نوبار متداركًا: على كُليّ يا مولاي الأمير إنه اختيارك وحياتك تفعل فيها ما نشاء ولكن ما علاقه هذا وتغير موقفك من تحقيق مراد والدك بالحصول على امتيازٍ بتوارث الحكم في ذريتك؟

إلهامى: إن فتاتى تأبى على أن أكمل هذا السبيل .. وتخيرنى بينهما وبين السعى وراء هذا الملك.

صاح نوبار معترضًا: كيف يكون هذا هو الحب الذى ترتضيه يا سمو الأمير.. كان الأجدر بفتاتك أن تساعدك على تحقيق مرادك بدلًا من أن تُخذلك عنه.

إلهامى: هذا لو كان ما أسعى إليه هو مرادى حقًا .. إننى ومنذ لقائى بها وأنا لا أعلم ماذا اعترانى من تغيرات لم أعهد لها من قبل فقد كنت قبل لقائى بها أرغب فى هذا الحكم وكانت نفسى تتميز بالحقد والغضب على من ينازعى هذا الملك وينافسنى فيه.

وسرح بخياله بعيدًا وهو يقول: حتى أن نفسى المختالة كانت تزين لى الحقد على المتحايين لمجرد إحساسى بأن أحدهم ينازعى نزواتى العابرة .. وتُسلطنى على إنزال العقاب به لمجرد إثبات الذات المغرورة وإرضاء النفس المتكبرة .. كل هذا كان حتى لقائى بها ومعابنتى لنقاء نفسها ورقة مشاعرها وعدم تكلفها فى كل سلوكها .. فعهدت فيها نفسًا لا تحقد على أحدٍ ولا تحمل شرًا ولا عُبنًا لأحد .. ولمست فيها مشاعر صادقة نبيلة يفقد إليها

كثير ممن ينتمون إلى طبقات الذوات وعلية القوم .. وكان عدم تلكفها وعفويتها دليلاً على البراءة وصدق الطوية.

ثم التفت إلى نوبار قائلاً: كل هذا جعلني أشعر بأن خسارتى لها هي خسارةً للدنيا وما فيها وهو ما لن أسامح نفسى عليه أبد الدهر.

قال نوبار وهو ينتقى كلامه جيداً ليؤثر في نفس محدثه: يا سمو الأمير إننى أتفهم مشاعرك الفياضة ولكن لا تنسَ أن هناك هدفاً أسمى من كل ما يستشعر به فؤادك ويلم بنفسك وهو أنك عندما قدمت إلى هنا وأردت تحقيق مراد والدك لم يكن مرادك دنيا تصيها أو هدفاً زائلاً تحققه لنفسك .. بل كان مرادك هو نصرة دينك وتمكينه في البلاد وهو ما لن يتحقق إذا ما تولى أمر البلاد أحداً من أبناء العائلة .. فأنت تعلم كما أعلم ويعلم الجميع أنهم بعيدين كل البعد عن الالتزام بتعاليم الدين ومنهجه ولا يتمسكون منه إلا بمظاهره التي تتيح لهم الحكم باسم الخلافة العثمانية.

كان نوبار يعلم جيداً ما يؤثر في نفس إلهامى ويُحط من عزمه فظهر الاضطراب على وجهه القسيم وبات جلياً ما يعانیه من تخبطٍ وارتباك وهو يقول: إن ربي يعلم حبي له ولدينه ولرسوله .. كما يعلم تعلق قلبى بمحبوبتى ونبيل مقصدى .. كما يعلم ما أكابده وما أعانيه .. فأفوض أمرى إليه هو نعم المولى ونعم النصير.

عانى أحمد المنكلى في الأيام اللاحقة لحادثة الديوان فقد جفاه الناس وتهرب من لقائه القريب قبل البعيد وضافت به السبل فلجأ إلى صديقه

إبراهيم النبراوى الذى استقبله بداره وأكرمه وقال له: لا يغررك يا أحمد ما تمر به فى تلك الأيام فإنه اختبارٌ من الله لتعلم العدو من الصديق.

قال أحمد بحق: أنت لا تتخيل ما ألقىه فى تلك الأيام من أناس كنت أحسنت إليهم فاليوم يتجاهلونى ويتأون بجانهم عنى.

إبراهيم: إن هؤلاء القوم لا يصفقون إلا لمن يملك بيمينه العصا السحرية التى تحقق مصالحتهم فكل مشاعرهم زيف ورياء فلا تأبه لهم وليشغل بالك الآن أن تعيد لنفسك منزلتها قبل أن تسلب منك .. ألم تعلم إلى الآن ما سبب نقمة الوالى عليك؟

أحمد: لا أعلم يا إبراهيم .. وهذا ما ينغص علىّ حياتى إننى منذ توليتى هذا المنصب وأنا ملتزم بمهامه وأؤديها على أكمل وجه فلم يفعل معى هذا المأفون ما فعل؟

ابتسم إبراهيم على الرغم منه وقال: لعل لسانك السليط هذا قد تحدث بما لا يليق فنقل بعض الحاقدين ما أوغل صدر الباشا عليك .

أشاح أحمد بيده قائلاً: لا أعلم يا إبراهيم حقًا لا أعلم.

إبراهيم: على كلٍ إننى لا أعلم أحدًا يستطيع الوقوف بجانبك فى تلك المحنة إلا مصطفى باشا الخازندار فهو من المقربين للوالى فقد كان عبدًا مملوكًا له أيام الحجاز ثم أعتقه ونصبه خازندار الدولة فاذهب إليه واعمل على أن يحدث الوالى بشأنك عسى أن يعفو عنك.

فكر أحمد قليلاً ثم نهض قائلاً: سأذهب من فورى إليه وأشكرك يا إبراهيم على نصيحتك الغالية إنك حقًا لنعم الصديق.

ثم ركب من فوره قاصداً منزل مصطفى باشا الذى استقبله بالحفاوة والترحاب وأمر له بالقهوة والدخان واستمع لشكواه ثم طمأنه من وقوفه جانبه ووعدته ببذل جهده ليرفع عنه كربته فانصرف أحمد شاكراً للرجل فضله وحسن معاملته.

وفى اليوم التالى دخل مصطفى باشا إلى الوالى وَقَبَلَ يده ثم قال له: يا مولاي إن لى عندك رجاءً ومطلباً.

عباس: أما علمت بعد منزلتك عندى يا مصطفى إنك كابنى إلهامى بالتمام فسل ما يحلو لك.

مصطفى: هذا عطفٌ من جنابك يا أفندينا أرجو أن أكون أهلاً له.

ثم تابع: إن عبدكم أحمد باشا واقفٌ ببابكم يرجو أن تتفضلوا عليه وتسمحوا له بالوقوف بين يديكم ليقدم اعتذاراته لحضرتكم.

تغير وجه عباس قائلاً: كيف تسمح له بالمجئى إلى هنا .. أما علمت بأنه قد وقع عليه غضبى وَحَلَ به عقابى.

مصطفى: يا مولاي إن حلمك أكبر من غضبك وما شجعتى أنكم كنتم تذكرون الرجل بالخير وتقولون أنه كان معكم فى المحاربة بأرض الشام مع عمكم إبراهيم وكنتم تمتدحون تفانيه فى خدمة دولتكم المجيدة.

عباس: أتعلم ماذا صنع هذا الصعلوك.

مصطفى: يا أفندينا إن الرجل واقفٌ ببابك متدلاً لجنابك فأدخله فى رحابك وأعدك أنه لن يرتكب أى نقيصة بعد اليوم.

فأشار له عباس باشا أن أدخله.

فخرج مصطفى باشا متلهل الوجه فأدخل أحمد باشا بعدما أوصاه بحسن الحديث وتقدم من الوالى ليقدم له التحية إلا أن عباس باشا استوقفه بإشارة من يده ثم قال له فى حدة: كيف تجرؤ على أن تتصرف فى أمر من الأمور بدون علمى.

أحمد: حاشا لله يا أفندينا أن أفعل ذلك.

عباس: بل فعلت فقد جأك الأمير إلهامى وأوعز إليك بنقل صهر سليمان باشا الفرنساوى إلى أقصى حدودنا ففعلت دون علمى.

أحمد: يا مولاي إنما كنت أنفذ أوامر سمو الأمير إلهامى ..

قاطعه عباس بغضب: إنما أنت بوظيفتك لتنفذ ما أمرك به دون سواى.

ثم تابع بحق: ولولا أن استمع إلى حديثك أحد رجالى الأوفياء بالقصر لظل الأمر طي الكتمان .. إن سليمان باشا أثبت أنه رجل يملك نبلاً وسمو نفسى لا يملكه من هم على شاكلتك حيث أبى أن يخاطبنا فى الأمر والتزم هو وصهره بتنفيذ الأوامر الصادرة كما يفعل أى جندى قدير فكيف نسترضى سليمان باشا الآن .. أنت يا صعلوك وضعتنى فى هذا الحرج أمام سليمان باشا وعليك أن تتحمل تبعات جرمك.

أحمد مستعظفًا: يا مولاي سوف أصلح ما قد كان ولكن حلمك على خادمك المطيع الذى ما ذلت قدماه إلا من أجل إرضاء فلذة كبذكم سمو الأمير إلهامى.

عباس بحدة: لا تلق بجرمك على غيرك يا رجل .. إن الأمير لا زال صغير السن قد يفتقر إلى الخبرة اللازمة في بعض تصرفاته أما أنت فرجل دولة كبير المقام خبرت الحياة وخضت غمارها.

أحمد: أقسم يا أفندينا ألا يتكرر هذا الخطأ وأعاهدك على ذلك.

أشار له عباس وهو يقول: لن يكون هناك خطأ آخر يا أحمد باشا ففى المرة الثانية سيكون رأسك هو الجزاء.

فتقدم أحمد وقبل الأرض بين يدى الوالى ثم قَبَلَ يده وتراجع فى انكسار لولا أن استوقفه عباس باشا وهو يشير له بورقة مطوية قائلاً: هاك قائمة تضم أسماء 6000 جندى من الأرنؤود ألجَهْمُم بالجيش وأحسن منزلتهم وسلحهم بالأسلحة اللازمة.

نظر له أحمد باشا متردداً ثم قال: إن إيفاد 6000 جندى بالجيش دفعة واحدة لعدد كبير كيف تتحمله ميزانية الجيش وكيف سنوفر لهم الأسلحة اللازمة والتي تكفى الجنود الحاليين بالكاد.

عباس: تصرف يا ناظر الجهادية .. تصرف حتى لو أدخلتهم على حساب تسريح عدد مماثل من الجنود المصريين .. كذلك السلاح, فليتزع من أيدى الجنود المصريين ويعطى للجنود الجدد.

انحنى أحمد وهو يقول فى خنوع: سمعاً وطاعة يا أفندينا.

وظل يرددتها حتى خرج من القاعة.

جلس شريف داخل غرفته الخاصه بالمعسكر وأخذ بين يديه خطابًا جديدًا من خطيبته فريال وهى العادة التى أصبحت سلواه فى أوقات الراحة والاسترخاء حيث فتح الخطاب وأخذ يقرأ:

عندما كنت أرى صديقاتى المخطوبات فى غاية السعادة بزيارة الخطيب .. أو هدية قدمها لهن زوج المستقبل .. كنت أحسب أن هذا هو غاية الحب وأعلى منازلته .. وقد كنت جاهلة وقت إذ فإننى معك قد خبرت تجربة حقيقية اختبرتُ من خلالها صدق مشاعرى تجاهك ومدى تعلق قلبى بقلبك .. تعلمت فى غيابك يا سيدى أن الحب هو الحزن .. فالحزن على فراق الحبيب وبعده لا يستقيم إلا مع شدة الحب .. والإخلاص والوفاء يكون أصدق وأنبى مع غياب الحبيب وليس فى وجوده وأمام ناظره .. تعلمت فى غيابك يا سيدى كيف ينظر الحبيب للكون بعيون من يحب .. فلا يسعد إلا بما يسعده ولا يحزن إلا بما يُحزنه.

لا أكتمك سرًا أننى وقبل لقائنا كنت لا أشغل بالى وفكرى إلا بما يشغل قريباتى من صفائر الأمور وقد كنا نغنى فى خيلاء أننا فتيات القصور .. رُبيننا فى الخدور .. على الضحك والسرور هكذا كان شعارنا .. ولك أن تتخيل ما مهمنا وقت إذ إلا أحاديث الغيبة والنميمة حيث أن فلانة حُطِبَت لفلان وفلانة هجرت فلان .. وفلانة أهدى إليها كذا من الذهب والألماس .. وفلانة رفضت فلان لأنه دونها منزلة .. وهكذا من سفاسف الأمور وصفارها .. حتى تلاقينا فتغيرت نظرتى للأمور واستشعرت بأن ما فاتنى من حياةٍ قد مر فى فراغٍ وسخف .. وتعلمت على يديك أن المرء رسول نفسه فيجنى ما قدمت يداه .. وأن الزيف كل الزيف فى من عمد إلى ماله أو حسبه ونسبه فيتخذه رسولًا مدللًا عليه .. وتعلمت على يديك أن الصور البراقة غالبًا ما تخدع وأن الصدق كل الصدق فى ما

خفى وراء تلك الصور .. لقد تغيرت على يدك يا شريف .. فعمدت إلى الانقطاع عن كل الناس إلا أنت .. وانتهت صلاتي بمن حولي إلا صلتى بك .. حتى رحلت في سفرٍ بعيد .. فعدت صديقاتي القدامى عسى أن أجد لديهم سلواى .. ولكن كانت الفجوة بيننا قد اتسعت فأخذوا يعجبون من صمتي الكثير .. وحرزنى الجلى .. وشرودى البعيد.. وكنت أستطيع على الرد على تساؤلاتهم .. وماذا أقول لهم؟ وإن جاوبتهم هل سيتفهمنى .. لا أعتقد .. فما أعانيه من شروءٍ وحرزٍ وألمٍ ولوعةٍ كل هذا يا صديقاتي لأننى .. أحب.

طوى شريف الخطاب فور سماعه طرقاتٍ على باب حجرته فأسرع يخفى الرسالة بين أوراقه ثم نادى على الطارق أن يدخل فدلف إلى الحجرة جندى تقدم منه وقال له: هناك رسالة عاجلة وصلتك من قيادة الجيش يا سيدى.

تناول شريف الرسالة وقرأ نصها حضرة الصاغ محمد شريف بك .. فور وصولك مكتوبنا فلتقم بتسليم أغراضك ومتعلقاتك لقائد وحدتك وتعمد إلى الركوب من فورك والحضور إلى قيادة الجيش بالقاهرة للضرورة القصوى وعلى وجه السرعة.

أعاد شريف قراءة الرسالة ثم قال فى اضطراب: خيراً إن شاء الله.

وصل شريف إلى القاهرة وذهب من فوره إلى قيادة الجيش فوجد بها أمراً له بسرعة التوجه إلى مكتب ناظر الجهادية .. فأسرع بالتوجه إلى هناك حيث استقبله أحمد باشا المنكلى بنفسه ورحب به ثم أخبره بالغاء انتدابه لفرقة الشاويشية ورجوعه إلى وظيفته السابقة بيوران سليمان باشا وسلمه مكتوباً يفيد ذلك فحياه شريف وأسرع بالانصراف من مكتبه

.. وذهب إلى عمله السابق حيث سلمهم المكتوب فرحب به زملاؤه أَيَّامًا
ترحيب ثم انصرف من فوره إلى بيت سليمان باشا الذى استقبله بحفاوةٍ
بالغةٍ وترحابٍ كبير فأطلعه على حاله وما كان من أمره فتعجب الباشا من
الأمر ولكنه تغاضى عن تلك الأحداث فرحًا بعوده شريف .. ثم نهض
الباشا ليخبر ابنته فريال بعودة خطيبها من غربته فلم تتمالك نفسها من
شدة الفرح وهولت مسرعة لتراه .. وكان اللقاء بين الحبيبين العاشقين
مليئًا بالمشاعر والأحاسيس التى تعجز الكلمات عن وصفها .. حيث انهمرت
العبرات من العيون تعبر عن ما يعجز اللسان عن وصفه والتعبير عنه ..
وبعدما هدأت نفسيهما وأنست كل روح بلقاء وليفها واطمأنت بقربه ..
روى كل منهما ما كان من أمره فى غياب الآخر ودخل سليمان باشا
وشاركهم الحوار .. واستمر بهم الحال ساعةً من الزمن استأذن بعدها
شريف فى الانصراف .. ثم كان بعد يومان أن تلقى شريف نبأ إلحاق 6000
من الجنود الأرتنووود بصفوف الجيش على حساب الجنود المصريين فنارت
ثائرته على هذا القرار الظالم وحاول التدخل لدى سليمان باشا لمنع هذا
الأمر فأخبره الباشا بأن الأمر صادر من الوالى شخصيًا وصدق عليه أحمد
المنكلى باشا دون أن يملك من القرار شيئًا فانصرف شريف غاضبًا وقد
أضمر فى نفسه اتخاذ قرارًا حاسمًا.

وفى اليوم التالى حيث ذهب لزياره خطيبته وبينما هما جالسين فى
صالون القصر إذ دخل عليهما سليمان باشا وبان الحنق على وجهه وهو
يقول لابنته: أريد ان أتكلم مع شريف فى بعض الأمور على انفراد.

نهضت فريال وهى تنظر إلى شريف فى قلق فوجدت وجهه جامدًا لا
تستبين من ملامحه شيئًا فخرجت يلتمها القلق .. وما أن ابتعدت حتى
قال سليمان باشا بحدة: ماذا فعلت اليوم بوحدتك يا شريف؟

أجابه شريف في ثبات: لقد قدمت استقالتي يا سعادة الباشا.

سليمان باشا: ولمَ فعلت هذا؟

شريف: اعتراضاً منى على سياسات الوالى بحق الجنود المصريين.

سليمان باشا: هكذا بدون أن تشاركنى بقرارك ألا تذكر أننى حموك
وتصرفاتك تعود بالتبعية على؟

شريف: إننى لم أطلعكم على خبيثة نفسى حتى لا أضعكم فى أى حرج
يحتمه عليكم منصبكم الرفيع.

سليمان باشا: وهل بموقفك هذا لا تضعنى فى الحرج .. أتحسب أن
فعلتك تلك لن يصل صداها إلى أعلى المستويات.

شريف وهو يبذل وسعه للالتزام بهدوء أعصابه: إننى مسؤولٌ عن
تصرفاتى يا باشا اختياراتى تقع عواقبها علىّ وحدى وأعتقد أننى قد
اتخذت لنفسى سبيلاً منفرداً بعيداً عن شخصكم المرموق .. وبات هذا
جلياً وقت نفي من القاهرة حيث نأيت بمقامكم عن التدخل فى أمرى
وتصرفت فيه كأى فردٍ من أقرانى.

سليمان باشا: وهل تنصب نفسك وصياً على قرارات الوالى وأنت لا
زلت ضابطاً صغيراً فى مقتبل العمر؟

شريف: عمر المرء لا يقاس بسنه يا باشا بل بما حققه فيه .. ومواقفه
التي يعمد إليها بحياته هى ما تُزيد من احترامه لنفسه وتشكل شخصيته.

سليمان باشا: إن الوالى هو من أمر بإلغاء انتدابك .. فكيف يكون
جزاؤه منك الاعتراض على أوامره بهذا الشكل الفجّ.

شريف: لقد فعل ما فعل لعلمه بمصاهرتى لجنايبكم .. أما استقالتي
فهي اعتراضٌ منى على قرار استبعاد الجنود المصريين.

سليمان باشا بحقنق: هل تحسب أنك الوحيد الذى ضد هذا القرار
إنك لم تخالط الجنود المصريين كما فعلت ولم تشاهد حسن بلائهم
بنفسك كما فعلت ولكن ما منعى من الاعتراض على هذا القرار علمى بأنه
قرار سياسى أكثر منه عسكرى فالوالى لجأ لهذا القرار إرضاءً للسلطان
العثمانى الذى لم ينسَ بعد ما فعلته به تلك الجنود الأشاوس من دحرمهم
لجنوده الأتراك المتكبرين وهزيمتهم فى عقر دارهم وكادوا يدخلون قصره
ويقوضوا أركان ملكه .. لا زال السلطان يذكر تلك الأحداث ويتحين
الفرصة لتشريد تلك الجنود انتقامًا منهم لما فعلوه فوجد فى شخص
الوالى الضعيف الفرصة سانحة فأصدر له أوامره بهذا الخصوص فامتثل
الوالى لأمره حتى ينال رضاه ويؤازره فى تحقيق مصالحه.

شريف مندهشًا: كل هذا تعلمه يا جناب الباشا من تدابير مشيئة ..
ولا ترتضى قرارى الذى اتخذته.

سليمان باشا: إنها سياسة الدولة التى أنت فردٌ من أفرادها .. وعليك
الامتثال لقراراتها أو الخروج من عبائتها.

شريف بحدة: عن أى سياسةٍ تحدثنى يا سيدى .. أى سياسةٍ تلك التى
تبيح تشريد آلاف الجنود ومن ورائهم عائلات ستببت على الطوى لا تجد
ما تنفقه .. أى سياسةٍ تلك التى تستبدل الجنود الذين أثبتوا كفاءةً فى
النزال شهيد بها القاصى والدانى بجنودٍ متشرذمين يغلب عليهم التعالى

والتكبر وعدم الانصياع لنظامٍ أو انضباط .. أئىً سياسةً تلك التى تلزم بمنع أبناء البلاد من حمل السلاح وتمكن غيرهم من حمله .. أئىً سياسةً تلك التى تجعل من المصريين أهل البلد وأصحاب الدار عبيداً عند الأعراب.

كان يتحدث فى انفعالٍ كبيرٍ وقد احتدت نبرات صوته وارتفع إيقاعها وقد لاحظ هو ذلك فصمت فى حرج .. وساد الصمت برهةً طويلةً من الزمن ثم تحدث سليمان باشا قائلاً: عندما تقدمت طالباً يد ابنتى كنت وقتها صاعماً بالجيش المصرى .. أما الآن فأنت أصبحت بدون عمل .. وهو الأمر الذى يحتم على عدم استقبالك فى منزلى بعد الآن حتى تُصلح من اعوجاجِ حالِك .. وتمكن لابنتى ما يليق بها من سبل الحياة الكريمة.

ونفض منهيًا اللقاء .. وأتمى معه سبيل الوصال الذى كان يرقل فى نعيمه قليين عاشقين.

وصل إلهامى إلى الأستانة ولبث بها ثلاث أيام عانى خلالها كثيرًا وهو يحاول جهده التوصل إلى طريقةٍ تتيح له لقاء الوصيفة شذى دون جدوى .. وفى اليوم الثالث بينما هو يسير فى حديقة القصر وجد جاريةً تشير له من طرفٍ خفيٍّ فاقرب منها فى حذر فقالت له: إن الوصيفة شذى تخبرك بأنها ستكون بحديقة القصر الجنوبية بعد عصر اليوم.

شكرها إلهامى وأسرع إلى حجرتة ليجمع شتات نفسه غير مصدق أنه سيرى من جديد محبوبته وينعم بوصالها .. ثم تذكر لقاءها السابق وما طلبته منه بحسم أمره فى مطلبه للحكم فعاوده الكدر وقد تذكر كلمات نوبار أفندى عن سمو الهدف ونبل المقصد .. ولبث فى حيرةٍ من أمره حتى حان الموعد فانطلق من فوره إلى المكان المنشود وجال فيه بناظره فأبصر

فتاته من بعيد واقفة وحدها في انتظاره ففرع إليها وقال لها في سعادة: لا
أصدق عيني بأننى قد رأيتك من جديد بعد كل هذا البعاد.

شذى بصوتها الرقيق: كيف مرت عليك تلك الأيام المنصرمة بدون
رؤيتى يا باشا؟

إلهامى: كانت أطول أيام عمرى عانيت فيها الأرق والسهاد ليلاً وإخفاء
مشاعرى وشدة كدرى عن من حولى نهائاً.

شذى بدلال: يالك من مسكين أكل هذا من بضعة أيام قلائل.

إلهامى فى هيام: لقد مرت علىّ كدهرٍ كامل .. مرت علىّ مرورها على
الجسد الميت وكيف لا وأنتِ روحى التى بين جنبيّ.

شذى فى جدية: لا يجدر بك هذا الكلام يا باشا وأنت لم تحسم أمرك
بعد فيما طلبته منك.

نظر إلهامى لعينها قائلاً: ومن أخبرك بأننى لم أحسم أمرى بعد؟ لقد
اتخذت قرارى بشأنٍ مطلبك.

اضطربت شذى فى وجل وهى تقول: وما هو قرارك الذى توصلت إليه؟

رفع إلهامى رأسه وأخذ نفساً عميقاً وهو يقول فى حسم: سأترك
المطالبة بالولاية وأبتعد عن كل ما يمت لها بصلة.

شذى: لا تتسرع يا باشا فعلى قدر سعادتى بقرارك هذا إلا أننى أعظك
أن تكون من النادمين على ما فرطت من حظوظ فتعيش بعدها فى ضيقٍ
وتبرمٍ على ما فاتك وتلقى بتبعية ذلك علىّ.

إلهامى بصدق: لقد فكرت في كل شيءٍ وحسنت أمرى .. إن حياة المرء في سعادة وهناء مع من يحب لا تقدر بكنوز الدنيا ومناصبها الزائلة.

وشرد بفكره وكأنه يحدث نفسه: أما بخصوص نوبار أفندى وكلامه فقد توصلت إلى أن الإسلام دين الله وهو القادر على حمايته وتمكينه بدون عبد ضعيف مثلى قد يفتنه هذا الملك ويجعله يقترف من الأثام ما يخرج من الملة أصلاً .. فقررت الابتعاد عن السياسة لمن يتصارع عليها علَّ نفوسهم تشبع وما أظنها وأنجو بنفسى من مستنقعها الأسن أنشئ أسرتى الصغيرة على الخير وحب العمل الصالح بعيداً عن الرياء والتزلف للغير وأطبق على نفسى وعائلى تعاليم الدين الحنيف دون مغالاة ولا تنطع.

كانت شذى تنظر له غير مصدقة لما يقول تغمرها سعادةٌ بالغة تملكك عليها وجدانها فأسرعت تقول له: لا تستطيع أن تدرك مدى سعادتي بما أسمعك منك الآن.

وتابعت في انطلاق: لقد اتخذت قرارك بإرادتك وصار من حقل الآن أن تحصل على المفاجأة التى أعددتها لك؟

تسائل إلهامى مبتسماً: عن أى مفاجأة تتحدثين؟

أجابته شذى: عن حقيقة كنت قد أخفيتها عنك طوال الفترة السابقة حتى أتبين صدق مشاعرك تجاهى.

زادت حيرة إلهامى إلا أنها قد صفقت بيديها فوجد عدد كبير من الجوارى يهرعون نحوهم وهم ينحنون في أدبٍ بالغٍ في حين اصطف الأغوات خافضى الرؤوس.

وقف إلهامى فى حيرة وقال: لا أفهم ما معنى هذا!

فتقدمت جارية حسناء منهم وانحنت فى أدبٍ جَمِّ دون أن ترفع عينها إلهم فقبلت طرف ثوب شذى وقالت: أوامرك يا مولاتى السلطانة فاطمة.
ربتت السلطانة فاطمة على كتف جارتها وقالت محدثة إلهامى: أقدم لك وصيفى الأولى شذى.

نظر إلهامى غير مصدق وقال: ماذا تعين؟ .. أنتِ السلطانة فاطمة ابنة مولانا السلطان عبدالمجيد.
أجابته السلطانة فاطمة باسمه: نعم.

صاح إلهامى بغضب: ولمَ كل هذا؟ لِمَ أخفيتِ عنى حقيقتك كل هذا الوقت؟ أنتِ بفعلتك هذه قد خسرتينى يا شذى .. أقصد يا سلطنة.
وانصرف غاضبًا وتركها خلفه تترقق دموعها من عينها فى حزنٍ وخيبة أملٍ بالغين.

فى قصر الوالى وفى إحدى الليلالى التى كان يقيم فيها داخل جناح الحرمك فى غرفة برلانته قادين حيث بات يقضى ليليه فى جناحها الخاص وفى إحدى تلك السهرات أعدت صحفة العشاء يُحمل عليها ما لذ وطاب من مختلف أصناف الطعام حيث خَرَجت من مطبخ القصر يحملها أغا قد تم تعيينه حديثًا فى الخدمة فحمل الأغا الصحفة وانطلق يهرع بها داخل أروقة القصر ثم تلفت حوله فلما وجد نفسه وحيدًا تنحى جانبًا بحمله وأخرج من طيات ثيابه زجاجةً صغيرةً نَثَرَ محتوياتها على الأطباق

المصفوفة أمامه ثم أخفى الزجاجاة ثانية وانطلق حتى وصل إلى طابق الحرمك فتسلم الصحيفة منه أغا آخر تقدم بها حتى مخدع الوالى الخاص فسلمها إلى خليل أفندى أغا باب الوالى الذى طرق باب حجرة برلانته قادين وأشار إلى بعض الطواشى فحملوا عنه الصحيفة وأدخلوها إلى مجلس الوالى ثم انصرفوا حيث كان عباس باشا يحدث برلانته قادين قائلاً: لكم أحسد نفسى على وجودك بجانبى يا برلانته .. فبفضل مشورتك سافر ابنى إلى الأستانة وفاز برضا السلطان وإن ما خططنا له وتمنيهاه فى سبيله إلى التحقيق .. ونمت مرتاح الضمير بعدما تصدقت على كل أسر الخدم والحراس الذين استشهدوا على يد هذا الأحمق طاهربك.

برلانته: ولكنك كافأته يا مولاي بعدما حققت له مراده بإرجاع طائفته وبنى جنسه إلى داخل الجيش مرة أخرى.

عباس: هنا فضلت أن أصيب الهدفين بسهم واحد .. فمن جهة أحقق مطلب السلطان العثمانى بإبعاد الجنود المصريين عن الجيش ومنعهم من حمل السلاح .. ومن جهة أخرى أؤخرس هذا الجزار وطائفته بتحقيق مأربه وحتى لا يتحدث بما لا يليق.

برلانته: وهل يحق له أن يتحدث بما لا يليق؟ إنه إذن يشكل خطرًا كبيرًا عليك يا سيدى.

عباس: إن خطر طاهر هذا وطائفته ليس علىّ وإنما على أبناء الشعب فهم كالضباع المقيدة بالأصفاة فإذا ما انكسرت قيودهم انطلقوا يعيشون فى الأرض الفساد ويملئون الأرض جورًا وظلمًا.

برلانته متعجبة: أتعلم عنهم كل هذا يا مولاي وبالرغم من ذلك فككت عقالهم وأطلقت يدهم تنشر فى الأرض الفساد.

عباس: إنهم يعلمون جيدًا أن من أطلق يدهم لقادر على قطعها لهم
وما مذبحه القلعة منهم ببعيد إلا أنى أبقى عليهم لأستخدمهم كسلاحٍ
خَفِيٍّ أَسْلطه على أعدائى دون أن يشار إلى من قريبٍ أو بعيدٍ إلى جرائمهم
التي تقع عواقبها على رؤوسهم وحدهم.

برلانته: وتتحدث عن حسن مشورتى و ذكائى يا مولائى .. إن عقلى وما
يحتويه لهو قبسٌ من نور حكمتك يا حبيبى.

طرب عباس لقولها قائلاً: إن كلامك هذا يزيد من شوقى إليك فلا
أملك صبرًا أن يمر يوم دون رؤياك والتمتع بكلامك الجميل.

ضحكت برلانته فى دلال وهى تقول: أكلامى الجميل فقط هو ما يزيد
شوقك لى؟ وماذا عن وجهى أليس له أثرٌ فى افتتانك بى.

عباس فى ولع: إن كل ما فىك يزيد من افتتانى ويحرك مهجتى.

وهم بتقبلها إلا أنها قد فرت بخفة من بين يديه وهى تقول: إن الطعام
لازال ساخنًا شهياً فلنتناوله قبل أن يبرد ويصبح رديئاً.

واتجهت إلى صحيفة الطعام الموضوعه على مائدةٍ منخفضةٍ بوسط
الحجرة فجلست أمامها فنظر لها عباس مبتسماً وهو يقول: إنك دائماً ما
تزيدى لهفتى إليك بهذا التدلل كالطفلة الصغيرة.

ثم نهض وجلس بجوارها ليتناول العشاء .. العشاء المسموم.

جلس عباس باشا وقد كشف عن ساعديه أستعدادًا لتناول الأَصْناف الشهية المرصوفة أمامه على طاولة العشاء، في حين قالت له برلانته قادين: إن أسعد أيام حياتي يا مولاي هي التي نذهب فيها إلى قصر الدار البيضاء حيث نكون هناك بمعزلٍ عن الناس ووقتها فقط أشعر بأنك لى وحدى لا يشاركنى فيك أحد.

نظر لها عباس مبتسمًا وهو يقول: إذا ما كان هذا الأمر يسعدك فأعدك بأننا سنذهب إلى هناك في أقرب وقت .. وفى القريب العاجل نذهب إلى القصر الكبير بالعباسية حيث سيكون تحفة فنية تتحدث عنها الأجيال القادمة لسنواتٍ طوال.

ثم تابع وهو ينظر لها في افتتاح: لكن أجمل ما سيكون في هذا القصر هو أنت .. إن المكان الذى تقيمين فيه يا أميرتى لهو أجمل الأماكن وأفضلها إلى قلبى .. لقد بنيت هذا القصر ليكون المقر الدائم لإقامتنا بعيدًا عن كل ما يعكر علينا سعادتنا.

صاحت برلانته في فرح: أحقًا يا مولاي سيتحقق حلمى وأقيم معك في مكانٍ واحدٍ خاص بنا وحدنا لا يشاركنا فيه أحد .. إن هذا لاكثر خبر سعيد سمعته في الأونة الأخيرة.

أجابها عباس: إن نظرات السعادة المطلة من عينيك هاتين لى عندى بالدنيا وما فيها.

نظرت له برلانته بسعادة قائلة: أسعد الله أيامك يا حبيبي إننى اشعر أن الأيام القادمة تحمل لنا كثيرًا من الأخبار السعيدة الهائلة خاصة وأننى أعد لك مفاجأة كبيرة ستزيد من فرحك كثيرًا.

عباس متسائلاً بفضول: عن أى مفاجأة تتحدثين يا ملاكى؟

سَعِدَتَ بأنها قد نجحت فى إثارة فضوله وقالت بحبور: وكيف ستكون مفاجأة إن أخبرتك عنها الآن ولكننى أعدك بأنها مفاجأة ستدخل السرور إلى قلبك كثيرًا.

عباس: أنتِ دائماً ما تدخلين السرور إلى قلبى يا حبيبتى .. فأنتِ أقرب الناس إلى قلبى.

ثم تابع وهو يقتطع جزء من الخبز الذى أمامه قائلاً: هيا إذن نتناول عشاءنا قبل أن يبرد كما قلت منذ قليل.

وَهَمَّ بأن يضع قطعة الخبز فى فيه لولا أن قاطعه صوت طرقات على الباب .. فنظر إليه متبرماً ثم نادى على الطارق أن أدخل .. فدخل الأغا خليل وهو خافض الرأس قائلاً: معذرةً يا مولاي .. ولكن هناك أمر عاجل أود ان أطلع فخامتكم عليه.

عقد عباس حاجبيه فى ضيق وهو يقول: أما ينتظر هذا الأمر إلى الصباح يا خليل؟

أجابه خليل: إن الأمر خطير ويجب أن نحيط علم جنابكم به.

نهض عباس وهو يقول له: خيرًا يا خليل؟

اقترب خليل وقال بصوتٍ خفيض: هناك خبر سيءٌ يا مولاي.

زجره عباس بغلظة قائلاً: أسرع يا خليل وأخبرنى ماذا جرى قبل أن ينفذ صبرى.

خليل أغا مرتعدًا: إن الجواد الذى كان مريضًا صباح اليوم يحتضر الآن يا مولاي وهناك جواد آخر يعانى من نفس الأعراض.

ظهر الغضب والانزعاج الشديد على وجه عباس وهو يقول: كيف هذا ألم يحضر الحكماء صباح اليوم لمعالجة الجياد؟

ثم خرج مسرعًا من الحجرة قائلاً: أرنى كيف حدث ذلك؟

هرع الأغا خليل خلفه وهو يقول: لا نعلم يا مولاي لقد جاء الحكماء صباح اليوم وقالوا أنهم قاموا باللازم ولكن حالة الجواد ساءت كثيرًا.

دخل عباس باشا إلى إسطنبول خيله وهو يرتجف قلقًا على جياده والتي كانت تتميز بأنها أفضل أنواع الجياد على مستوى العالم فقد كان يصرف على اقتنائها الكثير من الأموال ولا يبالي بما تتكبده خزينة الدولة من أعباء فى سبيل الحصول على أندر السلالات وأجودها .. وما أن وصل عباس إلى إسطنبول وعاین وضع الجواد وتأكد من صدق الخبر وأطلع على حال الجواد الأخر وما حل به فثارت ثائرتة واحمر وجهه غضبًا وهو يقول: أقسم على معاقبة كل أولئك الأطباء البيطرين .. سأغلق مدرستهم التي يقتاتون منها دون أن يؤديوا عملهم .. أولئك الصعاليك الأوباش أولاد الأوباش .. كيف يهملون فى خيلى على هذا النحو؟

وأخذ يسب ويلعن وهو فى طريق عودته إلى الحرملك حيث وصل إلى جناح برلانته قادين وما أن خطا داخله حتى سمع صوت صراخ ووعويل فانطلق إلى داخل الغرفة فوجد أمامه برلانته قادين ممددة على الأرض بجوار مائدة الطعام التي تناثرت محتوياتها بأرض الغرفة بينما تجلس بجانبها جاريتها الخاصة فى حين وقف الأغوات ينظرون عاجزين لا يعلمون

ما يفعلون فنحاهم عباس باشا جانبًا بعنف وصاح في الجارية قائلاً: ماذا حدث لبرلانته قادين؟

قالت المرأة من وسط دموعها: لا أعلم يا مولاي لقد كنت أمر أمام الحجرة حين سمعت صوت أواني تتحطم بالداخل فخشيت أن يكون هناك مكروهًا أصاب برلانته قادين فدخلت إلى الغرفة مسرعة فوجدت السيدة منكفئة على وجهها بأرض الغرفة فناديت على الأغوات.

جلس عباس بجانب برلانته قادين ووضع رأسها على قدمه وهو يصيح: أين الحكيم؟ أسرعوا بإحضار إبراهيم الحكيم فورًا.

أسرع الأغوات بتنفيذ الأمر في حين .. أخذ عباس يمسح على رأس جاريتة في حنان وهو يقول وقد فاضت عيناه بالدموع: ماذا حدث لك يا أميرتي .. ماذا فعل بك الأوغاد .. أتتركيني في هذه الحياة أعانى وحيدًا الأم والفرق والوحدة.

حركت برلانته قادين شفقتها متممة ببعض العبارات فأحى عباس رأسه ليستبين قولها فرددت: جعلت فداءً لك يا مولاي الحمد لله أنك لم تتناول من هذا الطعام المسموم وقذف في نفسي أنك ستتأخر بالخارج .. وألهمنى أن أتناول منه قدرًا ضئيلاً أتبلغ به قبل عودتك .. فجعلت فدائك أنا وابنك الذى فى بطنى.

صاح عباس: ابني .. تقولين ابني يا برلانته.

حاولت برلانته أن تبتمس في ضعف وهى تقول: نعم يا مولاي لقد كانت هذه هى المفاجأة التى كنت أخفيها عنك .. وما كنت أحسب أن القدر

قد كتب على أن الطفل الذى انتظرته كثيرًا ليتوج به حبنا ما قدر لى أن أحمله إلا وأنا أَلْفِظ أنفاسى الأخيرة.

عباس وهو يحتضنها فى لوعه: لا يا برلانته لن يحدث هذا أبدًا كان لابد أن أكل معك من هذا الطعام حتى أشاركك نفس المصير.

برلانته: حفظك الله يا مولاي وحمالك من كل شرٍ وسوء.

ثم قالت فى إعياى شديد: خذ حذرك يا مولاي إن من فعل هذا سيعيد الكرة لينجح فيما فشل فيه اليوم.

عباس وهو ينشج باكياً: أتحذرينى وأنتِ فيما أنتِ فيه .. يا لهفى عليك يا حبيبتي .. تمسكى بالحياة من أجلى .. تمسكى بالحياة حتى نذهب سوياً لقصرنا الجديد .. تمسكى بالحياة من أجلى ولا تركينى أواجه خصومى بدون عقلك وفطنتك التى كانت تهدينى دائماً إلى سبل الرشاد.

استجمعت برلانته كل طاقتها لتبتسم له قائلة: لا وقت لذلك يا حبيبى فعندى طلب أخير أطلبه منك قبل الرحيل أود أن تحققه لى

بكى عباس بحرقه وهو يقول: سلى ما تشائين يا أميرتى.

جاهدت برلانته لتقول: أود أن تجمع كل الهديا من المجوهرات والحلى والأموال الخاصة بى فتنفقا جميعاً على مسجد السيدة زينب الذى كنت تنوى وضع حجر أساسه عما قريب وإقامة سبيل ينتفع به الناس ويكون لى أجره بإذن الله.

قال عباس من بين دموعه: ستقومين وتشرفين بنفسك على بناء هذا الوقف يا حبيبتي.

وصل الحكيم إبراهيم النبراوى فصاح عليه عباس: أسرع يا إبراهيم ..
أسرع بالله عليك.

وتنحى جانبًا مفسحًا المجال للطبيب الذى انحنى بجوار جسد برلانته
إلا أنه لم يلبث دقائق حتى رفع للوالى عينين آسفيتين وهو يقول: لقد
أسلمت الهانم الروح لبارئها يا أفندينا.

أمسك عباس بتلابيبه وهو يصرخ به كالمجنون: كيف تقول ذلك يا
إبراهيم .. افعل شيئًا يا حكيم ولا تقف عاجزًا هكذا .. اسمع .. استخدم
معارفك وعلومك كلها وسأهب لك ما تشاء من ملكى ولكن أعيدها لى.

أزدرد إبراهيم لعابه وهو يقول فى أسف: أستغفر الله يا مولانا .. إن
الطب يقف عاجزًا أمام إرادة الله عز وجل .. فالسم الذى تناولته شديد
الفتك سريع المفعول .. فليأجرك الله فى مصيبتته ويخلفك خيرًا منها.

ودخلت من باب الحجرة ماهوش قادين أم الأمير إلهامى وفى أثرها بنبة
قادين والدة عباس التى أطلقت صرخة إرتياح فور رؤيتها للمشهد المشؤوم
كل هذا وعباس باشا فى ذهول عنهم يردد بجوار الجسد المسحى أمامه: كان
يجب أن أكل معها من هذا الطعام .. كان يجب أن أموت معها الآن.

كان إلهامى لا يدرى شيئًا من تلك الأحداث الجسام التى وقعت
بالمحروسة .. حيث كان جُلَّ تفكيره أن يجد الحجة التى تمكنه من مغادرة
الأستانة والعوده سريعًا لمصر .. فقد كان يشعر بأنه تعرض للخداع
والكذب من قبل فتاةٍ لعوبٍ مدللة .. وقد أضحى المكان بكل ما فيه يذكره
بما حدث له وصارت لديه حساسية شديدة تجاه نظرات الآخرين له ..

وبات يشعر أن كل من بالقصر يتحاكون ويتغامزون على الأمير الأبله الذى جاء من مصر ليصير تسليية حريم القصر وجواريه .. وكان كلما مر على قوم يتحدثون فيما بينهم يشعر أنهم بسيرته يتندرون وفي شخصه يخوضون فعكف داخل حجرتة لا يبرحها .. ولبث على تلك الحالة يومين في بؤسٍ شديد .. ثم جاء اليوم الثالث وقد عزم أن يغادر القصر والأستانة كلها وبينما هو منشغلاً بجمع أغراضه سمع بضعة طرقات على باب حجرتة فاتجه إليه وفتحه ولكنه لم يجد أحداً أمامه وأخذ ينظر يمنة ويسرة فلم ير أحداً فهَمَّ بغلق الباب لولا أن وجد أمام باب الحجرة رسالة مطوية فأخذها إلى داخل حجرتة وقرأ بها "حضرة إلهامى باشا .. أعلم ما يجول برأسك من ناحيتى .. وأشعر بمدى ما سببته لك من ألمٍ وحزن .. ولكن إن كنت لازلت تكن لى أى مشاعر من التى كنت تحدثنى بها فأرجو منك أن تقابلنى اليوم فى نفس المكان السابق وذلك بعد ساعة الغداء"

وقف إلهامى يتطلع إلى الرسالة التى بين يديه وهو يشعر بالغضب يعتره ثم أخذ يزرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهو عاقداً حاجبيه مفكراً لدقائق حتى عزم أمره على الذهاب إلى تلك السلطنة الالهية فيلزمها حدها ويوبخها على ما كان منها فى حقه ثم يعود فيذهب إلى السلطان ويأخذ الإذن منه بالرحيل فى الغد ويطوى تلك الصفحة من حياته للأبد .. وبعد عدة ساعات وفى الموعد المحدد ذهب إلهامى إلى الحديقة الجنوبية بالقصر فوقف فى نفس المكان السابق ولم يلبث إلا لحظات حتى أقبلت عليه السلطنة فاطمة تتبعها وصيفتها شذى فتقدمت منه السلطنة فى حين وقفت الوصيصة على بُعدٍ منهما وهى تتطلع حولها حتى تلحظ أى قادم فتحذر سلطانتها من فورها.

ووقفت فاطمة أمام إلهامى الذى انحنى أمامها فى سخريةٍ بالغة وهو يقول لها بإنفعالٍ جلى: هل هناك كذبة جديدة تريد حضرة السلطانة أن تخدم بها الفتى الساذج؟ أم أن هناك تكملةً للعبة التى بدأتها فخامة السلطانة ولا تريد أن تهتما الآن حتى لا تصاب .. عافاها الله .. بالملل؟

صمتت فاطمة أمام غضبه الشديد للحظات ثم قالت: لا أعلم ما جعلك تظن بى هذا الظن وأنت تعلم كيف تلاقينا أول مرة وفى أى ظروفٍ تعارفنا .. أتذكرك يا باشا أم لعلك قد نسيت؟

عقد إلهامى حاجبيه مفكرًا للحظات .. فلم تمهله فاطمة وتابعت: لقد أفقت من إغمائى فوجدت نفسى بين يدي فارسٍ غريبٍ يتطلع لى فخشيت أن أخبره عن حقيقتى وأنا لم أعلم عن نواياه شىء بعد .. هل تعلم يا باشا كم الأعداء الذين يتربصون بنا أبناء السلطان عبدالمجيد خاصة وأفراد الأسرة العلية يتحينون الفرصة حتى يغمدوا خناجرهم المسمومة بصدورنا؟ هل تعلم يا باشا لم عزمت أمرى ألا أتزوج من رجل يرتبط بالملك؟ لأننا نعيش حياة تمتلئ بالخوف والرعب .. حياة قوامها التوتر والرهبة .. فعزمت ألا ينشأ أولادى فى تلك البيئة الضارة .. أريد ان أنجب أبناءً ينعمون بالحرية والسلام مثل أى أطفال آخرين ممن لا ينتمون إلى حياة القصور المليئة بالمكائد والدسائس.

كان إلهامى ينظر إلى عينيها وهى تتحدث فىرى الصدق جليًا فى قولها ولمس حديثها قلبه للحظات إلا أنه عاد يقول لها: كيف تظنين بى هذا وقد أنقذت حياتك ولو شئت بك الأذى لتركتك يومها كى تسقطين من على صهوة الجواد الجامح؟

فاطمة: لقد شُلَّ تفكيري وقتها عندما أفقت فوجدتك أمامي تنظر إليَّ في فضول .. فحدثتني نفسي بأن أخفى عنك حقيقتي وأخبرك بأنني مجرد وصيفةٌ تعمل بالقصر.

قال إلهامى بحدة: لا تراوغيني يا سلطانة لقد صارحتك بحقيقة مشاعري وأخبرتكم بمكنون نفسي واعترفت لكِ بنبل هدي في كل هذا وأنتِ مستمرةٌ في خداعي والكذب على.

فاطمة: أقسم لك أنه ليس بالأمرأى خداعٍ أو كذبٍ لقد صارحتك أنا الأخرى بحقيقة مشاعري تجاهك وقابلت عرضك بالموافقة .. ولكني أردت التأكد من حقيقة مشاعرك وكان دليل حبك لي أن تتخلى عن طلب الولاية والحكم وكانت موافقتك حينها ستكون أصدق وأعمق إن فعلتها من أجل الوصيفة شذى وليس من أجل السلطانة فاطمة.

قال إلهامى: أتخدعيني من أجل أن تتأكدى من أنى لا أريدك كسلطانةٍ ولكن أريدك لشخصك؟!!

السلطانة فاطمة وقد فاضت الدموع من عينيها: أقسم لك أنى ما أردت خداعك ولكنى كنت أريد الاطمئنان من صدق حبك لي .. إن حديثك يا إلهامى لا يزال يرن في أذنى كأجمل الألحان وقت حدثتني عن الأسرة التى تحيا في سلامٍ ومحبةٍ بعيداً عن صراعات الحكم لقد كنت تتحدث وقتها وكأنك تتطلع إلى داخل وجدانى وتنظر إلى مكنون نفسي فلا تنقض غزلنا قبل أن تنمه ولا تفرق قلبينا بعد تألفهما ومن أجل ذلك أقول لك بصدق أيمًا كان قرارك واختيارك .. إنى أحبك.

قالتها وفرت من أمامه كغزالٍ بَرِيٍّ شريدٍ وكما يحدث دائماً تركته
مبلبل الفكر حيراناً لا يهتدى من أمره سبيلاً.

وصل أحمد رفعت إلى قصر رأس التين بالإسكندرية ودلف إلى داخل
الهبوط الفسيح حيث استقبله عمه سعيد باشا في ترحابٍ بالغٍ وكان قد أعد
له جناحاً فخماً فور علمه بركوب ابن أخيه البحر قادمًا من اسطنبول،
وبعد حرارة الاستقبال ترك سعيد ضيفه ليستريح من وعناء السفر على
وعديّ باللقاء في المساء الذي اشتمل على مائده عشاء سلطاني أعد فيها ما
لذ وطاب من شتى أنواع المأكولات والمشروبات وبعد الفراغ من العشاء
انفرد سعيد بابن أخيه داخل غرفةٍ مستقلةٍ عمل على إغلاق أبوابها حتى
تتم لهما سرية الحديث الذي ابتدأه قائلاً: لكم تسعدني رؤيتك يا ابن أخي
وولى عهدي المستقبلى .. ولكنى أكاد أجزم أن هناك أسباباً جساماً كانت
وراء عدولك عن قرار هجرتك إلى الأستانة.

أحمد: لا أخفى عليك يا عم بأن ما دفعنى للعودة هو ذاك اللقب
الثانى الذى تفضلت وخاطبتنى به منذ قليل.

سعيد: تقصد ولى عهدي المستقبلى .. أليس هذا حقيقة وضعك يا
ابن أخى أم لعلك نسيت أنك أكبر أفراد العائلة من بعدى؟

أحمد: ما نسيت هذا الأمر أبداً ولكن عهدك وعهدى باتوا محل
التهديد يا عم .. وإننى لأعجب أنك ولى عهد البلاد لاتعلم بعد بما يُحَاكُ
ويدير من مؤامراتٍ خسيصةٍ للحيلولة دون حصولنا على حقوقنا فى حكم
البلاد.

سعيد: ومن قال إننى لست على دراية بهذا الأمر.. إن صديقى المسيو
دليسبس قد أطلعنى على مساعى عباس باشا الدؤوب للحصول على
فرمان من الباب العالى يتيح له حكم مصر ومن بعده ذريته ولكن حاشا
للسلطان العثمانى أن يصدر مثل هذا الفرمان الجائر فهو يعلم جيداً أن
ذلك القرار سيؤثر على السلطنة العثمانية كلها وليس على مصر فقط.

أحمد: وهل وصلتك الأنباء بخصوص ابن الوالى الذى قد بلغ عند
السلطان العثمانى منزلةً كبيرةً وصار من أصحاب الحظوة حتى أنى وأنا
على متن الباخرة تواترت الأنباء من السفن المجاورة لنا بموافقة السلطان
على تزويج ابنته للأمير إلهامى وقد أعددت مكتوباً ليوسف بك أستوضح
منه مدى دقة هذا الخبر.. وأرى يا عمى أن نتعامل مع هذا الخبر على أنه
صحيح ونتخذ التدابير اللازمة قبل فوات الأوان فعنصر الوقت مهم جداً
لمن يقتنصه ويسبق خصمه بعدة خطوات.

سعيد بغضب: لو صدق هذا الخبر لكان حصول الأمير على فرمان
الحكم أمراً محتوماً فليس أعز للمرء من فلذة كبده وطالما أن السلطان
لم يَضِنَّ بها على إلهامى فمن المؤكد أنه لن يَضِنَّ عليه بما هو دون ذلك.

ثم تابع وقد تذكر أمراً فقال: ولكن أعتقد بأنك لا تعلم بأن الوالى
تعرض بالأمس لمحاولة اغتيال كادت تودى بحياته ولكنه نجا منها
بأعجوبة.

نظر أحمد إلى عمه نظرة ذات معنى فصاح سعيد باشا: لا يا أحمد
ليس لى أى دخل بهذا الأمر.. ولا تنس أن تاريخى العسكرى يترفع بى عن
الاجتيال والظعن فى الظهر فإذا ما أردت أن أخذ روح هذا العباس ذهب
لعقر داره وأخذتها بيدي هاتين.

أحمد: يا عم إن الحكمة تقتضى ألا تتدخل فى الأمر مباشرة قبل التأكد من حصول الوالى على الفرمان الذى يبغيه من السلطان.

سعيد: أتريدنى أن أقف مكتوف اليدين وحقى يضيع منى يا ابن أختى والله هذا لن يكون.

أحمد: أنا لم أقل هذا يا عم ولكن عليك بدفع الأحداث فى الطريق الذى تبغاه ولكن من بعيد فلا تظهر على رأس الحدث قبل أن يتحقق لك المأمول والمرجو.

سعيد: إن كلامك يحتمل عده تأويلات يا أحمد فافصح بما لديك ولا تُورَى فى حديثك لى.

أحمد: لقد أعملت فكرى طوال مدة سفرى فيما يجب علينا اتخاذه من تدابير واهتديت إلى أن شخصاً فى منزلتك يا باشا من المؤكد أن يمتلك خلال مشواره الطويل علاقاتٍ وطيدةٍ برجال يدينون له بالولاء .. رجال كانت لك أيادٍ بيضاء عليهم ويريدون أن يردوا بعضها .. رجال تأمئهم على تنفيذ بعض المهام بدقةٍ واقتدار.

سعيد بتفكير: إن جُلَّ علاقاتى برجال البحرية كما تربطنى علاقاتٍ وطيدةٍ برجال فى مختلف المراتب الوظيفية بالإسكندرية.

أحمد بلهفة: إذن فقد حان موعد الاستفادة من تلك العلاقات المختلفة بإثارة الشغب ورفع راية التمرد داخل الإسكندرية ثم تنتقل حى التمرد إلى جميع ربوع البلاد حتى تسقط البلاد من يد الباشا المغرور ويقع فى براثن نيران الغضب الذى أوقدنا سعيره.

سعيد: نَعَمْ الرَّأى يا أمير سأصدر توجيهاًتى إلى خورشيد باشا محافظ الإسكندرية كي يبدأ بالتنفيذ فوراً.

أحمد: ويجب أن نبقى نحن بعيداً عن تلك الأحداث يا عم .. لذا فأجد أن من الأنسب أن نذهب بعيداً عن تلك الأحداث .. ومن اللائق أن نقضى تلك الأيام القادمة في قلب الهدف مباشرة.

ثم تابع وقد علت وجهه ابتسامة سخرية: عند الوالى حتى نقدم له واجب العزاء ونقف بجانبه في محنته حسب ما تقتضيه الأصول.

والتمعت عينا سعيد باشا وهو يتخيل ما سيحدث في الأيام القادمة ونهض حتى يبدأ في تنفيذ المخطط المنشود.

جلس إسماعيل حانقاً وهو يخاطب عمته نازلى هانم قائلاً: لقد أخبرنى يوسف بك اليوم أن السلطان عبدالمجيد قد وافق على تزويج ابنته من الأمير إلهامى.

نازلى: هل صارت إشاعات أمس حقيقة اليوم؟

إسماعيل: إن هذا سيعضد موقف الباشا في مصر إلى أقصى حد ويجعل فرص ابنه كبيرة جداً في الحصول على الحكم من بعده.

نازلى: لا أظن أن ذلك سيحدث أبداً .. فهناك ترتيبات كثيرة لا تزال بجعبتنا لمقابلة غي هذا العباس ومخططاته.

إسماعيل بضيق: يراودنى شعور دائماً بأنك تخفين عنى كثيراً من الأمور.

نازلى: أحياناً يكون فى عدم المعرفة الخير الكثير.

إسماعيل بحدة: إننى أمير من أمراء الأسرة العلوية وواحد من المضطهدين من الوالى الظالم فكيف لا تخبرينى بكل ما لديك؟

نازلى بابتسامةٍ حنون: يا إسماعيل إنك أكثر أبناء أختى إبراهيم قرباً من قلبى ولذا لا أريد أن تثقل كاهلك بما قد ينوء بحمله.

هَمَّ بالاعتراض عليها لولا أن دخلت الغرفة عليهما إحدى وصيفات الهانم فقالت وهى تنحنى باحترامٍ قائلة: معذره يا مقام العمه باشا ولكن هناك أغا واقف ببابكم يطلب مقابلتكم ويقول إن الأمر عاجلٌ وهام.

نهضت نازلى من فورها فى حين قال إسماعيل بفضول: هل أتى معك يا عمتى كى أكون بجانبك إن احتجت إلى؟

عقدت نازلى حاجبها الرفيعين فى صرامة وهى تقول: أنت تعلم أنى لا أحتاج لمعونة أحد يا إسماعيل.

وأسرعت إلى خارج الغرفة فوجدت أمامها رجلاً قد انحنى أمامها فى احترامٍ بالغ فأشارت إليه فتبعها إلى ركنٍ قَصِيٍّ حيث قال لها بانفعال: لقد نجا الوالى بالقاهرة يا جناب العمه باشا وجاريتته برلانته قادين هى التى ماتت بدلاً منه .

صاحت نازلى بشراسة: كيف يحدث هذا يا ملاعين لقد زللت لكم كل العقبات وأمددتكم بالأموال اللازمة التى تمكن لكم فتح الأبواب المغلقة دونكم بالقصر فكيف تخطئونه بعد كل ذلك.

ارتجف الرجل خوفاً وهو يقول: لقد ترك الوالى الطعام فى اللحظة الأخيرة لأمر طارئٍ قد أصاب خيوله فى حين تناولت الجارية من الطعام فماتت من فورها.

نظرت نازلى للرجل فى صرامةٍ قائلة: وماذا عن الفتى الذى نفذ العملية هل عثروا عليه؟

قال الرجل مسرعاً: لقد نفذ المهمة فتي صغير السن قام رجلنا بالقصر برشوته بالمال وحينما بدء الوالى تحقيقاً موسعاً فى الأمر كادوا يكشفون أمر الفتى لولا أن تدارك رجلنا الخطأ وقام بإصلاحه فقتل الفتى بيديه قبل أن تصل إليه يد الوالى.

نازلى: هذا سيجعلهم يشكون فى كل عمال القصر ويتخذوا حذرهم مما سيجعل مهمتنا من الصعوبة بمكان ولكن المهم الآن ألا تترك أى خيوط تدل على طبيعة المحرض .. وإلا أنت تعلم.

هز الرجل رأسه مرتجفاً وهو يقول: أعلم يا مولاتى .. أعلم.

فأشارت له بالانصراف ثم دخلت إلى الحجرة فوجدت إسماعيل فى حالةٍ مزرية وقد أخذ ينظر لها نظراتٍ فهمت مدلولها على الفور فقالت له: لقد تلصقت على حديثي يا إسماعيل وعلمت ما جرى أليس كذلك؟

لم يجيبها إسماعيل وازدرد لعبابه فى صعوبةٍ فتابعته فى قسوة: استمع إذن جيداً يا إسماعيل إن ما فعلته وأفعله وسأفعله هو من أجل العائلة

كلها والتي قد دنس هذا الوالى الخسيس ذكراها وخط من قدرها بعدما كانت متربعةً على قمة السيادة بالدولة العثمانية كلها وجعلنا نلجأ إليها بعدما كنا ملاذًا للفارين من بطشها .. ولقد كنت أخبرك منذ قليل بأن من المعرفة ما تنوء عن تحمله العصبية أولى القوة وها أنت ذا قد علمت ما أثقل كاهلك ولكن كما يقولون إن الفضول قتل القط .. فاعلم أن ما علمته اليوم وسمعته لن يغادر جدران تلك الحجرة .. وإن علمت أن هناك من علم بالأمر فلن أتحقق وسأخذ تداييري على أساس أنك من نشرت الخبر وأظهرته للعانية ووقتها ستجد امرأةً أخرى أمامك غير من تحدثك الآن .. هل كلامى مفهوم يا أمير؟

خرج صوت إسماعيل واهناً وهو يقول: هل تهددنتى يا عمى؟

قالت نازلى فى صرامة: إنى لا أهددك يا إسماعيل ولكن يجب أن تعلم جيداً أن الأمر أكبر منك وأكبر من أى شخص آخر .. إن الأمر يتعلق بميراث أبى العظيم محمد على وذلك الميراث ليس مجموعة من القصور والجواهر والأموال .. ولكنه ميراث القوة والجبروت والعظمة متمثلاً فى كرسى حكم بلاد النيل وسمعه سبّاقه بناها مع ولده إبراهيم مكنتهم من فتح كثير من البلاد دون قتال .. كان اسم محمد على وأبناءه عاليًا خفاً وسيعود هذا الاسم من جديد شاء من شاء وأبى من أبى.

استمد إسماعيل من كلماتها حماسه المعهود فنهض وهو يقول لها: اعلمى إذن يا عمى أنى سأكون أكبر داعمٍ لعودة تلك الدولة التى تحلمين بها .. فأنا أيضاً طالما حلمت بها وبأن أجعل بلاد النيل دولة من أفضل دول العالم بل أفضلها على الإطلاق.

أمسكت نازلى بمرفقى إسماعيل بشدة وهي تقول في قوة: ومنذ اليوم ستجندى داعمة لك في طريقك إلى حكم البلاد .. وسأجعل منك حاكمًا متوجًا على بلاد النيل كلها وسترى يا إسماعيل صدق كلامى .. سترى.

توافد كبار رجال الدولة لليوم الثالث على التوالي لتقديم واجب العزاء لعباس باشا في مصابه ويواسونه وقد اتخذوا مجلسهم عن يمين الوالى وشماله في حين جلس الوالى على أريكة وضعت بأخر المشهد فى الحديقة الغناء داخل القصر الكبير الجديد بالعباسية وقد أخذ الخدم يقدمون القهوة إلى وفود المعزين فى أكواب وأباريق فضية متألثة .. فى حين جلس عباس باشا فى همّ وحزنٍ بالغين وقد أطرق مستندًا بجمته على كفه مسبلًا عينيه عن كل ما حوله مما جعل أحمد باشا المنكلى يميل على إبراهيم باشا النبرواى قائلاً: يبدو أن الباشا صدمته كبيرة فى فقيدته .. إنه يجلس فى العزاء غائبًا عن الوجود حتى لأكاد أجزم أنه غير مدرك لشخص المعزين الذين يقدمون له واجب العزاء.

قال له إبراهيم: لقد مر عليه يومان من تاريخ الحادث وهو لا يزال على حاله مشئت الذهن غائبًا عن الوجود وأخشى إن استمر به الحال على هذا المنوال أن تتأثر الفترة المقبلة من حكمه للبلاد.

مطّ أحمد شفتية قائلاً: وهل امتازت الفترة السابقة من حكمه بالحكمة وحسن التدبير؟

أشاح إبراهيم بوجهه عنه وهو يقول من بين أسنانه فى غيظ: أنت لن تتغير أبداً أعلم أن رقبتي ستطير يوماً بسبب طول لسانك هذا.

وبينما هم يتجادلون إذ تقدم خليل أغا من عباس باشا وانحنى بجانبه وهو يُسرُّ له بأمرٍ فنظر له الوالى برهة ثم اعتدل وقام من مجلسه والأغا يتبعه إلى خارج الحديقة حيث كان يقف رجلاً يرتدى لباس علماء الأزهر أبيض البشرة طويل القامة كَثَّ اللحية قد ملأ الشيب شعر رأسه ولحيته ووقف إلى جواره فتى صغير لا يكاد يتجاوز الثانية عشر من عمره شديد الشبه بالرجل الكبير .. وما أن قدم عليهما عباس حتى فتح ذراعيه عن اخرهما مرحبًا وهو يقول: مرحبًا يا عبدالرحمن .. مرحبًا يا صديقى.

بادلته عبدالرحمن الترحاب وقبله فى كتفيه وهو يقول بصوتٍ وقور يغلب عليه اللهجة الحجازية: أبارك الله فى مصابك يا عباس.

انهمرت الدموع حارة معبرة عن ما يشعر به عباس وهو يقول: أرايت ما حدث لى يا عبدالرحمن لقد كادوا يقتلونى فى غرفتى بالسم .. وياليتهم فعلوا ذلك لكننى الآن شهيدًا فى رحاب الله .. ولكنهم سلبونى حياتى وروحى وبهجتى فقتلوا جاريتى التى كانت أقرب إىَّ من نفسى وقتلوا معها ابنى بأحشائها .. لقد قتلونى ألف مرة يا عبدالرحمن عندما فعلوا بى كل ذلك.

وأجهش بالبكاء وهو يحتضن صديقه الذى أخذ يربت على كتفه مواسيًا ويقول: اصبر يا أخى واحتسب يكتب لك الثواب أنسىت الدروس التى تعلمناها على يد والدى الشيخ عبدالله رحمه الله.

حاول عباس أن يتمالك نفسه وهو يردد: رحمه الله رب العالمين.

عبدالرحمن: هيا تماالك نفسك حتى تعود إلى معزينك فتتقبل عزائهم ثابتًا صلبًا ولا تشمت بك عدوًا أو حاقدًا ولا تنس أنك والى البلاد وفى رقبته رعية ينتظرون رعايتك لمصالحهم.

نظر إليه عباس قائلاً: نعم هيا بنا نعود ولكن أهذا محمد ولدك.

عبدالرحمن: نعم.

عباس: ما شاء الله ولا قوه إلا بالله لقد صار شابًا .. لقد كبر كثيرًا عما رأيته آخر مرة.

عبدالرحمن: لقد كان هذا منذ ما يزيد عن سبع سنوات.

عباس وهو يسير بجانبه عائداً إلى مجلسه السابق: نعم فأنت الذى أثرت الابتعاد بنفسك بعدما آلت إلينا أمور البلاد على الرغم من إلحاحى عليك وإصرارى كى تكون معى فى كل خطوةٍ أخطوها تعيننى وتشد من أزرى ولكنك أبيت يا عبدالرحمن.

كان يتحدث فى عتابٍ وضيقٍ غير عابئٍ بكل المحيطين به مما جعل عبد الرحمن يبتسم له فى هدوءٍ قائلاً: ليس الوقت ملائمًا لمثل هذا الحوار يا أفندينا إننا الآن أمام رجال دولتك وذوات المحروسة.

قال عباس وهو يجلس ويُجلس صديقه وولده بجواره: ملعون أبوهم كلهم .. أما علمت أنه لا يعدلك شيئًا عندى يا رجل.

عبدالرحمن عاقداً حاجبيه فى ضيق: قال صلى الله عليه وآله وسلم ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء يبدو أن الحكم والإمارة قد غيرت فيك كثيرًا يا عباس.

عباس مبتسمًا: لقد نسيت أنى أحاطب ابن الشيخ عبدالله وحفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنفسه.

عبدالرحمن: ليس للنسب علاقة بما أقول ولكن هذه أصول يجب أن يتحلى بها كل فرد مسلم وموحد بالله.

أخذوا يتجادلون ويتكلمون غير عابئين بأبصار الحضور التي تعلق بهم في تعجبٍ وفضولٍ حيث مال أحمد المنكلى على صديقه إبراهيم النبرواي متسائلاً: من هذا الشيخ الأزهرى الذى يخاطب الوالى خطاب الند وَيُجْلِسُهُ الوالى بجانبه وعلى أريكته؟

إبراهيم: لا أعلم فإننى لم أره هنا من قبل ولكن يبدو أن علاقته قريبة جداً من الباشا.

وكان يمر أمامهم مصطفى باشا الخازندار فاستوقفه أحمد قائلاً بفضولٍ كبير: يا باشا من هذا الرجل الذى يجلس بجانب أفندينا؟

أجابه مصطفى قائلاً: إنه الشيخ عبدالرحمن الحجازى الأصل .. وصديق أفندينا وبمثابة أخيه .. وهو أحد مشايخ الجامع الأزهر الأجلاء .. حيث يُدرس به المذهب الحنبلى وقد تخرج على يديه كثير من التلاميذ وطلبة العلم.

عاد أحمد يسأل: وكيف نشأت صداقته بأفندينا؟

أجابه مصطفى وهو يجلس إلى جانبهم: بعد انتهاء الحروب الوهابية بحصار الدرعية معقل الوهابية ومركز حكم آل سعود استسلم عبدالله بن سعود حاكم البلاد على أن يمنح الأمان للأهلين ومن بقى معه من رجال فتم ذلك وأرسل عبدالله بن سعود ومقاتليه مع أبناء الشيخ الراحل محمد بن عبدالوهاب إلى مصر حيث استقبلهم محمد على باشا ورحب بهم فقد كان يقدر المقاتلين الأشداء ويثمن الاستبسال فى النزال .. إلا أن

السلطان العثماني أمر بسرعة إرسال الأسرى إلى إسطنبول وهناك أعدم
عبدالله بن سعود ومجموعة كبيرة من رجاله .. في حين بقي بعض أبناء
الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين كانوا أقرب لرجال الدين منهم إلى
رجال الحكم والسياسة وكان منهم الشيخ عبدالله بن عبد الوهاب الذي
لبث قرابة العشر سنوات بالقاهرة حتى توفي عام 1242 هـ وترك ولده
الشيخ عبدالرحمن طالبًا بالأزهر الشريف حتى تخرج فيه وصار هذا الشيخ
الأزهري الذي تروونه أمامكم.

عاد أحمد المنكلى يسأل من جديد: نعم كلنا يعلم تاريخ الحروب
المصرية بأرض الحجاز ولكن ذلك لا يفسر علاقة الوالي بذلك الشيخ.

أجابه مصطفى: كان الباشا ميلاً ومتعاطفًا كثيرًا مع الوهابيين
وفكرهم وتوطدت علاقته بالحجازية عندما ساعد في تهريب الأمير فيصل
بن تركي بن سعود بن مقرن من سجن جده الباشا ومن يومها صار واحدًا
من أبناء أهل الحجاز حتى عندما حدثت القطيعة بينه وبين إبراهيم باشا
فضل عباس باشا أن يذهب إلى الحجاز ليمكث هناك بعيدًا عن بطش
عمه الراحل .. أما عن علاقة عباس باشا بالشيخ عبدالرحمن فتوطدت
لأن الباشا كان يذهب دائمًا للاستماع إلى دروس الشيخ عبدالله والد
الشيخ عبدالرحمن وكان الإثنين متقاربي العمر فنشأت بينهما صداقة
ومودة زادت مع مرور السنوات وتقدمهما في العمر.

تدخل إبراهيم النبراوي بالسؤال هذه المرة قائلاً: ولماذا لم نر الشيخ
قبل اليوم في قصر الباشا مادامت تربطه به تلك الصداقة الطويلة.

رد عليه مصطفى قائلاً: إن الشيخ عبدالرحمن ينأى بنفسه عن أمور
الحكم ويجعل همه طلب العلم الشرعي وتدريبه حتى عندما أراد الباشا

أن يسند إليه مشيخة الأزهر أبي الشيخ أن يقبل المنصب وتعلل بأن هناك من هم أولى به من أبناء أرض الكنانة.

نظر إبراهيم النبروى بإعجاب إلى الشيخ وهو يقول: قليل من الناس من لا تتملكه شهوة السلطة .. وأولئك والله هم أولى الناس بها دون المتزلفين على أعتابها.

أَمَّن الإثنان على كلامه وبعد لحظات شاهد أحمد باشا ضابطاً يقف بعيداً عن المشهد ويشير إليه فهض متجهاً إليه وهو يقول له في تبرم واضح: ماذا هناك أمها الضابط أما كان يجدر بك أن تعرض مشكلتك في وقتٍ مناسبٍ وبطريقةٍ ملائمةٍ أكثر من ذلك.

انحنى الضابط في احترام وهو يقول: معذرة يا جناب الباشا .. ولكن الأمر هام وعاجل ولا يحتمل أى تأخير.

بدا القلق على وجه أحمد باشا وهو يقول: خيرًا إن شاء الله .. هاتِ ما لديك أمها الضابط.

قال الضابط باضطراب: لقد أعلن حاكم الإسكندرية راية العصيان ونشر بياناً يعلن فيه الخروج على أفندينا عباس باشا.

وقفت السلطانة فاطمة تتطلع إلى إلهامى باشا وهو يشرف على تدريب الخيل الخاص بأخويها الصغيرين الأمير مراد والأمير عبدالحميد وانتابها الإعجاب الشديد من المهارة التي يتمتع بها خطيبها في مجال الفروسية وتملكتها نشوة طفولية عظيمة فأخذت تصفق بيديها في جزل

لكل تقدم يحرزهُ أحد أخويها .. وبعد برهةٍ أقبل عليها إلهامى مبتسماً وهو يقول لاهئاً من أثر المجهود الذى كان يبذله: ألا تحتاج سلطانتى إلى قليلٍ من تدريب الفروسية حتى لا تسقط ثانية من على صهوة جوادها؟

ضحكت فاطمة وهى ترنوله بعينها وتقول بدلال: لن أتدرب أبداً لأنك ستكون دائماً بجانبى تنقذنى إذا ما حدث لى أى مكروه .

نظر إلهامى إلى عينها فى افتتاحان وهو يقول: أبعد الله عنك كل مكروه يا حبيبتى.

أشاحت فاطمة بوجهها عنه فى حياء وهى تحاول تغيير دفة الحديث قائلة: ما مدى التقدم فى تدريب الأميرين؟

جارها إلهامى فى تغيير مسار الحديث وقال لها وهو ينظر إلى الأميرين المهمكين فى تدريبهما من بعيد: إن الأميرين يجتهدان كثيراً فى تدريبهما .. ولكن لا أخفيك سرّاً أن الأمير عبدالحميد وعلى الرغم من صغر سنه إلا أنه يبدي نبوغاً ونباهةً تُنمُّ عن أنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ فى المستقبل.

فاطمة: لكم أخشى عليهما من هذا المستقبل وما ينتظرهما فى ما هو آتٍ من أيام.

إلهامى: إن المستقبل بيد الله وحده فأتركى أمورك إليه يصرفها كيفما يشاء وتمتعى بحياتك ولا تهدرىها فى الخوف من المجهول.

أمنت على كلامه قائلة: ونعم بالله.

وبينما هم يتحدثون إذ قدمت عليهم جارية تحمل أكواباً من العصير البارد تلتف عليهما قليلاً من حرارة الشمس وما أن اقتربت الجارية حتى

تعثرت وسقطت منها الأكواب وتطاير بعض ما بها من عصير على ثوب السلطانة فاطمة فغضب إلهامى وقد كان ممسكاً بسوطه في يده فرفعه وهم بأن يؤدب به الجارية لولا أن سمع فاطمة تقول له بلهجة حازمة: ماذا ستفعل يا باشا؟

همَّ بأن يجيها إلا أنها لم تنتظر إجابته وتقدمت من الجارية فأهضتها وأمنت روعها وأخذت تلمم معها الأكواب المتناثرة منها وصرفتها وهى تشيعها بابتسامة مشجعة ثم عمدت إلى أحد الأحواض التى تزرع بها الحديقة فبللت طرف ثوبها وأخذت تمسح أثر العصير المسكوب عليه كل هذا وإلهامى واقفاً محله مدهوشاً من أمرها متعجباً مما تفعله أيما عجب ولم يتمالك نفسه كثيراً ففور أن أقبلت عليه صاح بها قائلاً: ماذا تفعلين يا سلطنة إنك تضيعين مكانتك بتدليلك لخدمك وجواريك فبدلاً من أن تركينى أؤدبها على خطأها وتقصيرها فى أداء عملها تكرميها وتساعديها بعملها وتقوى بنفسك بإزالة آثار الشراب من على ثوبك بدلاً من أن تستدعى إحدى جواريك لتقوم بذلك بدلاً منك.

وقفت فاطمة صامته حتى أنهى حديثه ثم قالت له: إننى لأعجب من كلامك هذا يا باشا .. فأنت مثال للشباب الملتزم بتعاليم دينك فخوراً بعقيدتك حافظاً لكتاب ربك ومع كل هذا لازلت تؤمن بتلك الفروق المتكبرة بين البشر فى ماذا أجرمت تلك الفتاة حتى تهم بتأديها بالسوط .. إن كل ذنبها هو أنها شبت عبدة وأنت شبت أميراً .. نشأت خادمة ونشأت مخدوماً .. ألم يخطر بذهنك أنه كان من الممكن أن تكون مكانها وهى مكانك .. يا جناب الباشا ألم تتعلم ضمن ما تعلمت فى دينك أنه لا يدخل الجنة من بقلبه مثقال ذرة من كبر .. ألم تتعلم أن الكبر هو أول جريمة اقترفت فى حق المولى وكانت سبب خروج إبليس من الجنة .. ألم تتعلم من

الرسول وأنت تدعى محبته والتخلق بخلقه أنه لم يأمر أبدًا خادمه بأمرٍ فوق قدرته وكان في مهنة أهله يشذب نعله ويخيط ثوبه .. أتزل نفسك منزلة أعلى من خير خلق الله يا باشا.

تفصد عرق الخجل من جبين إلهامى فقد كانت تلك المرة الأولى التى يزجره فيها أحد مثلما فعلت ولقد فاجأته بعلمها الدينى الأصيل فى غير تنطع وألجمته بقوة حجتها فى غير تكلف فلبث برهة لا يدرى ماذا يقول أو يفعل ثم ازدرد لعابه الذى جَفَّ فى حلقه وهو يقول بصوتٍ مختنق: إن كل يوم يمر علىَّ بجوارك يكشف لى جوانب جديدة لم أكن أتوقعها فيك من قبل .. فلقد ربطت الحدث وَأَوْلَيْتِهِ تأويلًا شرعى ينم عن علمٍ كبيرٍ بالدين.

أحست فاطمة بما يكابده من حرجٍ وارتباك فأبت نفسها الكريمة أن تزيد من ما هو فيه فمنحته ابتسامه عذبة وهى تقول له بمرح: أتعقد يا باشا أنكم ببلاد النيل الوحيديين المتعلمين بالعلم الشرعى .. إن من أولويات الحرملك أن يتم تعليم الجميع دروس الدين وبعدها نتعلم اللغات وبعض العلوم الطبيعية والموسيقى والفنون .

ابتسم إلهامى من حسن أخلاقها وَهَمَّ بأن يكمل معها حديثهما إلا أن وجد نوبار أفندى قادمًا نحوه فاستأذن من السلطنة وذهب إليه قائلاً: خيراً يا نوبار أفندى هل هناك أخبار جديدة من مصر؟

أجابه نوبار فى ارتباك: نعم يا سمو الأمير ولكن ..

حَتَّى إلهامى على الحديث قائلاً: تحدث يا نوبار ماذا هناك؟

قال نوبار: لقد تعرض أفندينا لمحاولة اغتيال كادت تودي بحياته لكن رحمة الله أنقذته باللحظات الأخيرة في حين قضت جاريته برلانته قادين نجها بدلاً منه حين أكلت من العشاء المسموم.

كان وقع الخبر على إلهامى عاتياً فجلس على إحدى المقاعد المنتشرة بالحديقة وقال: وكيف هو حال أبي الآن؟

نوبار: يؤسفنى أن أبلغك يا سمو الأمير أن جناب الباشا حالته النفسية غاية في السوء فقد كان الموت قاب قوسين أو أدنى منه حيث وصل أعدائه إلى عربنه وتغلغلوا بداخل قصره.

نهض إلهامى قائلاً: يجب أن أسافر غداً إلى القاهرة حتى أكون بجانب والدى في تلك الأيام الصعبة التى يمر بها.

نوبار: يا سمو الأمير إن ذهابك إلى القاهرة لن يفيد الوالى بل على العكس فوجود سموك هنا بجانب مولانا السلطان يجعلك تستطيع أن تفعل الكثير وتفيد حضرة الباشا بمصر أيمًا إفادة.

قال إلهامى متسائلاً: وماذا أستطيع فعله وأنا بعيدٌ عنه؟

نوبار: الكثير يا سمو الأمير إن المتأمرين لن يخرجوا عن أولئك الفارين من جوار الباشا المبتعدين عن كنفه.

إلهامى: أتلمح على أفراد الأسرة العلوية يا نوبار؟

نوبار: وهل هناك مستفيدٌ من قتل أفندينا غيرهم يا أمير؟

إلهامى: إنه اتهام خطير يا نوبار يجب أن يكون مدعوماً بالأدلة والبراهين قبل أن تتفوه به يا أفندى.

نوبار: يا سمو الأمير إنما أردت أن أبصرك بما قد يكون بعيداً عن ناظريك فوجود أفراد من العائلة بجانب السلطان يزيد من سطوتهم ويحقق مصالحهم ومطامعهم في حكم مصر.

إلهامى: معك حق إن كل هذا الصراع من أجل حكم مصر لذا يجب حسم هذا الامر في أقرب وقت قبل أن تتفاقم الأمور أكثر من ذلك.

وانصرف تاركاً نوبار يتسائل عن مقصده بهذا الكلام في حين وقفت السلطانة فاطمة تتابع ما حدث وقد اعترأها القلق بعدما انصرف إلهامى منشغلاً عنها دون حتى أن يودعها بكلمة واحدة.

عقد عباس باشا مجلس الحرب للنظر في تمرد الإسكندرية وقد وُضعت خارطة كبيرة توضح مداخل الإسكندرية ومخارجها التف حولها قادة الجيش وبعض رجال الدولة وكانت تعليمات الباشا محددة حيث قال: أريد لهذا التمرد أن يجمع مهما كانت التكاليف والقوة المستخدمة .. أريد رأس خورشيد باشا محافظ الإسكندرية ورأس كل الخونة المارقين الخارجين على إرادتنا مهما كانت أسمائهم ومنزلتهم.

ثم تابع أمراً أحمد المنكلى قائلاً: فلتتحرك قوة مكونة من أربعة آلاف جندى من الأرنؤود تصحبهم المدافع اللازمة لهدم أسوار المدينة .. لا أريد حجراً فوق آخر ولنعلم الجميع عاقبة من يجرو بالتفكير في التمرد علينا.

أحمد باشا: ستنفذ أوامرهم على الوجه الذى يرضيكم يا أفندينا.

فتابع عباس قائلاً لحسن المنسترلى محافظ القاهرة: أريد تحقيقاً سريعاً للكشف عن من وراء ذلك التمرد فلا أحسب أن خورشيد هذا كان سيرتكب جرمه لو لم يلق دعماً من رأسٍ أكبر منه.

كان بكلامه تلميحاً واضحاً على عمه سعيد باشا إلا أن حسن باشا تجاوز ذلك قائلاً: سنجرى هذا التحقيق فور القضاء على التمرد يا أفندينا وسنقدم لجنابك المدان فور وصولنا له بإذن الله.

خاطب عباس الحضور قائلاً بصرامة: لا أريد أى تهاونٍ أو تقصير واعلموا أن دعمنا لكم غير مقطوعٍ ولا ممنوعٍ فإننا نريد أن نرى قوتنا لأعدائنا وأن نجعل من أولئك المارقين عبرةً لكل معتبر.

ثم أشار لهم بالانصراف فتراجعوا من أمامه باحترامٍ بالغ حتى خرجوا من الباب فأشار عباس بيده فيبرز من ركنٍ خفيٍّ طاهر بك الذى انحنى بمداهنة بالغة أمام الباشا قائلاً: مولاي الباشا المؤيد بنصر الله والقاهر لأعدائه وال ..

عباس فى تبرم: طاهر بك لا وقت لى لمعسول الكلام .. أن الأحداث تتسارع من حولنا ويتربص بنا الأعداء من جميع الجهات وإن لم نطبق قبضتنا عليهم فى حزمٍ واقتدار لفلت من بين أيدينا زمام البلاد.

ثم تابع: ولقد مكنا لكم فى الأرض ووفينا بموعودنا .. وقد استدعيتك اليوم لوظيفةٍ تحتاج إلى أشجع رجالك وأجراهم.

طاهر: أنا ورجالى عبيدٌ مأمورون طوعاً بئانكم يا أفندينا.

عباس: إنى لا أحتاج إلا لرجلٍ واحدٍ فقط أثق فى قدرته على أن يمكنى من أن أبر بقسمى وينفذ انتقامى .. انتقامى الذى سيجتث رأس

الأفعى الرقطاء وسيجعل جميع الفئران تتراجع داخل جحورها .. انتقامى
الذى سأثأر به لزوجتى برلانته قادين وابنى الذى مات معها قبل أن يرى
النور .. أحتاج لرجل ينفذ مهمة انتقام لزوج مكوم.

عباس: مهمة انتقام داخل إسطنبول.

وبخارج ديوان الوالى وقف أحمد المنكلى مخاطبًا حسن المنسترى
قائلًا: أما لحالة الغضب التى تعصف بالوالى من منتهى إننى أخشى أن
تصبح هى المنهاج لكل قراراته القادمة فتهلك على إثر ذلك البلاد والعباد
وتبدأ حركات التمرد تتوالى فتعصف بالدولة وبمقدراتها ويسقط النظام
بأسره.

قال حسن المنسترى: لن يصل الأمر أبدًا لإسقاط النظام .. فإن ذهب
الباشا الحالى حل محله باشا جديد فللنظام أطراف وأذرع عدة وهناك
مصالح كبرى تحميه .. غاية ما فى الأمر أن هناك كثير من الأبرياء المجهولين
سيذهبون ضحايا حتى تستقر الأمور فى يد باشا جديد.

وتابع قائلًا: ولا يسعنا إلا أن ندعو المولى أن يلف بنا ويرحمنا فيما
هو قادم من أيام ونوازل.

وبينما هما يتحدثان إذ وجدا أمامهما سعيد باشا قادمًا وبجانبه ابن
أخيه الأمير أحمد رفعت يسيران فى خطواتٍ واسعةٍ متجهان للدخول على
الوالى فوقفا من فورهما وانحنوا باحترامٍ فبادلهما الإثنان التحية بإيماءةٍ
من رأسهما وتقدما من الباب حيث استقبلهما خليل أغا فقال له سعيد
باشا: أبلغ سيدك بقدمونا.

أجاب خليل أغا باحترام: سأفعل يا جناب الباشا.

ودلف إلى داخل الحجرة ولم تمر لحظات حتى كانا واقفان أمام عباس وسعيد يقول له: لقد قدمنا يا أفندينا مع الأمير أحمد فور علمنا بما وقع لكم من أحداث مفعجة و نقدم تعازينا في فقيدتكم ونحمد الله على نجاتكم من المؤامرة الدنيئة التي تعرضتم لها.

كان عباس متكئاً على أريكةٍ فاعتدل في جلسته وهو يقول: ما آخر أخبار الانقلاب الدائر بالاسكندرية يا باشا.

سعيد: عن أى انقلاب يتحدث أفندينا؟

عباس: أما علمت بأمر الانقلاب الذى يتزعمه محافظ الإسكندرية .. الإسكندرية التى أنت ملازمٌ بها ومن المفترض ألا يطير الطير بها ولا يحط إلا بعلمك وتحت سمعك وبصرك.

سعيد: لقد غادرنا الإسكندرية منذ يومان فور علمنا بفضيحتك ولم يكن بها أى بوادر تنم عن حدوث تمرد أو اضطراب.

عباس: أتريد أن توهمنى أنك لا تعلم شيئاً.. تمرد يحتاج لتخطيط وتجهيز وتحركات على مدار فترات طوال من الزمن وأنت لا تدرى فيما تكون غافل عن ما يحدث تحت أنفك وإما تكون المحرض عليه.

سعيد بحدة: انتقى كلماتك جيداً يا باشا قبل أن تلقى بالافتراءات التى قد تندم عليها لاحقاً فأنت تتحدث إلى ولى عهد البلاد وأحد كبار قادتها ولا أجد لك عذراً في تلميحك هذا إلا حالتك النفسية غير المستقرة التى تسيطر عليك بعدما وقع لك من خطوب.

عباس بسخرية: ولى عهد البلاد وأحد كبار قادتها .. ويحك لمخطط بالتمرد في محافظته ولا يدري به شيئاً.

سعيد: وهل تظن أنى أحتاج للتخطيط والتدبير كي أنحيك عن مقامك يا عباس؟ فلتعلم إذن أننى لو أردت تنحيتك لفلعتها بيدي الآن ولن يجرؤ كائنٌ من كان على محاسبتى أو التعرض لى.

نهض عباس وقد أحمر وجهه من الغضب صائحًا: أوجئت كي تهددنى فى عقردارى يا سعيد .. فلتعلم أنت إذن أننى لو شئت الآن لما جعلتك تخرج من قصرى هذا إلا على قبرك.

وهنا تدخل أحمد رفعت قائلاً: مهلاً مهلاً يا كبيرى عائلتنا ومحط آمالنا إننا ما جئنا اليوم للعراك وتبادل الاتهامات إننا خرجنا يا أفندينا منذ يومين ضارين فى الأرض كل تلك المسافات وما لنا هدف إلا أن نشد من أزرك ونواسيك فى مصابك.

عباس: ألم تر إلى ما يتفوه به مرافقك هذا من كلماتٍ جسامٍ ولولا القربى لحاسبته على...

قاطعه سعيد: بل أنت الذى تلقى بالاتهامات ولا...

تدخل أحمد ثانية ليقاطع كلام عمه قائلاً: يا أفندينا هدى من روعك .. يا عمى تمالك أعصابك .. إنكما أعلى منصبين بالقطر المصرى أجمع وما يَجْمَلُ بكما أن تتشاجرا هكذا كما يفعل العوام.

جلس عباس على أريكته وهو ينظر إلى سعيد متشفياً ويقول: على كل لقد أعددتنا لمن وراء هذا التمرد أياً كان مقامه من المفاجآت ما سيزلزل كيانه ويقوض أركانه وستكشف الأيام اللاحقة عن كل الخونة المتامرين.

أزرد سعيد لعبه في صعوبه وهو ينظر من طرفٍ خفيٍّ إلى ابن أخيه
نظرة كانت أبلغ من كل الكلمات.

كان إسماعيل يجلس مع عمته نازلي حين دخلت عليهما الوصيفة
الخاصة فانحنّت باحترامٍ وهي تقول: حضرة العمّة باشا هناك شاب يطلب
مقابلة مقامك ويقول إنه يريدك في أمرٍ هام؟

قالت نازلي بصرامة: وما اسم هذا الشاب؟ إنني لا أنتظر أحدًا ومنذ
متى أقابل أي شخص بدون سابق ميعاد؟

هنا اندفع الأمير إلهامي من خلف الوصيفة قائلاً: ليس هناك أحد
غريب يا عمّة باشا إنه أنا الشاب الذي يرغب بالتحدث إليك.

ثم نظر إلى إسماعيل قائلاً: مرحبًا يا ابن العم صدقني إن من حسن
التدابير أن أجدك هنا فأنا في أشد الحاجة لحضورك هذا اللقاء.

نهض إسماعيل وصافحه في حين عقدت نازلي حاجبيها قائلة: خيرًا يا
أمير إلهامي ما سرتلك الزيارة المفاجئة والتي لم تخطرنا بها من قبل حتى
نلتاق بالشكل اللائق.

نظر لها إلهامي مباشرة وهو يقول: سر الزيارة العاجله أنني قد جئت
لأسألك سؤالًا واحدًا أرغب في الحصول على إجابةٍ له .. أما أن لتلك
الصراعات الدائرة بين أبناء عائلتنا أن تنتهي؟

أشار له إسماعيل يدعوه للجلوس قائلاً: فلتجلس قليلاً يا باشا
ولتهدي من روعك بعض الشيء.

اعترض إلهامى قائلاً بانفعال: ما جئت لأجلس أو أستريح قبل أن أجد إجابةً لسؤالى.

خاطبته نازلى قائلة: ولم لا تتوجه بسؤالك لوالدك حاكم البلاد والأمر النهائى الأوحى فى أرجائها .. فكما ترى لقد تركنا له البلاد يمرح فيها كيفما شاء واضطررنا للهجرة فراراً بأرواحنا بعدما كدنا نلقى حتفنا بها.

قال إلهامى لها: ما جئت اليوم مقلباً صفحات الماضى بخيرها وشرها ولكن لقد جئت اليوم وأنا أعلم جيداً مع من أتحدث .. فأنتِ العممة باشا ذات الكلمة المسموعة والرأى الراجح والتأثير الأقوى بين أفراد عائلتنا وقد قدمت اليوم حتى أخبرك بنيتى الصادقة فى إنهاء تلك الخصومة ووضع حدٍ لهذا الصراع.

جلست نازلى وهى تبتسم فى سخرية مريرة وتقول: إن كل ما تقدمت به فى حقى لم يشفع لى والدك عندما قدمت إليه أحداثه كما تحدثنى اليوم وأزجى له النصح المخلص بالأى يدفع أبناء العائلة للصراع الذى لن يكون له إلا أسوأ النهايات .. إلا أنه قابل النصح بالإعراض وأبى إلا أن يستمع لصوت جشعه وتسلطه الذى ملك عليه لُبَّهُ ودفعه فى طرقٍ مُخزِيةٍ لم يتورع خلالها عن الإرهاب والتنكيل بذوى رحمه.

إلهامى: وجاء الرد واضحاً بمحاولة الاغتيال التى تعرض لها وراح ضحيتها جاريته المفضلة فقد كان منه وكان منكم فلا نريد تمضية الوقت فى استعراض من الجانى ومن المجنى عليه.

نازلى بغضب مصطنع: انتبه لكلماتك جيداً يا باشا فإنك تلقى الآن بالاتهام الصريح لنا بارتكاب مؤامرة اغتيال الوالى.

هَمَّ إلهامى بالتعليق على قولها لولا تدخل إسماعيل قائلًا: من الواضح يا باشا أنك ما جئت اليوم تريد محادثتنا إلا وبذهنك عرضًا تريد تقديمه لإنهاء ذلك الصراع الدائرين الجانبين.

حاول إلهامى أن يتجاوز عن تجريح نازلى هانم وهو يخاطب إسماعيل قائلًا: نعم فما جئت اليوم إلا بنية صادقة في إصلاح ذات البين وحتى أبدأ بتقديم حسن النوايا أعلمكم أنني ما جئت إلى الأستانة إلا كمبعوثًا من والدى للحصول على فرمان بتوريث حكم المحروسة واقتصاره على أبناءه فقط دون باقى العائلة.

وهنا احتد إسماعيل وقد احمر وجهه غضبًا: وقد بذلت فى ذلك من الجهد ما كلل مسعاك بالنجاح وها أنت الآن من ذوى الحظوة المقربين من السلطان بعدما قد تمت المصاهرة بينك وبينه.

أشار إلهامى بسبابته وهو يقول: أعلم يا باشا أن كلامك صحيح .. وأنتى إذا ما أردت أن أحصل على أى امتياز من السلطان اليوم ما منعنى إياه بل يزيدنى فوق طلبى من فضله ما يشاء .. ولكنى ما جئت اليوم إلا لأخبركم بأننى قد تعهدت أمام ربى وأقسمت بألا أزج بنفسى وسط ذاك الأتون الملتهب المسمى بالإمارة .. وأن أنج بروحى طاهرة غير مدنسة من آثام وخطايا أرتكبها فى سبيل الحصول على ذاك الحكم .. وأن أرعى أسرتى الصغيرة التى أزمع إنشائها وأبذل فى سبيلها كل طاقتى .. وأرجوا أن أكون بذلك متخفمًا يوم الحساب أمام ربى الذى أملى أن أقابله يوم الدين وهو راضٍ عنى .. فلا يحاسبنى كما يحاسب الحكام عن ما اقترفوه فى حق شعوبهم فردًا فردًا فأنا لست عمر والشعب لا يوجد بينهم من أصحاب النبى .. هذا تقديرى للأمر لا أخفيه عليكم وأصدقكم بما أكنه فى صدرى.

ساد الصمت برهة طويلة بعد كلمات إلهامى ثم قطعت نازلى هذا الصمت قائلة: وهل أعلمت والدك بعزمك هذا؟

إلهامى: لا لم أخبره بعد..

نازلى بحدة: إذن واسمح لى بالقول أن ليس لحديثك هذا أى قيمة .. فوالدك سيأبى عليك إلا الخضوع لإرادته.

إلهامى: إن لأبى حق الطاعة والبر الذى أمرنى بهما وذلك فى حدود معاملتى له وليس فى تخطيط مستقبلى وتحديد طريقة حياتى .. واعلمى يا هانم أن قرارى هذا لا رجعة فيه ولا عدول عنه.

تدخل إسماعيل قائلاً: إنى ألمس صدق كلامك يا أمير وألمس فيه العزم والتصميم وسأعمل منذ اليوم لإيصال صوت السلام والوئام الذى تفضلت به إلى كل أفراد العائلة حتى ننهى معاً كل الخصومات والصراعات التى كانت عنواناً للفترة السابقة.

ومد يده مصافحاً وهو يقول بابتسامة كبيرة: وهاك عهدى بذلك.

بادلته إلهامى المصافحة فى حين علقت نازلى قائلة: أرجوا ألا تحمل الأيام القادمة بين طياتها ما ينقض عهدكما وينقض أوامره.

بعد قولها هذا اندفعت إحدى الوصيفات وهى تنحنى على عجل وتقول فى سرعة: سمو الأمير إسماعيل وصلنا الآن خبر يفيد بأن زوجتكم شفق نور تضع الآن مولودكم الأول .

نهض إسماعيل قائلاً فى سعادة: إنه فأل خير يا أمير إلهامى وينم على توفيقنا فى مسعانا الذى عزمنا عليه منذ قليل.

ثم نظر إلى عمته قائلاً: لو كان المولود ذكراً فسأسميه توفيق.

ولاك الاسم في فمه: الأمير توفيق ابن إسماعيل باشا.

ثم خاطبهما قائلاً: هيا بنا جميعاً لنكون في استقبال الأمير توفيق .

جلس عباس باشا على أريكته وقد التف قادة الجيش ورجاله فيما يشبه مجلس الحرب لمتابعة أحر الأنباء حول الوضع في مدينة الإسكندرية وبينما هم يتباحثون حتى دخل خليل أغا واقترب من عباس باشا وأسرله بأمر فقال له عباس: فليدخل فوراً.

وما مرت لحظات حتى دخل الشيخ وحييا الحضور قائلاً: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أفندينا وعلى جمعكم الكريم.

رد عليه الحاضرين التحية وما أن أمعن عباس النظر في وجه صديقه عبدالرحمن حتى صاح في الحضور قائلاً: فلنكمل اجتماعنا في وقتٍ لاحقٍ يا سادة على أن توافونا في المرة القادمة بأخبارٍ دقيقةٍ وتفصيليةٍ أكثر حول الأوضاع هناك.

وما أن غادر آخر فرد القاعة وخلا المكان إلا من الوالى والشيخ حتى قال الأخير في صرامة: أرفع يدك عن الثغر وأهله يا عباس .. فليس بينهم من تبحث عن تأرك لديه.

نهض عباس قائلاً: أما علمت بأمر التمرد هناك يا عبدالرحمن .. لقد كان لزاماً علينا أن نأذ الفتنة في مهدها حتى لا تنتشر آثارها في ربوع البلاد وتضيق منا هيبتنا وسلطتنا فينفرط عقد الدولة.

عبدالرحمن: حتى تقضى على التمرد ولا تضيع هيبتكم يقتل جنودك إلى الآن أكثر من ثلاثمائة فرد وتلك مدافعك المدينة على رؤوس أهلها لثلاثة أيام متواصلة يُرَوَّعُ فيها الأمنين ويفزع الأهلين .. لقد اقتحم جنودك المدينة وعاثوا في الأرض فسادًا فهبوا الأسواق واقتحموا الدور على أهلها فبغوا وظلموا وتكبروا وتجبروا على الضعفاء والمساكين ممن ليس لهم حول ولا قوة إلا بالله.

عباس: إنك تُحكّم عاطفتك وليس بالعواطف يدار الحكم والسياسة .. ثم إنك تؤاخذنى على شدة بطشى بأعدائى وهم المتريصون بى والساعون لهلاكى .. أما علمت بأنهم دخلوا إلى قلب الحرملك خاصتى ونجسوا بأقدامهم القذرة حجرتى وقتلوا زوجتى وولدى فى بطنها .. كل هذا وتعاتبى على دحرى للمتمردين .. فاعلم يا عبدالرحمن أنى لن أهدأ أو أرتاح قبل أن آخذ بثأرى من كل أعدائى ولا تنس يا شيخ قوله تعالى ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب.

عبدالرحمن: بل أنت الذى نسيت قوله تعالى "فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" أم أنك من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ثم إنك تتحدث عن زوجتك وتقسم أن تأخذ بثأرها فهل بين أهل الثغر من قتل زوجتك أم انك تبحث عن ثأرك بين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً أم أنك لا تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين.

عباس: ومن أدراك أننى لن أقتص ممن اقترف هذا الجرم؟

عبدالرحمن: وهل علمته علم اليقين؟

عباس: إن المجرم لن يخرج عن أحد أفراد الأسرة العلوية.

عبدالرحمن : وهل تريد أن تقتل كل أفراد الأسرة العلوية حتى تأخذ
بثأرك من قاتل زوجتك؟

ولما لم يسمع جوابًا تابع قائلاً: لقد سبق وقلت لك إن الحكم والإمارة
قد أنستك تعاليم دينك وأحكامه .. وأن تكالبك على السلطة والخوف من
ضياعها من بين يديك جعلك تتغافل عن سلوك المسلم القويم ورحمة
الإسلام وتعاليمه السمحة .. أتريد أن تقتل نفساً بمجرد الظن يا عباس؟
أما كفاك ما أزهقت من أنفس في سبيل تلك الولاية .. هل تذكر تلك الليلة
التي اقتحم فيها رجالك قصر نازلي هانم وقتلوا كل من فيه من أنفس بريئة
لم تقترف إثماً أو خطيئة .. أم لعلك نسيت النيران المشتعلة في قصر
يوسف بك والتي راح ضحيتها أيضاً أنفس بريئة احترقت مع الخيل وهي
تحاول الفرار من النيران المستعرة من حولها .. وغيرها من الاعتداءات
السافرة التي اقترفتها يداك من أجل الحفاظ على ملكٍ زائلٍ ودنيا ما
تساوى عند الله جناح بعوضة.

عباس في صوتٍ مختنق: لست من أصدرتلك الأوامر .. لقد كنت وقتها
بالأستانة عند السلطان.

عبدالرحمن: أتزيد خطاياك بخطيئةٍ أخرى وهي الكذب يا عباس؟ أما
تستحي من الله يا رجل.

عباس وهو يجلس على أقرب مقعد وقد بان عليه الانكسار: كيف
علمت بكل تلك الأخبار؟

عبدالرحمن: أتحسب أنى لا أتابع أخبارك عن كذب يا من كنت صديقى .. لقد حماني الله من الوقوع في براثن حكمك ولكنى كنت أتحرى أخبارك وأتابعها لاهتمامى بأمرك ووفاءً لعهود الصداقة التى جمعت بيننا يوماً معاً.

عباس: أتذكر يا عبدالرحمن عندما كنا نتسابق معاً في شبابنا من منا يحفظ أكثر في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟

قال عبدالرحمن وهو يجلس بجواره: عليه الصلاة والسلام .. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .. وكيف أنسى تلك الأيام الجميلة.

عباس: يا ليتها دامت ولم أطرق يوماً باب الحكم والإمارة لقد كنت أتمنى أن أظل طالباً للعلم الشرعى ناشراً تعاليم دينى بين الأقطار مقتدياً بالإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

ثم أستطرد قائلاً: ولكنى أعجب منك يا عبدالرحمن وأعجب من حديثك .. فمن ينظر إليك الآن لن يصدق أنك ابناً وحفيداً للعلماء المجاهدين الذين بذلوا الغالى والنفيس في الدفاع عن قضيتهم .. أم أنك نسيت موقفهم يوم الدرعية حيث عجز إبراهيم باشا بقوته وجبروته على اقتحام بلدتهم علمهم حتى نفذ منهم القوت فاضطروا إلى الاستسلام.

عبدالرحمن: ما نسيت يوماً فضلهم وبلاتهم المحمود في الدفاع عن قضيتهم وأرضهم ضد عدوٍ غاصبٍ غاشمٍ يملك من العدة والعتاد ما يفوقهم بكثير .. ولكنى عندما تلقيت علومى الشرعية الأولى بأرض الحجاز كان جدى رحمه الله قد توفي منذ أكثر من عشرون عاماً وقد درست من تاريخه أنه كان على المذهب الحنبلى ويستخدم في منهجه أسلوب الوعظ والنصيحة الحسنة وأنه سار إلى الدرعية معقل حكم آل سعود وهناك

عرض منهجه على محمد بن سعود بن محمد آل مقرن .. فقبل دعوته وأيده حيث كان يحلم بتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية واحدة فتنتظم صفوفها بدلاً من تشرذمها في مجموعة قبائل متناحرة ترضخ تحت وطأة الحكم العثماني الذي كان يرى فيه استعماراً سافراً لبلاده فتوحدت دعوة الشيخ مع حلم الأمير وما لبثوا إلا عامًا أو عامين حتى تحقق لهم مرادهم بتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية الرجلين .. ثم جاء بعدهم من أزاعت أبصارهم مطامع السلطة وزخرفها فعملوا على توسيع ذلك الملك إلى بلاد الشام مما حرض الدولة العثمانية عليهم وكانت المحاربة مع محمد على باشا ثم الحصار والتسليم فمجيئنا إلى القاهرة وبها كانت نقطة التحول في حياتي بدخولي الجامع الأزهر الشريف .. حيث درست على يد مشايخه الأجلاء مختلف العلوم خاصة اللغة والبلاغة والنحو والصرف .. وأهم ما تعلمت فيه أن هناك آراء أخرى والمرء عندما يعلم بالتباين والاختلاف تصفو نفسه ويطمئن قلبه لتقبل الآخر حتى ولو كان يرهف بالجهل والضلال .. حيث تتصارع الحجج والأفكار دون تعصب ولا تنطع فترجح كفة الفكر الصحيح وتخسأ كفة الفكر الباطل المضل .. حتى أنني اليوم بتُّ أنظر إلى الثورة التي دعا إليها و قام بها جدى الشيخ محمد وأنصاره و من جاء بعدهم بعين المراقب المحايد فتجلت أمامى أوجه القصور بها .. حيث كان يعيهم الإفراط في تكفير وتضليل كل من هو على اختلاف معهم .. كما أنني أنظر الآن إلى أن الحركة برمتها تعتبر خروجًا على الخلافة العثمانية .. وهم الذين أفتوا بعد ذلك بحرمة الخروج على الحاكم خشية انتشار الفتنة والفساد بين العباد .. كما انتسب إليها كثيرًا من الأفراد الذين تشددوا في منهجهم وفي تطبيقه دون مراعاةً للتلف بالعوام والجاهلين فكانوا سببًا لوصف الحركة من قبل البعض بالتشدد والمغالاة .. ولازلت أدرس المذهب الحنبلي بفضل الله في المسجد الأزهرولى

من الطلبة المتخرجين على يدى العشرات والمئات ولكنى لا أنكر على الأراء والمذاهب الأخرى فكما قيل من قبل فى اختلافهم رحمة.

عباس: لقد كنت أكثر منك وفاءً لتعاليم الشيخ محمد رحمه الله فقد أنشأت فرقةً من الجند تقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فتغلق الحوانيت وقت الصلاة .. وتقبض على السائرين مع النساء بالأسواق حتى تتأكد من أنهن يسرن مع محارمهن .. وتغلق دور اللهو والمجون التى كانت تنعم بالحرية فى العهد السابق.

عبدالرحمن ساخرًا: أوتظن أنك خدمت دين الله بما فعلت؟

ثم تابع فى جدية: لقد تمسكت بظاهر القول وتركت باطنه خرب .. إن الناس لتخشى من بطش رجالك فتمارهم ثم إذا ما تواروا عنهم فروا من المساجد مسرعين ظنًا منهم أنهم بذلك يقاومون غلظة جندك .. فصار بعد الناس عن العبادات - التى كانوا يأتونها طواعية - مقاومة لرجالك المتكبرين فى الأرض الذين يروعون الأمنين ويهبونهم ويقتحمون خصوصياتهم بسؤالهم عن قرابة الرجال للنساء السائرين بالطرقات .. وكان أولى بك أن تصرف همتك لتعليم الناس دينهم الحنيف برأفةٍ ورحمةٍ حتى يأتون للدين بقلوبٍ نقيهٍ صافيةٍ وليسوا مجبرين أو مضطرين .. خاصة وأن أهل المحروسة دَيِّنَ بفطرتهم يحبون الله ورسوله ويوقرون آل بيته .. ثم إنك أنت نفسك تدعى الالتزام والتمسك بتعاليم دينك وتقترف من الأثام فى الخفاء ما يندى له الجبين وما يخجل عن إتيانه الأثمين والمجرمين .. ألم تحرض على القتل والتأمر وسفك الدماء بدون ذنب أو جرم مستحق.

عباس بغضب: لقد تجاوزت حدودك معي يا عبدالرحمن فلا تنس
أنى وإلى البلاد والمتحكم بأمورها فكيف تصفى بالأثمين والمجرمين
وتتهمنى بكل نقيصةٍ وعيب.

عبدالرحمن فى ثبات: أوغضبت من أجل قولة حق لم أرد بها إلا وجه
الله ووفاءً لعهودٍ سلفت بيننا من الصداقة والأخوة فى الله ولكن اعلم أنى
عندما قدمت إليك اليوم ما خاطبتك إلا خطاب الصديق لصديقه ولو
علمت أنى سأخاطبك بصفتك وإلى البلاد ما قدمت إليك أو خاطبتك.

وَهَبَّ نَاهِضًا من مجلسه وهم بالانصراف فأسرع عباس ورائه وتشبث
بيده وخر جائئًا على قدميه التى لم تقو على حمله من شدة انفعاله فقال
باكئًا وراجئًا: لا تركنى يا عبدالرحمن أرجوك بكل ما تحدثت به الآن عن
الصداقة والوفاء لا تركنى .. إننى لم أبلغ ما بلغت من ظلمٍ وضلالٍ إلا
بِعَدَمِ وجود البطانة الصالحة والصديق الوفى الذى يكون كالمرآة أنظر فيها
عيوبى وأرى بها أثامى وذنوبى .. الصديق المخلص الذى يسدى لى النصيحة
وَيَهْدِينِى للصراط المستقيم .. الصديق القوى الذى يزجرنى إذا ما جدتُ
عن الدربِ القويم وتملكنى الهوى وحب النفس.

كان يبكى فى حديثه وينطق لسانه بالصدق فأمسك عبدالرحمن
بذراعه وعاوناه على النهوض وهو يقول له: تما لك نفسك يا رجل .. يعلم
ربى أنى ما أردت إيدائك بكلامى ولكن كان كل مرادى ان أعينك على
نفسك فتعود لرشدك وتقوم اعوجاج طريقك.

عباس: سأفعل ما تريد ولكن عدنى ألا تركنى لهوى نفسى ثانية .

عبد الرحمن: سأفعل بإذن الله ما يمليه على ضميرى وواجبى تجاه
صديقى حتى تعبر تلك الفترة العصبية التى تمر بها الآن.

عباس وهو ينهض ثانية ويقول: سأصدر فرماناً بتعيينك في القصر حتى يتنقى لك ملازمتي على الدوام.

أشار له عبدالرحمن قائلاً: اعفني من المناصب والفرمانات والترح فأنت تعلم أن الأمير فيصل بن تركي عامل الحجاز طالما ألع على أن الحق به إلى هناك ولكني أبيت حتى لا يشغلني شيئاً عن رسالتي الأساسية بالجامع الأزهر وطلبتى ولكن لك على أن أمنحك باقى وقتى من اليوم أعيدك فيه ومنتناصح بالخير ومنتبادل سديد الرأى.

ثم تابع قائلاً: ولنبدأ منذ الآن حيث يجب عليك أن توقف آلة الحرب والدمار التى تجتاح بها مدينة الإسكندرية ظلمًا وعدوانًا.

نهض عباس فى حماس ومضى ليصدر أوامره بهذا الخصوص ثم وقف والتفت إلى الشيخ قائلاً بقلق: يبدو أن هناك الكثير من الأمور يجب أن أوقفها قبل أن تتلخخ يداى بالمزيد من الدماء.

نظر له عبدالرحمن متسائلاً فتابع مترددًا: لقد أصدرت أوامرى لبعض رجالى كى يبدأوا فى تنفيذ خطى للثأر من قتلة زوجتى ولكنه كما قلت أنت .. ثأراً بدون دليل.

عبدالرحمن: إذن فلتسرع يا رجل لمنع جريمةٍ أخرى تضاف إلى ما يحمله كاهلك ويروح ضحيتها شخص برئ.

اندمجت نازلى هانم وسط جموع الناس من ذوات المقامات الرفيعة الذين كانوا يحضرون إحدى الحفلات التى تزخر بها قصور وسرايات إسطنبول حيث أضحت نازلى هانم ضيفة الشرف وأيقونه تلك الحفلات

فقد كان لجمالها الباهر وحضورها الأخاذ وجراتها الملفتة ما كان يجذب إليها كثير من أعين وأفئدة الحضور وأخذت على غير المعتاد في تلك الأزمنة تخاطب الرجال الحاضرين في حرية وانطلاقٍ كبيرين وتطلق الضحكات العالية على الدعابات المختلفة فتوقظ القلوب الغافية من سباتها.

وكانت تحدث مضيفتها قائلة: الحفلة اليوم رائعة يا جلفدان هانم .

داعبتها جلفدان هانم قائلة: بل أنتِ الأروع يا هانم .. فأنتِ دائماً ما تعطين للحفلات بهجة وحياءٍ وإني لأعجب ولا أصدق أنك لم تقيمي بإسطنبول إلا منذ بضعة أشهرٍ فقط .. فإن من يراكي ويحدثك يظنك وُلدت في هذا البلد.

نازلي: أشكرك جلفدان هانم إن هذا من بعض ما عندك من جمال .. أما بخصوص اندماجي سريعاً بالأجواء داخل إسطنبول لا يرجع إلا لوجود أشخاص ظرفاء ودودين مثلك يا هانم.

قالت جلفدان وهي تجذبها من يدها في مرح: فلتأتِ معي كي أعرفك بزوجي مأمون باشا أحد رجال الدولة المرموقين.

ذهبت معها نازلي وعرفتها على زوجها الذي قال لزوجته: إن نازلي هانم لا تحتاج إلى تعريف فهي وأسرتهما منذ قدومهم إلى إسطنبول أصبحوا من أبرز الشخصيات في البلدة فيوسف بك زوج أختكم الموقرة يعد الآن من رجال ديوان مولانا السلطان كذلك إسماعيل باشا شاب ممتاز وقد حاز على إعجاب كل رجالات قصر طوب كابي .

وأخذوا يتبادلون أحاديث المجاملات المتكلفة غير عابئين بالخدم المتحركين من حولهم خاصة ذلك الخادم الذي ما فتئ يرفع عينيه عن

نازلى هانم وهو يطوف بين الحضور ويقدم لهم المشروبات ثم تنحى جانباً وتوارى خلف أحد الأركان القصية بساحة السراى وأخرج مسدساً كان يخفيه بين طيات ثيابه ثم نظر خُفية إلى نازلى هانم فرفع مسدسه وأحكم التصويب وأطلق النار.

اقتحم عباس باشا وبصحبته الشيخ عبدالرحمن مع زمرةٍ من الجنود المرافقين للباشا سراى طاهر بك حيث حاول بعض حراس السراى المحيطين بها إحاطة السوار بالمعصم أن يمنعوا المقتحمين ويشتبكوا معهم فى نزالٍ محتدمٍ لولا أن صاح بهم طاهر بك مهدئاً وأسرع باستقبال عباس باشا الذى تنحى به جانباً وهو يقول له باضطراب: ماذا فعلت فى الأوامر التى أصدرتها لك بخصوص عملية إسطنبول؟

تردد طاهر وهو ينظر إلى الشيخ عبدالرحمن فقال له عباس: تكلم يا رجل لا يوجد من تخشى الحديث أمامه.

طاهر: لقد نفذت كلامكم الصادر بهذا الشأن يا مولاي على الوجه المطلوب .. فأرسلت أحد أفضل رجالي وأكثرهم علماً بدهاليز إسطنبول وقدرة على التخفى والتنكر وسط...

عباس مقاطعاً: إلغى كل الأوامر الصادرة له واعمل على عودته فوراً.

طاهر متردداً: عفوًا يا مولاي ولكن .. ولكن ..

عباس بحدة: ولكن ماذا؟ تكلم بسرعة.

ظاهر: لن نستطيع إلغاء الأوامر يا مولاي أو بمعنى أدق أولها فقط حيث وصلنا مكتوب من رجلنا يخطرنا أنه استطاع التكرار كخادم في إحدى سرايات إسطنبول واليوم ستنفذ أول تلك العمليات حيث ستكون الهانم ضيفة بالسراى وهدف مبعوثنا الأول .

عباس: حَرَّبَ اللهُ بيتك إنك دائماً لا تأتينى إلا بأخبار السوء لطالما استشعرت بأنك مبعوث الشيطان لتوردنى جهنم وبئس المصير.

ثم نظر إلى عبدالرحمن وهو يقول برجاء: ماذا أفعل الآن يا عبدالرحمن؟ .. دلتى رعاك الله.

عبدالرحمن بأسف: ليس أمامك إلا الدعاء يا حضرة الباشا .. فالله وحده القادر على إنقاذ روحك من أثمها.

بعد القرار الذى ألزم به شريف نفسه اعتراضاً منه على قرارات الوالى الظالمة وردة الفعل التى قابل بها سليمان باشا قراره .. أضحى الفراق جلياً بين الحبيبين العاشقين .. وعانى شريف من جديد مرارة الهجران ولوعة الفراق .. وزادت معاناته عن فترة منفاه السابقة والتى كان يأنس خلالها ببعض خطابات يرسلها أو يتلقاها من حبيبته يبث خلالها لواعج نفسه فيفرج عنه بها بعض وحدته ويستمد من خلالها الأمل فى غدٍ قادم يحلم فيه بالوصول .. أما اليوم فتأبى عليه نفسه أن يرأس فتاته دون إذن ولها .. واستسلمت ذاته لمصيرها بعدما فقد الأمل فى غده القادم بما يحمله له من شظف العيش وقلّة ذات اليد ولولا بعض الموارد التى كان يدخرها استعداداً لزواجه المأمول لما وجد ما ينفق منه فى حاضر الأيام .. ومضت به الأيام ثقيلة ثقل الهموم التى ينوء بها كاهله فكان يمضى جُلَّ يومه

داخل حجرتة لا يبرحها إلا استجابته لبعض دقات من عم إدريس يخبره أنه قد أعد الطعام .. وكان عم إدريس في بادئ الأمر يلاحظ ما حل بشريف ويحترم خلوته على طولها واعتزاله بنفسه عن الصحب والخلان ولكن بعدما طال به الحال تدخل بطيبته المعهودة .. فأخبره بأنه له بمنزلة الابن الذى لم ينجبه وذكره بأن علاقته بوالده الراحل لم تكن في يومٍ من الايام علاقة خادمٍ بمخدومه ولكنه كان دومًا فردًا أصيلاً من أفراد أسرتهم الصغيرة وواجبه نحوه ووفاء لذكرى والده يمنحه من الحق ما يتيح له التدخل فى شؤونه وإرشاده إلى الطريق الصحيح إن رآه يومًا يشذ عن الدرب الذى كان يروجوه له والده الراحل .. وأخبره أنه بعدما علم بقراره الذى اتخذه تضامناً مع أهل بلده من المصريين أثنى على موقفه الوطنى و زاد قدره لديه .. وأكد له أن الله سبحانه وتعالى هو الحق وأنه لن يتخلى عنه بعد موقفه المشرف الذى اتخذه لنصرة أصحاب الحق .. وألح عليه ناصحاً بأن حالة الاستسلام التى يعيشها الآن لن تخرجه من ما هو فيه بل عليه بتدبر أمره حتى لا يندم على قراره الذى اتخذه فيما هو قادمٌ من أيام وليستأنف حياته مستغلاً ملكاته التى حباها الله بها وعلومه التى نهل منها خلال سنوات دراسته بالخارج وليطرق أبواب العمل مشمراً عن سواعد العزم والجد وإن كان قد أوصد أمامه باباً فليفتح يعزيمته أبواباً أخر .. كانت كلمات عم إدريس نابغة من قلبٍ صادقٍ وفى فوجدت طريقها بسلاسةٍ إلى قلب شريف وخففت عنه كثيراً مما يعانیه .. وأخذ فى الأيام اللاحقة يرتب فكره وينظم أهدافه وفق ما جد عليه من مستجدات .. فأخذ يسأل نفسه عن ما يجيده بخلاف العلوم الحربية والعسكرية فوجد أنه يجيد من اللغات الفرنسية والتركية وبعض الإنجليزية بخلاف لغة وطنه العربية .. كما وجد أنه قد تعلم أثناء بعثته بالخارج ضمن ما تعلم فن الإدارة سواء لمنشآت داخل الجيش أو خارجه مما يُيسر عليه إيجاد فرص عمل مناسبة تتلائم مع إمكاناته المتعددة .. وسرح بفكره وتخيل

نفسه قد وجد العمل المريح المرضى لذاته فكون منه ثروة كبيرة .. ثم وهو ذاهبٌ إلى حموه سليمان باشا فيلقى بكل ما جمع تحت قدميه وهو يقول له مرفوع الرأس هاكم الثروة والأموال خذها جميعاً واترك لى حبيبتي ومُنية فؤادى ولا تقف في طريقنا بعد اليوم أبداً .. أفاق من خيالاته على طرقات عم إدريس ففتح له فوجده مبتسماً في إشراق وهو يقول له بسعادةٍ جَمَّة: لقد وصلتكَ رسالة يا ولدى.

أطلق الرجل المتكرر في زى الخادم النار في اتجاه نازلى هانم إلا أنه لم يصب هدفه بسبب تدخل شاب قوى البنية ظهر من خلفه فجأة ورفع يد القاتل في اللحظات الأخيرة فطاشت الرصاصة إلى سقف القاعة مخلفه دويًا كبيرًا انطلقت على أثره صرخات النساء فزعات وساد الهرج والمرج وهرول الجميع إلى خارج القاعة والسراى كلها في حين اشتبك الرجلان في صراعٍ عنيفٍ حاول القاتل فيه أن يقضى على خصمه في حين حاول الشاب أن يتشبث بيد القاتل في استماته وهو يجاهد حتى لا يصيبه القاتل بمسدسه وكان القاتل متدرّبًا على فنون القتال المختلفة فخلص يده بمهارةٍ من الشاب وصوب مسدسه في سرعةٍ إلى صدره وهو يضغط على الزناد إلا أن غريزة البقاء وحب الحياة دفعت يد الشاب لتطيح بيد القاتل وهو يطلق الرصاص فطاشت يده ثانية مما جعل الرصاصة تنحرف وتستقر في رقبه القاتل فهوى كالبالون المنقوب تحت قدمى الشاب الذى سقط هو الآخر منهكًا من فرط ما بذل من جهد عضلى وعصبى .. وعاد بعض الحضور الذين فروا بنسائهم وقت إطلاق الرصاص وعلى رأسهم مأمون باشا صاحب السراى وزوجته جلفدان هانم مهرولين ومعهم

نازلى هانم وما أن تبينوا شخصية الشاب حتى صاحت جلفدان قائلة:أخى شوكت .. ماذا أصابك؟

حاول شوكت أن يتمالك رباط جأشه وهو يهض قائلاً:إنى بخير حال .. يا أختاه.

ثم أشار إلى صهره قائلاً: استدعى الشرطه فوراً يا باشا ولا يحرك أحد شيئاً قبل مجيئها للتحقيق.

وخاطب الحضور قائلاً بصوتٍ قوى النبرات: لا تخشوا شيئاً لقد قضى على القاتل المهندس وانتهى أمره.

مأمون باشا: لا أعلم من أين أتى هذا الخادم الملعون.

ثم نظر إلى زوجته وقال بحدة: لقد حذرتك يا هانم ألا نستدعى خدماً من خارج السراى لا نعلم أصلهم ولا فصلهم و نعتمد على من لدينا هنا.

تدخل شوكت قائلاً: هذا الرجل ليس بخادم إنما هو قاتل محترف.

تساءل مأمون باشا بفرع: قاتل محترف..ومن كان يقصد هذا المأفون؟

نظر شوكت إلى نازلى وهو يقول مبتسماً: لقد كان يريد حياتك يا هانم ولكن لطفًا من الله جعلنى أرقب حركته وأستريب أمره لما وجدته يحد إليك نظرة وكنت أحسبه بادئ الأمر مشاكساً لثيمًا بهره جمالك الأخاذ وفتنتك الطاغية.

تلعثمت نازلى بعض الشيء من غزل الشاب الصريح لها فى حين لكزته أخته جلفدان ناهرة وهى تقول: ألن تكف عن عبثك هذا أبداً حتى فى

أحلك اللحظات وأشدها خطرًا؟ إن الهانم ابنة والى مصر الأسبق محمد على باشا وأخت ..

قاطعها شوكت قائلاً: إن نازلى هانم كالبدر في تمامه يعرفه الجميع من أثر ضيائه المبدد لظلمة الليل الهميم.

ثم استطرد وهو يقول لها في جدية: ولكن ما خطب هذا الأثم الذى كان يقصد حياتك يا هانم؟

نازلى: إننى لأعجب من هذا الأمر فإننى غريبة هنا لم أمكث إلا بضعة شهور ولا تحتل أن أكون قد اكتسبت خلالها عداواتٍ جديدة تدفع القتلة لمطاردتى فى نواحي إسطنبول.

شوكت: إن حديثك عن عداوات جديدة يعنى أن لديك عداواتٍ قديمةٍ لذا أرى أن الأمر يحتاج لإعاده شرح حتى نستبين من وراء تلك الفعلة الأثمة ونقتص منه.

جلفدان: ألا تريد أن تنسى ولو قليلاً طبيعتك العسكرية تلك.

ثم نظرت إلى نازلى مفسرة: إن أخى شوكت بك ضابط فى الحرس الشخصى لمولانا السلطان .. ولا أدرى كيف ألحق بتلك الوظيفة الحساسه على الرغم من مشاغبهه الدائمة وكثرة نزواته.

شوكت: إن مثل تلك الوظائف الحساسه لا يدخلها إلا من هم على كفايةٍ واقترار ولكن أختى الكبرى ذات خيال جامع يصور لها أحياناً بعض المغالطات.

نازلى مبتسمة: على كُليّ يا حضرة البك أنى لا أعلم كيف أوفيك حقك وأشكرك على ما بذلته بشهامةٍ ومروءة قلّمًا نراها اليوم فالله وحده يعلم ماذا كان سيحدث إن لم تكن موجودًا اليوم.

شوكت: لا شكر على واجب يا هانم .. ولكن إن كنتِ تصرين على رد الجميل فلا تحرمينى من لقاءٍ آخر أتابع من خلاله هذا الأمر .. فمن حرص اليوم على تلك الجريمة لازال حرًا طليقًا وسيكرر جرمه فى وقت لاحق إن لم يتم رده فى سرعة.

ومن خلفه وصلت قوة الشرطة وأخذوا فى أداء عملهم الروتينى الذى لم يسفر عن جديد ولم يكشف اللثام عن غموض الحادث .

استلقى سعيد باشا مسترخيًا على كرسيه فى قصره برأس التين وأطرق برأسه وقد بان على قسّات وجهه الهم والحزن فى حين جلس إلى جواره ابن أخيه أحمد رفعت وقد ران عليهما الصمت الثقيل حتى قطعه سعيد باشا قائلاً بصوتٍ حزين: رأيت يا أحمد ما آلت إليه أحوال الإسكندرية جراء الاعتداء الغاشم من الوالى.

أحمد: لقد عانى الأهالى التهديد والتنكيل لمدة ثلاثة أيام متواصلة ودمرت أسوار المدينة كما تعرضت الأسواق للنهب والسرقة.

سعيد: سيتطلب إزالة آثار هذا العدوان الكثير من العمل والإنفاق حتى تعود الحال لما كانت عليه وإننى لن يرتاح لى بال حتى نعوض الأهلىن ما فقدوه ونرفع عنهم مغبة هذا الظلم الواقع عليهم.

أحمد: ليست خسارة الناس مادية فحسب .. ولكن هناك كثير من الأنفس التي أزهقت جراء هذا العدوان فباتت كثير من البيوتات في مأتمٍ كبير بسبب ما فقده من ذويهم.

سعيد: سأفتح خزائني لدفع دية المقتولين ولتعويض المضارين .. فقد حدث ما حدث بسبب خطة فاشلة لم تحقق أهدافها بل تكبدنا بسببها خسائر فادحة.

شعر أحمد بتأنيب عمه له فقد كان هو صاحب تلك الفكرة فقال: نحمد الله يا عم أن الأمور لم تتجاوز هذا الحد فقد قتل خورشيد باشا قبل أن يدلى بأيّ تصريحٍ عن الاتفاق الذي تم بينكم وبينه ولم يعد هناك شهود على الأشخاص الواقفين وراء هذا التمرد.

سعيد: إن دماء خورشيد باشا ورجاله يقع وزرها على كاهلي فأنا الذي دفعت بهم إلى التهلكة دون روية أو تعقل لقد كانت خطة غير مجدية ولم تأخذ حقيها من الدراسة والتدبير مما جعلنا جميعاً عرضة للخطر والافتحام وهو أمر لا أقبله أو أرتضيه لشخصي.

أحمد: إنني لم أكن أتوقع ردة الفعل الهمجية التي أقدم عليها الوالي فقد تعامل وكأنه يخوض حرباً ضرورياً فحرك وحدات جيشه ونيران مدفعيته على بلدةٍ صغيرةٍ تعج بالرعايا المسلمين.

سعيد: لقد تعامل الوالي بتكبر وجبروت استعرض خلاله قوته وبأسه .. ولكن المسؤولية تقع على عاتقي أنا فكيف لم أتدبر الأمر وأنا الذي طالما افتخرت بنشأتي العسكرية وخبرتي الطويلة .. كيف أسير خلف رأيٍ غير مسؤولٍ وأنا مغمض العينين متغافل عن نتائجه وأثاره.

عقد أحمد حاجبيه في ضيقي وهو يقول: أرجوك يا عمى ألا تحمل نفسك فوق طاقتها .. فقد كان تصرفنا في ضوء معلوماتنا من عزم الوالى تنحيتكم من الحكم وتوريث ولده .. وكنت تريد الخروج بجيشك لمحاربتة قاضياً على كل سبل الرجعة فإما أن تقتله أو يقتلك في مواجهة مباشرة الغالب فيها يحكم ويسود فكان اقتراحى بإرجاء تلك المواجهة لما بعد والعمل وفق خطة بديلة تعمل على زعزعة الملك بين يدى الوالى.

نهض سعيد من مقامه وهو يقول: وصلنا اليوم رسالة من أخوك إسماعيل يعلمنا فيها بعزم الأمير إلهامى عدم المطالبة بالحكم وبذلك يكون الصراع الدائري بينى وبين عباس باشا قد انتهى.

ثم أكمل وهو ينظر من النافذة على البحر المتلاطم أمامه: وأرجو منك العوده للقاهرة لمتابعة أعمالك بها فإنى فى شغلٍ دائمٍ الآن لمحاولة إزاله آثار العدوان الذى تعرضت له المدينة.

وقف عم إدريس أمام غرفة شريف وهو مهمل الوجه قائلاً: لقد وصلتك رسالة يا ولدى.

وابتسم وهو يتابع: رسالة من سراى سليمان باشا.

اختطف شريف الرسالة من بين يدى عم إدريس ودخل به إلى داخل حجرتة مسرعاً ففتح الرسالة وقرأ ما بها بلهفة فكان:

حبيى شريف .. لا أعلم بمَ أبدأ كلامى لك .. أبدأ كلامى لك منذ خرجت من بيتنا بعد حديثك مع والدى مباشرة .. أم أبدأ كلامى راوية لك ما حدث بعد ذلك بأيام .. على كُلِّ إن أيامى فى بعادك متشابهة فهى خليط

من المعاناة والحزن والشقاء .. لقد كنت تجلس مع والدي في صالون منزلنا حيث أمرني بالخروج حتى يحدثك حديثًا منفردًا .. ولا أخفى عليك فقد هممت بالذهاب لولا أن فضولي وقلقي قد حال بيني وبين ذلك فوقفت خلسة أرقب حديثكما حتى كان من أمر والدي بالتفريق بيننا ونهضت أنت هامًا بالانصراف .. وقتها لم أدر ما حدث لي فقد عجزت قدمي عن حملي إلا بضعة خطوات سترتني من أمامك وأنت في طريق خروجك من بهو منزلنا ثم سقطت مغشيًا عليّ لا أدري بشيء مما حوى ولا أعلم كم لبثت على تلك الحال وعندما أفقت وجدته راقدة على سريرى بداخل حجرتي والدي جالس مضطرب بجاني يسألني عن حالي في قلقي بالغ .. فما وجدت لساني إلا لاهجًا باسمك .. ثم نظرت إلى والدي وقد انهرت في بكاءٍ شديد وأنا أقول مرددة من خلال مدامعي .. لماذا يا أبي؟ لماذا يا أبي؟ فضمني بين ذراعية بحنانٍ وهو يقول إنه فعل ما فعل من أجلى .. ولبثت على سقمى أيام لا أبرح فراثى .. فاستدعى أبي كلود بك الذي قال إنه لا يجد أى سببٍ عضويٍّ مسببًا لتلك الحال ونصح ببعض الراحة وأعطاني بعض الأدوية لإزالة الضعف والوهن والهزال الذي أعانيه .. وخاطب والدي ناصحًا إياه أن يترك عمله قليلًا كي يرعاني فهو يرجح أن ما أعانيه يرجع لعوامل نفسية وحذره مداعبًا ألا يغضبني أبدًا وألا ياكل كل طعامي ويترك لي بعض ما أتبلغ به حتى يزول عني بعض هزالي وضعفى .. ثم تنحى بوالدي جانبًا وأخبره بحزنٍ كبير عزمه العودة إلى فرنسا نظرًا لما تعانيه البلاد على يد واليها الرجعى الذي لا يقدر الخبرات والكفاءات مثلما كان يفعل سابقوه، فودعه والدي في حرارةٍ وحزنٍ بالغين في مشهد مؤثر افترق فيه صديقين تلازما رِدْحًا طويلًا من الوقت كانا خلاله شاهدين على فترةٍ هامةٍ من تاريخ هذا البلد العظيم .. ومرت بي الأيام بطيئةٍ حزينةٍ حاول أبي خلالها أن يخفف عني أحزاني بكل وسيلةٍ ممكنةٍ ولكن حالتى كانت تزداد سوءًا وبات وقت غيابي عن وعبي أكثر من وقت يقظتى .. حتى كان يوم

جاءنى أبى وقد علا وجهه ارتباكٌ غريب لم أر مثله عليه من قبل فأخذ يلاطفنى ويلين لى القول وقيل أن ينصرف قال لى وهو يتحاشى النظر فى عيى إنه يشعر بأننى لا أبذل جهداً من أجل الشفاء .. فقلت له صادقة لقد فقدت الأمل فى غدى وبت أتمنى الذهاب للقاء والدتى .. فنظر لى وهو يقول فلتتهضى من رقادك وأعدك بأننى سأصل ما انقطع .. ونهض قائماً وبالعجبى فقد لمحت بعينيهِ بعض العبرات التى أسرع خارجاً حتى لا أتبينها .. لكم أعشق هذا الرجل .. سليمان باشا قائد الجيوش العظيم الذى ارتعدت أمامه قلوب الرجال المهزومين المدحورين بعدما أزل ناصيتهم وكسر شوكتهم .. قد استسلم لإرادة حبيبين .. وكعادته يعلمنى عشقنا درساً جديداً ما كنت مصدقة إياه لولا أن خبرتهُ بنفسى وهو أن الحب العفيف الصادق لا يعرف المستحيل ولا تصمد أمامه أعتى العواصف وأشدّها هولاً .. وما هى إلا بضعة أيام قليلة حتى كنت واقفة على قدمى من جديد وخرجت من غرفتى فقابلنى والدى بفرح شديد فجلست بجانبه وتحدثت إليه صادقة أن ما أتم شفائى بعد فضل الله هو يقينى بأن قلبه الطيب الحنون الذى لن يرضى أبداً الوقوف فى طريق سعادة قلبين عاشقين لا يرجوان إلا أن يكملا حياتهما معاً .. فاحتوانى والدى بعينيهِ الحانيتين وهو يقول لى أنه ما كان يتوقع أن يبلغ تمسكى بحى هذا الحد وأنه ومنذ اليوم سيكون أكبر داعمٍ لإتمام تلك الزيجة التى لم تستطع أن تفسدها نوائب الدهر ونوازله وأنه يمتلك العديد من العلاقات الوطيدة برجالٍ كثر يعملون بمختلف مجالات الدولة وسيعمل على توظيفك بوظيفةٍ لائقة .. ففرحت بذلك فرحاً جما وقد استأذنته فى مراسلتك فأذن لى فأسرعت بمراسلتك على أمل أن تعودنى فى القريب العاجل وقد طويينا صفحة الأمس بكدرها وفراقها وبدأنا صفحةً بيضاء ناصعة نخطُّ فيها بأيدينا ما يحقق لنا بهجتنا ويتم سعادتنا وإلى لقاءٍ قريب.

أنهى شريف قراءة الرسالة التي بيده وقد اعتراه شعورٌ متداخل بين الفرح بالأخبار التي تضمنتها وبين الضيق من أنه سيضطرب أن يجعل حموه واسطةً له وهو ما سيجعله ولى نعمته في توفير أسباب رزقه .. واحتشدت بذهنه أفكار قاتمة صورت له مدى ضآلته أمام فريال والتي لولا والدها ما كان محققًا لها عيشًا رغدًا .. وحدثته نفسه في شمم أن يرفض أى عرض مقدم له من قبل حموه .. ثم تقاذفته أفكار مفعمة بالخشية صورت له أن رفضه قد يفسر تخاذلاً وعدم تحمل للمسؤولية وأنه لا يأبه بإتمام زيجته من حبيبته فريال .. وأحس بالكدر يجثم على روحه والضيق يهز أركانه فقال بكل ما فيه من مشاعر متخبطه: يا رب أنت تعلم أن ضيق حالى لم يكن أبداً تخلياً منى عن المسؤولية ولكنه بسبب إحساسى بالمسؤولية تجاه أهل هذا البلد الطيبين و جنودى المقهورين .. اللهم إن كنت تعلم أنى صادقٌ فى قولى فساعدنى وأقلنى من عسرتى.

لم يكذب ينهى عبارته حتى طرق عم إدريس باب حجرته وهو يقول له: هناك ضيف ينتظرك يا ولدى.

أسرع شريف يعدل من هندامه وهبط ليستقبل الضيف وما أن رآه حتى أشرق وجهه وصاح محيياً: الأمير عبدالحليم بنفسه فى بيتنا المتواضع .. مرحباً بالضيف الكريم.

عبدالحليم: لقد تغيبت عنا كثيراً فأردت أن أفاجئك بزيارتى.

ثم تابع ضاحكاً: أم أنك لا تطيب لك الصحبة إلا فى وجود إسماعيل بدعاباته السمجة.

شريف: يعلم الله أننى فى أشد الحاجة لرؤية أى من أصدقاء الدراسة القدامى فمعكم يطيب الحديث واللقاء.

عبدالحليم: من جديد تخطف قلوب الناس بالمحروسة فيتناولون سيرتك كما يتناولون سيرة أبو زيد الهلالي .. فيروون عنك في فخار موقفك الشجاع ضد ظلم الوالى وجبروته.

شريف: عندما اتخذت قرارى لم أكن أبغى إلا الاعتراض على الوالى والوقوف مع أصحاب الحق ولم أكن أتصور أن الأمر سيأخذ هذا المنحى ويعلم الله أنى لست طالب شهرة أو زعامة.

عبدالحليم: لقد صدر قرارك من نفسى صادقة فصدقته الناس وأحسوا بوجود من يشعر بمحنتهم ويتألم لألمهم فى ظل قيادة تطحن أبناء شعبيها وتذل ناصيتهم.

ثم تابع: وقد أخذ الله لك ولهم بالثأر بعدما حدث للوالى.

شريف متسائلاً: وماذا حدث؟

عبدالحليم: ألم تعلم بمحاولة الاغتيال التى تعرض لها الباشا وراحت ضحيتها جاريته المفضلة.

شريف متعجباً: محاولة اغتيال .. ومن وراء تلك المحاولة؟

عبدالحليم: لا أحد يعلم .. إلا أنهم وجدوا جثة واحد من الخدم بأحد أقبية القصر ومن المرجح أنه هو الذى ارتكب الجرم.

شريف: أو أن هناك من يريد إخفاء أى دليل يدينه ومعنى هذا أن هناك قاتل متخفى يتجول بجوار الوالى الآن .. ولكن يبقى السؤال من ذا الذى يريد قتل الوالى وإزاحته من الطريق؟

عبدالحليم: إن من يريدون رأس الوالى لكثُر .. فالرجل لا يفوت يوم إلا ويكسب أعداء جدد .. وعلى كُلِّ فقد سلط الله عليه بذنوبه من يقتص لك وللجنود المظلومين.

شريف: وهل تظننى سعيداً بمثل تلك الأخبار يا عبدالحليم؟ إن الطعن من الظهر لمن شيم الجبناء وليس به أى قدر من الرجولة والشهامة .. فما ذنب تلك النفس البريئة التى أزهقت سُدَى؟

عبدالحليم: ستظل تثير دوماً تعجى بأفكارك يا شريف .. فأنت مزيج غريب بين الضابط العسكرى الصارم فى قراراته والقاسى على نفسه فى كثير من الأحيان فتلتزمها بما ينوء به غيرها على حمله .. وعلى النقيض من كل ذلك تمتلك قلباً مرهفًا متألمًا لآلام الآخرين مشفقًا على من حولك.

ومط شفتيه وهو يقول: وعلى كُلِّ لم آت اليوم حتى أتناقش معك وجهة نظرك بالحياة ولكنى فى الحقيقة أمر بمشكلة بسيطة أرجو منك أن تساعدنى فى حلها.

نظر له شريف متسائلًا فتابع عبدالحليم: الأبعدية التى آلت إلى بعد توزيع التركة يوجد بها ناظر يغشنى ويسرقنى على الدوام ولا أستطيع أن أمسك عليه أى خطأ .. فالرجل داهية مرتب الأوراق منسق الحسابات ورغم يقينى من سرقة فلا أملك أن أجازية وكنت أتمنى عليك أن تعينى فى حل مشكلتى تلك.

شريف فى حزن: أجننت تعرض علىّ وظيفة بعد علمك أنى أصبحت عاطلاً عن العمل فإننى أشكر لك تعاطفك وأرفض يد الإحسان التى تمدها إلىّ فما يجمل أن يشوب صداقتنا غرض مادی .

عبدالحليم وهو يقف قائلاً بضيق: أهذا ردك على طلبى.

شريف وهو يقف بدوره: إننى أعلم جيداً أنك لست فى حاجة لمساعدتى .. وكل مرادى أن تظل علاقتنا بمنأى عن الأسباب المادية الزائلة حرصاً منى على دوامها واستمرارها.

عبدالحليم: فلتعلم أنى ما جئت اليوم محسناً أو متفضلاً بل إننى حقاً فى ضائقة كبيرة بخصوص إدارة أملاكى ولا تنس أنى أحد أصغر أمراء الأسرة العلوية .. وكان يجمل بك ألا تردنى حتى تتأكد بنفسك من صدق حديثى فإن وجدت غير ما أخبرتك فانصرف راشداً وإن كان العكس فلتقم بواجبك تجاه صديقٍ تدعى محبته والإخلاص له.

مد له شريف يده مصافحاً وهو يقول: أنت تعلم أنى لن أتأخر عنك قيد أنملة فأنت بمثابة الأخ الأصغر لى .. لذا فأنا طوع بنانك ولنبدأ العمل وقتما تشاء.

صافحه عبدالحليم بوجهٍ مستبشراً: إذن فلنبدأ من الغد يا شريف.

عقب شريف قائلاً: إلى الغد ياذن الله يا عبدالحليم.

لم تنم مدينة إسطنبول لمدة ثلاثة أيام كاملة بلياليها حيث أعلن رسمياً بدء الاحتفالات المصاحبة لزواج السلطانة فاطمة حيث سُيرت الموكب المزدانة بالألوان المبهجة والمحملة بفرش القصر الذى سيتم فيه الزواج وأطلقت الألعاب النارية المبهجة ومدت الموائد العامرة بشتى الأطعمة والأشربة فى شوارع إسطنبول وأزقتها .. وفى ديوان السلطان حيث عمت مظاهر البهجة والسرور وقدمت الوفود من شتى بقاع الأرض

ليقدموا واجب التهاني والمباركة للسلطان الذى جلس مرتديًا حلة بديعة الشكل وزين رأسه بتاج السلطنة وجلس عن يمينه ويساره حاشيته وأجلس عباس باشا فى مكان متميز بالقرب من السلطان إلا أن كل تلك المظاهر المبهجة لم تترك أثرها فى نفس عباس باشا حيث جلس مهمومًا بالحوار الذى دار بينه وبين ولده إلهامى صباح اليوم وسرح فكره وهو يتذكر قوله لولده: إن مجيئى اليوم ورؤيتى لك يا بنى محى كل أثرٍ للحزن الذى كان يعصف بى فى الأيام السابقة.

إلهامى: أرجو أن تسامحنى يا والدى على تقصيرى فى حقك وعدم مجيئى لموازنتك فى شدتك .. ويعلم الله أننى فور علمى بمصائبك عزمت أمرى بإرجاء زواجى من السلطانة والعودة فورًا إلى مصر لولا نوبار بك الذى نصحنى بعدم مغادرة الأستانة وقال إن وجودى هنا أفيد لى ولك وأن هذا سيكون رأيك فى حال ما عرض عليك الأمر.

عباس: لقد نطق نوبار بالحق فمن الجيد أنك لم تترك مكانك هنا فأنت الآن صهر السلطان العثمانى بمقامه العالى وتلك مكانة سترفعك فوق الهامات عالياً أكثر مما كنا نعد ونأمل.

إلهامى: إنه تدير المولى عز وجل ولا دخل لأحد فيه فلو علمت يا أبى كيف صارت معى الأمور لعجبت من أمرى أشد العجب.

عباس: سنجلس سوياً يا بنى وسيطول بنا الحديث ويطيب اللقاء ولكن لا تلهيك زخارف إسطنبول وبهرجتها عن هدفنا الأساسى بمصر والصراع الدائر على الحكم هناك.

صمت إلهامى قليلاً ثم قال: يبدو أن نوبار لم يخبرك شيئاً عن ما وقع من الأحداث الجارية هنا.

عباس: لقد وصل نوبار مصر في وقت كانت الأحداث محتدمة بين مؤامرة لإغتيال وتمرد بالإسكندرية فلم تسنح له فرصة الانفراد بمحادثة .. ولكن أخبرني أنت ماذا جرى فإنني قد استشعرت القلق من كلامك.

إلهامى: يا أبتِ إن زواجى من السلطانة فاطمة يحول بينى وبين حكم مصر من بعدك.

عباس: وكيف ذلك؟

إلهامى: لقد اشترطت السلطانة إن كنت أبغى حقاً الزواج بها ألا أطلب الحكم والإمارة أبداً.

عباس بحدة: وكيف توافق على مثل هذا الشرط؟ وكيف تسمح لها أن تشترط عليك أصلاً؟ لعلها نسيت أنك ابن والى مصر المحروسة أم لعلها نسيت أنك حفيد محمد على الذى كاد يدهس تحت سنابك خيله مُلك أبو تلك الفتاة وَجَدَّهَا منذ أعوام ليست بالبعيدة.

إلهامى متعجباً: أنت يا والدى تقول مثل هذا الكلام وتفتخر بإنجازات جدك محمد على .. لا حول ولا قوه إلا بالله .. يا أبتِ إن شدة حبك للإمارة جعلتك تخالف ثوابتك ومعتقداتك التى كنت تتشدد بها على الدوام .. يا أبتِ ليس بشرط فاطمة أى تعالى ولا تكبر حسبما تصورت .. لقد كان مطلبها لحمايتى وحماية أبنائنا من شر ما لاقيت أنت فى السابق وتلاقى الآن .. ولتعلم يا أبى أن مطلبها ذاك كان يلاقى بنفسى هوىً وترحاب ولكن بعدما علمت بما صار لك فقد صار مطلبها لى عقيدةً وإيمان أدين به أمام ربى فقد تحققت فيك يا والدى كل مخاوف فاطمة التى كانت تتحدث بها وكنت أظنها فى بعض الأوقات مبالغاً منها وزيادةً فى القلق.

عقد عباس حاجبيه بغضب وهو يقول: أوتجنبن أمام أعدائك يا إلهامى أهذا ما ربيتك عليه؟

إلهامى: ولماذا يكون لى أعداء من الأساس يا والدى؟ أمن أجل حكم زائل وسلطان بائد أحظى بعداوات الطامعين والحاquدين .. إن قرارى ليس جبنًا ولا خشية من أحد سوى الله الذى أمرنا بالعدل بين العباد .. وإننى أرى نفسى أضعف من تحقيق مثل هذا العدل الذى هو أساسًا للملك وهو اعتراف أرجو أن أحصل على جزائه عند ربي سبحانه وتعالى.

عباس: أرى أنك حسمت أمرك واتخذت قرارك .. أتحدثنى عن العدل والدين وتنسى السلوك القويم .. أهذا سلوك الابن البار بوالده وقت المحن؟ أتتركنى تتخطفنى يد الخونة وأواجه وحدى أعدائى المحيطين بى إحاطة السوار بالمعصم.

إلهامى: من قال إننى لم أحرك ساكنًا لقد ذهبت إلى نازلى هانم فى وأطلعتهما هى وإسماعيل باشا على قرارى فوق كلامى فى نفوسهم موقع التفهم والترحيب ووعدنى إسماعيل باشا بالتعاون معى على إنهاء كل أوجه الخلاف وإعلام العائلة كلها بأننا بدأنا عصرًا جديدًا يخلوا من أى صراع دائريين أفراد العائلة.

عباس: يالفجيعتى اليوم فيك يا ولدى .. أوصل بك الرضوخ والخذلان أن تذهب بقدميك إلى قتلة والدك لتتوسل إليهم الغفران وتعلمهم أنك قد تركت لهم الجمل بما حمل.

إلهامى: إنما ذهبت إليهم حقنًا للدماء التى سألت أنهارًا بين ذوى القربى والرحم منذ بدء ذلك الصراع على هذا الحكم الملعون .. يا أبتِ

ساعدنى كى أكمل هدفى ولا تكن عقبه فى طريق الخير والسلام ساعدنى
واجعل عملك لوجه الله يوم الحساب.

عباس: إنك واهم يا إلهامى إن ظننت أن بوسعك أو بوسع غيرك إنهاء
ذلك الصراع الدائر على حكم مصر.. أوتظن أننى من بدأت ذلك الصراع
.. إنه صراع دائر من قبلى وسيستمر من بعدى .. صراع يفرق بين ذوى
القربى و الرحم .. صراع يفرق بين الأخ وأخيه والوالد وولده .. إنه صراع
باقى بقاء شهوة الحكم والسلطة إلى يوم الدين.

مبارك الزواج الميمون دامادا⁽¹⁾ عباس باشا.

أخرجت العبارة السابقة عباس من شروده فهت للحظات ميز خلالها
يوسف كامل بك وهو واقف أمامه فحياه بإيمائة من رأسه فى حين قال
يوسف مخاطبًا السلطان: لا يسعنى يا مولاى فى تلك المناسبة السعيدة إلا
تقديم هديتى المتواضعة وهى النسخة الأولى من ترجمتى لمجموعه أشعار
تيلماك أقدمها لجلالتك وأرجو أن تنال رضاكم عنها.

تناول منه السلطان الكتاب وقلبه بين يديه فى إعجاب وقال له
مبتسمًا: إنك كل يوم تزيد من إعجابنا لك يوسف بك .. فأنت مثال لرجل
الدولة المجتهد ومع ذلك فأنت مثقف وأديب قدير ولا يسعنا إلا أن نقابل
إحسانك بإحساننا الذى لا ينفذ فقد أنعمنا عليك فى هذا اليوم السعيد
بالباشاوية سائلين الله أن يجعلها خيرًا عليك وعلى أسرته.

(1) دامادا: لقب يطلق على صهر السلطان.

يوسف: آمين .. إنكم تغمرونني بأفضالكم التي لا تُعدُّ ولا تحصى
بادشاه سلطان.

وانحنى باحترام وانصرف شاكرًا حتى خرج من القاعة الكبيرة،
وبالخارج قابله إسماعيل فحياه وأخبره بأمر إنعام السلطان عليه فبارك
له إسماعيل في سعادةٍ وحبور ثم قال له يوسف: هل لاحظت يا أمير ذلك
الوجوم والشروذ الذي يجلس فيه عباس باشا داخل ديوان السلطان.

إسماعيل: لقد لاحظت ذلك ولاحظه غيرى وإنه حقًا لأمرٌ مثيرٌ للعجب
فالمفترض أن يكون الباشا أسعد مخلوق على وجه الأرض بعد مصاهرته
ل فخامة السلطان العثماني.

يوسف: لعله إرهاب السفر الطويل والذي وصل منه اليوم ولم يرتج
منه بل بدأ مباشرةً في المشاركة بمراسم الاحتفال.

إسماعيل: بل لعله مهمومٌ بعدما أخبره ولده بعزمه عن تخليه عن
المطالبة بالحكم والإمارة.

يوسف: الحق يقال إن ذلك الفتى أقدم على خطوةٍ جريئةٍ تخلى بها
عن مطامع الدنيا وزخرفها وإنه لقرار لو تعلَّم عسير على أشد النفوس
قناعةً وأكثرها زهدًا.

إسماعيل: أعتقد أنى أنفهم غضب عباس باشا وصدمته بولده فقد
كان يسعى لتنحية عمى سعيد عن الحكم والاستحواذ عليه وذريته من
بعده ولا أعلم كيف طواع إلهامى نفسه وترك حلم والده خاصة بعدما
زُلِّت أمامه كل العقبات بقربه من السلطان.

لم يعقب يوسف وإنما تجاوز الأمر برمته قائلاً: هل لازالت عمك تصبر على اتهام عباس باشا في حادثة القتل التي تعرضت لها؟

إسماعيل: نعم إنها تؤكد ذلك وتصبر أنها سترد له الصاع صاعين

يوسف: وأنتى لها ذلك .. ولكن زيادةً في الحرص أنصحك أن تحول بين لقائهما طوال فترة بقاء الوالى هنا .. ولست أعتقد أن مقام الوالى سيطول بإسطنبول بل سيعود فور انتهاء مراسم زواج ولده إلى مصر حيث يكون كل منهم بمنأى عن الآخر.

إسماعيل في ضيق واضح: لا أخفى عليك يا الباشا .. إن هناك فتى يلازمها منذ وقوع الحادث يقال أنه من أنقذ حياتها من موتٍ مُحَقَّق وهو الذى يشد من أزرها ويحرضها على عدم السكوت لما وقع لها.

يوسف بسخرية: ويكأن نازلى هانم تحتاج لمن يحرضها ويثير سخيمة صدرها.

ثم تابع في جدية: نسأل المولى أن تمر تلك الأيام على خير دون حدوث أى مصائب جديدة.

جلس شريف فى صالون قصر سليمان باشا وأخذ يتطلع إلى الأثاث والزخارف التى تزين الجدران وقد ملأت نفسه بالغبطة والسعادة الغامرة كأنما قد عاد إلى وطنه بعد غربةٍ طويلةٍ وأقبل عليه سليمان باشا فنهض محيياً إياه فسلم عليه الباشا قائلاً: لقد مرت علينا فترة لم نلتق خلالها يا شريف .. أرجو أن تكون أحوالك قد تحسنت خلالها.

شريف: لا أخفى عليكم يا باشا لقد كانت فترةً عصبية ولكن لله الحمد فالיום صباحًا التحقت في وظيفة بأعبادية الأمير عبدالحليم مما سيوفر لي دخلًا أكبر مما كنت أتحصل عليه بالجيش وهو ما شجعتني كي أطرق ببابكم اليوم أملاً أن توافقوا على إتمام خطبتي من كريمتكم فريال.

سليمان باشا: يجب أن تعلم أولاً يا شريف أنك دائماً محل ترحيب لدىّ وثانياً أني ما قطعت عهد الخطبة الذي كان بيننا ولكن أمهلتك حتى تدبر أمرك وتتخطى محنتك فتتحرى عن موردٍ لرزقك يضمن لك ولعروسك سبل العيش الرغد وثالثاً أريدك أن تتفهم موقفي تجاهك في آخر لقاء جمعنا فإنني مثلي مثل الأباء جميعاً لا يريد غير الأفضل لأبنائه غير أني أزيد عليهم بقيامى بدور الأب والأم لفريال بعدما رحلت عنا والدتها فلا أقبل يوماً أن تضام أو يمسهما نصب وأنا على قيد الحياة.

شريف: إننى أتفهم موقفك جيداً يا سيدى وأريد ان أؤكد على أننى بعدما تعرفت بابنتكم وخالطت روى روحها وأنست نفسى قريها حتى أضحت أمنيتي في الحياة أن أنظر لبسمةٍ من ثغرها أو أرى فرحة تطلُّ من عينها وأعلم أنى لن يتسنى لى تحقيق تلك الأهداف إلا بالعمل والاجتهاد والأخذ بالأسباب الميسرة لسبل الحياة الكريمة التى تليق بابنتكم العزيزة.

سليمان باشا: إنى لا أستطيع وصف مدى سعادتى واطمئنان قلبى بحديثك هذا .. وإننى أرحب بك ثانية فرداً عزيزاً من أفراد أسرتنا الصغيرة وأتمنى لك كل التوفيق فيما هو قادم من أيام.

ثم نهض وهو يقول: سأعلم فريال بمقدمك.

وَهَمَّ بالخروج إلا أنه وجد ابنته تدلف من باب الحجرة وهي تبتسم في ارتباك قائلة: لقد استدعيت لكما بعضاً من المشروبات تعينكم على تحمل حرارة الطقس.

نظر لها سليمان باشا باسمًا وهو يقول: وأين تلك المشروبات يا فريال؟

زاد ارتباكها وهي تقول: لقد أمرت بإحضارها إلى هنا فور الانتهاء من إعدادها يا أبى.

سليمان باشا مداعبًا ابنته: على كُلِّ لقد كنت أريد إخبارك أن شريف هنا ولكن يبدو أنك تعلمين بخبر قدومه حتى قبل علمي أنا .

فريال بخجل: لقد كنت أمر بالمصادفة من أمام غرفة الصالون فسمعت حديثكم بالمصادفة وعلمت بأن شريف هنا بالبيت. سليمان باشا وهو يطلق ضحكة عالية ويقول: بالمصادفة .

ثم نظر إلى شريف قائلاً: فلتحمد الله على أن حموك متفتح الذهن غير متمسك بالتقاليد الصارمة في تلك البلد .. فإن حموى لم يسمح لي برؤية زوجتي إلا في ليلة الزفاف.

فريال وهي تبتسم قائلة بمداعبة: ولكنك كنت تمر يوميًا يا أبى من أمام شرفة بيتهم فتنظر إلى أمى وهي واقفة خلف نافذة منزلهم فتسر لها بما تريد دون علم جدى.

تلعثم سليمان باشا وهو يقول: رحم الله أمك لقد نسيت أنها ما كانت تخفى خبراً عنك.

شريف: رحمها الله .

ساد جو من الوجوم لحظات جال كل منهم خلالها بأفكاره الخاصة حتى ربت سليمان باشا على وجنتى ابنته فى حنان وهو يقول: أرجو من الله أن يجعل أيامكما أسعد من أيامنا.

و أشاح بوجهه قائلاً: لا أعلم لم تأخرت المشروبات إلى الآن .

وانصرف من الحجرة وهو يغالب دموعه التى فاضت من عينيه.

نهض عباس باشا من على أريكته وهو يستقبل صديقه الشيخ عبدالرحمن الذى قال له: مرحبًا بعودتك سالمًا يا عباس ومبارك عليك زواج الأمير إلهامى أدعو الله أن يجعله زواجًا ميمونًا مباركًا .

عباس وهو يجلسه بجانبه: علام تهنئنى يا عبدالرحمن أما علمت بما أنا فيه من بلاءٍ وكرب.

الشيخ عبدالرحمن بقلق: خيرًا يا أخى ماذا حدث؟

عباس: لقد كنت أعلق أمالًا عريضةً على تلك الزيجة فكنت أرجو الحصول على فرمانًا يجعل الحكم فى ذريتى من بعدى .. لكن الفتى تغيرت طباعه وخرج عن إرادتى وسلك مسلكًا بخلاف ما أعددت له فأنبئنى بعزمه على التخلّى عن أملى ومرادى .. أرايت جحودًا مثل هذا يا عبدالرحمن أأطلب له السعادة ويضن علىّ بتحقيق هدفى.

عبدالرحمن: أهذا ما تسميه بلائٌ وكرب .. لقد أقلقتنى وظننت أنه قد أصابك مكروه أو شر لا سمح الله.

عباس متعجبًا: وهل هناك مكروه وشر مثل ما أنا فيه يا رجل.

عبدالرحمن بأسف: لا زلت تتكالب على الحياة الدنيا وأخذك زخرفها البراق عن وظيفتك الأصلية التي ما خلقت إلا من أجلها ووظيفتك الثانوية التي حُمِلت بها.

عباس متسائلًا: وما وظيفتى الأصلية ووظيفتى الثانوية؟

عبدالرحمن: وظيفتك الأصلية والتي ما خلقت إلا من أجلها هي عبادة الله مخلصًا له الدين حيث قال سبحانه وتعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ووظيفتك الثانوية هي التي حُمِلت بها عند ابتلائك بالحكم والإمارة على الناس تقوم بحوائجهم وترعى مصالحهم وتعمل كل جهدك لتحسين أوضاعهم المعيشية السيئة.

عباس: كيف أجمع بين الوظيفتين فالتفرغ للأولى يمنعنى من الثانية؟

عبدالرحمن: ليس في الوظيفتين تعارض كي تقوم بواحدةٍ دون الأخرى .. فقيامك بالوظيفة الثانية في إخلاصٍ وتفانٍ يُتِمُّ لك وظيفتك الأولى فيتحقق فيك موعود المصطفى صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله فقال وإمام عادل.

عباس: وأين آمالى وأحلامى كيف أحققها وأنا بين تِلْكَما الوظيفتين كالحَب بين شقى الرحى.

عبدالرحمن: لذلك ابتعد ولدك عن الإمارة في قرارٍ حكيم يحمده له رغم صغر سنه فأنت فعلاً كما وصفت بين شقى الرحى فيبين هوى نفسك وأطماع ذاتك التى لا تنتهى وبين مسؤوليتك تجاه شعبك والتى لن يقاضيك عليها إلا رب العالمين .. فإما أن تنتصر على شيطانك وتحقق آمال شعبك وإما أن تورده نفسك التهلكة.

عباس: تحدثنى عن شعى ومطالبه كأنى أسومهم سوء العذاب.

عبد الرحمن: أما علمت أنهم على شظف العيش يعيشون وفي الجهل يرفلون وتحت ظلم جلادينك يقبعون.

عباس: إن مثلهم قد اعتاد تلك الحياة وألقها فإن عودتهم عيش الرفاهية وعاملتهم بانهار الوجه يتمردون ويستأسدون ولك فيما مضى معتبر لقد رفع جدى من قدرهم فبعثهم فى بعثات للخارج ينهلون من علوم الغرب فعادوا وقد بهرت عقولهم العلوم الغربية الخبيثة بعدما بهرت عيونهم حياة التحرر والسفور التى يحيها الغربيون فعملوا جهدهم ليبدلوا عقول الناس بعلوم دنيوية ليس فيها نفع ولا خير شاغلين الناس عن العلوم الشرعية.

عبدالرحمن: إن علوم الغرب تزخر بالغث والثمين ونحن نأخذ ما يتفق مع ثقافتنا وما تتطلبه نهضتنا وليس من الحكمة أن نعلم أحكامك فتصم كل العائدين من البعثات بالمهترطين إنك بذلك تنفى عنهم كل حسنة وتلصق بهم كل نقيصة وهو ظلم فى الحكم لا يقول به مُنصف فأنت لا تستطيع أن تنكر أنهم وراء النهضة بشتى المجالات فى عهد جدك الراحل فكفى أن تنظر إلى حال مصر قبلهم حيث كانت تتخطفها أيدي المستعمرين ينهبون خيراتها أما الآن فثلاثة أرباع خراج مصر وخيرها يصرف

داخل أرضها والربيع الآخر يذهب لخزائن الخلافة بإسطنبول بغض النظر عن الاحتكار الذي فرضه جدكم ومساوئه الجمة حيث ينقل كاهل الفلاحين ويمنعهم غرث أيديهم.

عباس: إننى لأعجب من أمرك يا عبدالرحمن .. أتجادلنى فى فائدة النهل من العلوم الغربية وتثنى على المتعلمين بعلومها وأستشعر منك الرغبة بتحريضى على إعادة الكربة بإرسال أبناء الوادى للبعثات الخارجية من جديد وأنت الشيخ الأزهرى الذى من المفترض أن تحضنى على زيادة الطلاب بالأزهر لنشر علوم الدين والشريعة .. كما تعيب نظام الاحتكار وترغبى فى منح الفلاحين خراج الأرض وأمنعها عن دولتنا العلوية .. إنك لن تستريح يا عبدالرحمن إلا بضياح دولتنا من بين أيدينا.

عبدالرحمن مبتسمًا: أنت تعلم أنى لك ناصح أمين ويعلم ربه أنى لا أريد لك إلا كل خير .. ثم أخبرنى بالله عليك أتريد أن تجعل من الناس كافةً مشايخًا معمرة؟ أيستقيم الحال دون وجود الأطباء والمهندسين وغيرهم من أصحاب الفنون والمهن كما إن الأزهر ولله الحمد يزدحم بطلابه وخريجيه وليس بهؤلاء فقط تقوم الأمة وتنهض الدولة فكلُّ يحتاج للأخر فى مجاله .. أما دعوتى لك بإنصاف الفلاحين ورفع الضيم عنهم فهذا أمر الله لك فأنت راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته فانظر فى شأنهم بما يمليه عليك ضميرك.

صاح عباس منادياً على خليل أغا وقال له: استدع لى حسن المنسترلى باشا ونوبارك فوراً.

أذعن خليل أغا بالأمر فنهض الشيخ عبدالرحمن قائلاً: سأترك لتباشر أعمالك وفقك الله فى مسعاك.

عباس: لا ترحل قبل أن ترى عاقبة مشورتك.

وبعد لحظات كان المدعوان واقفان بين يدي الوالى حيث قال لهم:
أريد منكما أن تتعاونوا في حصر جميع الأراضي بالدولة من حيث مساحة
الأرض ونوع الخراج وكميته ولا تُدخِلوا الأبعاديات التي في حيازة أفراد
العائلة العلوية بحساباتكم على أن توافقونا بالبيان فور الانتهاء من إعدادهِ
وفي أسرع وقت.

وأحنى الحضور رؤوسهم علامة التفهم والتنفيذ .. وابتسم الشيخ
عبدالرحمن وهو ينظر بامتنان إلى صديقه الوالى.

جلس شوكت بك داخل صالون منزل نازلى هانم مسترخياً في جلسته
ملقياً سترته وطربوشه الأحمر على المقعد المجاور له في إهمال وعلى مقربةٍ
منه جلست نازلى تقول له: يا شوكت إن كثرة زيارتك وترددك على تلفت
أنظار الناس إلينا وتثير حولنا ظنونهم وغمزهم ولمزهم.

شوكت: لم أكن أعلم أنك تعيرين الناس كل هذا الاهتمام.

نازلى: إن في بعض كلام الناس لمُزَجِر لكل ذى عقل فعلاقتنا التي
توطدت سريعاً تحتاج منا إلى بعض التعقل والتريث كما أننى امرأة غريبة
عن البلاد والغريب سهل اتهامه والنيل من سمعته.

اعتدل شوكت في جلسته وهو ينظر لها بافتتان قائلاً: أتعلمين يا نازلى
سر تعلقى بك من أول نظرةٍ ولقاء لنا؟

ولم يمهلهما للإجابة بل قال مباشرة: إن سر تعلقك بك هو جرأتك المفلتة في تعاملك مع من حولك وتحركك من كل القيود والتقاليد البالية التي تفرض على نساء بلادنا .. إنني ولأول وهلة علمت أنك تختلفين والاختلاف تميز يا عزيزتي.

نازلي: إنى لا أنكر سخريتي الدائمة من تلك التقاليد والقيود وكنت أخرج وأسهر وأنعم بكل لحظات حياتي دون تحفظ ولكنني دائماً ما كنت أضع خيطاً رفيعاً يفصل بيني وبين من حولي من الرجال .. خيط رفيع يلمح ولا يُصرح يُطمع ولا يُشبع .. فكنت كالزهرة النادرة وسط البستان المنضر .. حتى رأيتك يوم الحادثة وشاهدت ما فعلت من أجلى.

شوكت وهو يميل نحوها متخابئاً: وماذا حدث لك وقتها؟

نازلي وهي تنظر له مبتسمة: حقاً لا أدري ماذا حدث .. لقد انهارت كل حصونى التي شيدتها من حولي وتخلّيت عن كل وقارى وغرورى بإرادتى ورضاي فسرت في ركابك مغمضة العينين أتبعك إلى حيث تقودنى وهو أمرٌ لم أعتده من قبلك يوماً من الأيام .. فقد كنت أقود ولا أقاد .. أتبع ولا أتبع .. فكيف صنعت منى تلك المرأة التي لا أعرفها في هذا الوقت القصير يا شوكت؟ كيف هزمت امرأة طالما وصفها الرجال بقوة الشخصية وشدة البأس .. أجبتى بالله عليك؟

شوكت وهو ينظر في عينيها: إننى لم أفعل شيئاً يا نازلي ولكنه الحب الذى جمع بين قلبى وقلبك .. والمشاعر لا تحسب بأدوات القياس كما بالتجارب العلمية ولا تخضع لأحكام العقل بل وتدفعنا لارتكاب أفعال يُنظر لها بالجنون وتحضنا على اتخاذ مواقف توصم بالسفه إنه الحب .. الحب الذى يصنع المعجزات.

نازلى بارتباك: ولكن لا يجدر بنا يا شوكت أن نتمادى فى مشاعرنا دون بعضى من تعقلٍ أوروبية فالناس من حولنا لا يرحمون.

شوكت فى ضيق: ستعودين ثانية لكلام الناس يا نازلى .. فلتعلمى إن الحياة تتطور من حولنا وسيأتى زمن سيسخر فيه الناس من تلك التقاليد البالية التى قبعوا تحت وطأتها لعقودٍ طويلةٍ من الزمن تجثم على نفوسهم وتتحكم فى مصائرهم.

نازلى: إننى لأعجب من تفكيرك هذا على الرغم من حداثة سنك وقلة مخالطتك فى الحياة فكيف تتبنى مثل هذا الفكر المختلف وتتخذ منهجاً لك فى الحياة.

شوكت فى جدية: أظننى متفرداً فى أفكارى هذه يا نازلى؟ لا .. إننا مجموعة من الشباب المثقف داخل وحدات الجيش وخارجه منا الصحفيون والكتاب والأطباء والسياسيون تجمعنا فكرة للتمرد على حياة التخلف والرجعية التى ترفل فيها تركيا منذ أكثر من ألف عام تحت مسمى الخلافة العثمانية أو الخلافة الإسلامية التى ما كسبنا منها إلا الفقر والخراب فالعالم يتطور من حولنا ويستضىء بنور العلم ونحن نخضع لأحكام المفتى الذى يحرم أى فكرةٍ للتطور والتمدد خشية أن تضيع سُلطته وسُلطاته وتذهب إلى العلماء المستنيرين ولا يستطيع السلطان العثمانى إلا طاعته خشية أن يلغعه ويتهمه بالكفر والهرطقة .. كذلك السلطان العثمانى نفسه الذى يُهك خزائن الدولة ويشتت مواردها على مساحةٍ تبلغ نصف الكرة الأرضية بدلاً من استثمار تلك الموارد لهضبه تركيا وتطورها .. كل هذا القهر والتخلف الفكرى أعاد إلى أذهاننا أوروبا فى العصور الوسطى التى كانت تخضع لسيطرة الكنيسة وأحكامها المتعسفة حتى تحررت بإنهاء سلطة الكنيسة وتنجيتها من الحياة العامة فانطلقت

الأفكار المستنيرة تتبلور حتى شكلت أوروبا المتقدمة التي نسير نحن الآن في ركبها، كل تلك الأفكار جمعت بيننا ووحدت عزمنا على أن نخرج تركيا من هذا النفق المظلم الذي تقبع داخله فنهمى على الخلافة العثمانية ونحرر تركيا من سلطة العثمانيين وقيود المفتى وأحكامه الرجعية ودولته الدينية المتعسفة .. وهذا لتعلمى مدى صدق مشاعرى تجاهك فما أنا ذا أطلعك على خبيئة صدرى وأأتمنك على سرى الذى إن افتضح سيكون مقابله رأسى.

كانت نازلى ذاهلة من ما استمعت إليه منذ قليل وتبلبلت الأفكار داخل رأسها لا تدري بِمَ تجيب وماذا تقول وقد أعفاها من ذهولها دخول وصيفتها قائلة: إن إسماعيل باشا قد قدم لرؤيتك يا هانم.

ولم ينتظر إسماعيل رد فدخل إلى داخل الغرفة قائلاً بحدة: ومنذ متى أخذ الإذن قبل الدخول إلى عمى نازلى؟

ثم نظر إلى ضيفها قائلاً فى سخرية مخاطباً الوصيفة: معك حق إن الأمر يختلف فهناك ضيفٌ بالمكان.

وأحنى رأسه قليلاً وهو يقول ساخرًا: أعتذر على الإزعاج يا سمو الأميرة.

عقدت نازلى حاجبها بغضب من أسلوبه الساخر فى حين نهض شوكت وهو يرتدى سترته ويضع طربوشه على رأسه ويقول: ليس هناك أى إزعاج يا باشا فأنا كنت على وشك الانصراف قبل مجيئكم بلحظات.

نظر له إسماعيل بزراية وجلس على مقعدٍ أمامه وهو يتفحصه بتكبرٍ بالغ حتى لملم شوكت أشياءه وحياهُ ونازلى وانصرف وما أن غادر المنزل

حتى قالت نازلى بضييق واضح: أما كان يجمل بك أن تستأذن قبل قدومك يا إسماعيل فقد أكون في شغل يعوقنى عن استقبالك وضيافتك.

إسماعيل: ولم أستأذنك وأنتِ تفتحين باب منزلك على مصراعيه لاستقبال الغرباء فهل توصدينه عن ابن أخيك وأقرب أقربائك.

نازلى بغضب: الزم أدبك يا إسماعيل وتحدث بإسلوب لائق قبل أن تسمع منى ما لا يرضيك.

إسماعيل: بل إننى أسمع عنك ما لا يرضينى وما كلماتى إليك إلا أليقُ كلماتٍ أنقلُ بها كلام الناس عنك وعن هذا الصعلوك الذى يلازمك فى تلك الأيام.

نازلى: للمرة الأخيرة أحذرك يا إسماعيل تحدث عنى وعن ضيوفى بأسلوبٍ أفضل من ذلك وإلا ..

قاطعها إسماعيل فى غضب: وإلا ماذا يا عمتى ماذا ستفعلين بنا أكثر من ذلك إن القوم تلوك سيرتك وتتحدث فى حقك بكل سوء .. إننى لا أعلم ماذا حدث لك لقد كنت مَحَطَّ إعجاب كل أفراد عائلتنا ومحل مشورتهم وملاذ مستضعفهم فكيف ترتضين لنفسك بمثل هذا الحال.

نازلى بانكسار: أتريدنى أن أهب حياتى لعائلتك المتناحرة أليس لى حق أن أحيا كسائر البشر أنعم بحياةٍ أختارها بنفسى ويكون لى بيتى وأسرتى ألسنت امرأةٍ ولى من المشاعر والأحاسيس ما لسائر النساء أم أنك تضن على بحقوقى فى الحياة وتريدنى مترهبة زاهدة إلى جواركم أنتظرزائراً منكم يسأل عنى فى وحدتى الموحشة.

إسماعيل متأثراً بكلامها: ليس هناك من ينكر عليك حقاً من حقوقك يا عمى ولكن هناك أصول متعارف عليها يتبعها الناس في تلك الحالات فهل فكرت في فارق السن الذى بينك وبين هذا الشاب؟ وهل فكرت في مقامك كأمريرة علوية وفي الفروق الكبيرة بين أسرتك العظيمة وأسرته التى دون مستواك؟ فكرت في الفروق المادية التى بينك وبينه وأنت تملكين من الثروة والأموال ما يُطمعُ فيك الطامعين وأصحاب النفوس الوضيعة؟ وإذا نسيت أن تفكرى في كل ماسبق فكيف يُصَوِّغُ لك عقلك أن تلازمى شاباً لا تربطك به أى صلة متقبلة من الناس والمجتمع؟

نازلى وهى تجاهد كى لا تفر منها عبراتها وإن خرج صوتها موشئاً بما يعتمل داخل صدرها: لقد تحدثت عن عمرى كأنتى امرأة عجوز هَرِمَة أنسيت أننى فى الثانية والثلاثين الآن.

إسماعيل: وهو لم يتم الخامسة والعشرون من عمره أى أنك تكبريه بأكثر من سبع سنوات.

نازلى: إن علاقتنا أكبر من تلك المظاهر التى تتحدث عنها وكيف لك أن تعلم حقيقه ما أقول وأنت لم تخبر تلك المشاعر من قبل وأنت من تزوج بأمر شاهانى من السلطان العثمانى بوصيفة أهداك إياها السلطان أنجبت منها ولدك توفيق ولم يجمع بينكما أى حب أو عاطفة من قبل.

إسماعيل: قد تكون علاقتى بشفق نور هانم غير مبنية على حبٍ أو عاطفة ولكن تلك العلاقة لم تضعف من موقفى وتسبب لى الزراية فى عيون الناس بل زادت من تدعيم مكانتى عند السلطان فأنعم علىَّ بعطاياه وحبانى بفضله .. وموقفك على خلافى فهو يقلل من مكانتك التى كنت تتمتعين بها بين صفوة القوم بإسطنبول ونُسىء إلى سمعتك بل ويؤثر على

وجودك في الأستانة جمعاء .. وإننى لأعجب منك يا عمى وأنتِ التي كان
يضرب بها المثل في رجاحة عقلها وشدة ذكائها لم تنتهى لمثل تلك الأمور.

نازلى: إن المشاعر لا تحسب بأدوات القياس كما بالتجارب العلمية ولا
تخضع لأحكام العقل بل وتدفعنا لارتكاب أفعال يُنظر لها بالجنون
وتحضنا على اتخاذ مواقف توصم بالسفه.

وغلبيها الابتسام حين وجدت نفسها تردد كلمات شوكت فتمتمت في
سرها: إنه الحب .. الحب الذى يصنع المعجزات.

دخل عباس إلى حجرة جاريته الراحلة برلانته والتي كان يقضى بها
معظم أوقاته في الحرملك ووقف صافاً قدميه في صلاةٍ ليليةٍ طويلةٍ عملاً
بمشورة صديقه الشيخ عبدالرحمن وأخذ يتنقل بين آيات القرآن الكريم
والتي كان يحفظها في سابق عهده فاستشعر بالآيات تغسل روحه وتنقيها
من خبثها وقد غشيتة السكينة والطمأنينة فجلس بعد صلاته يذكر ربه
وقد فاضت عيناه من الخشوع وهو ويدعو قائلاً: يا رب ما لى هادياً سواك
أدعوه .. فأثر قلبى المظلم من فيض نورك .. وخذ بناصيتى إليك .. ولا تكلنى
إلى نفسى طرفة عين.

واستمر في مناجاته حتى غلبه النعاس .. فرأى بمنامه برلانته قادي
وهى تخاطبه في آخر حوارٍ دار بينهما حيث كانت تستجمع كل طاقتها
لتبتسم له قائلة: لا وقت لذلك يا حبيبي فعندى طلبٌ أخير أطلبه منك
قبل الرحيل أود أن تحققه لى .

بكى عباس بحرقه وهو يقول: سلى ما تشائين يا أميرتى.

جاهدت برلانتة لتقول: أود أن تجمع كل الهديا من المجوهرات والحلى والأموال الخاصه بى فتنفقا جميعًا على مسجد السيدة زينب الذى كنت تنوى وضع حجر أساسه عما قريب وإقامة سبيل ينتفع به الناس و يكون لى أجره بإذن الله.

وأفاق عباس وهو يتذكر هذا الكلام وكان قد نسيه فى غمرة الأحداث المتلاحقة فأخذته العبرات وهو يقول: سأحقق وصيتك يا حبيبتي حتى ترتاحين بمرقدك وتهدى روحك عند بارئها.

جلس شريف خلف مكتبه المخصص له بإدارة أملاك الأمير محمد عبدالحليم بالأزبكية وقد تجلى على وجهه الانهماك الشديد فقد كانت أملاك الأمير عبد الحليم تنتشر فى ربوع البلاد من شمال الوادى إلى جنوبه تنوع بين قصورٍ فارهةٍ وأراضٍ خصبةٍ تنتج أجود المحصولات على اختلافها وأخذ يراجع أكوام الملفات التى قد وضعت أمامه ثم لاح عليه الامتعاض وعدم الرضا فترك الملفات التى أمامه وخرج إلى باب حجرته وقد رفع صوته وهو ينادى: إسحاق أفندى.

ثم عاد إلى مجلسه وما أن استقر حتى دخل عليه رجل فى بداية الخمسينات من العمر تطل من عينيه الضيقتين أمارات المكر والدهاء وقال متحدثًا بصوته الأخنف: أوامرك يا سعادة البك.

شريف: هل أنت المسؤول عن مراجعه دفاتر الأبعادية؟

إسحاق: طبعًا يا بك أأست أنا ناظر الأبعادية.

شريف: إذن يا أفندى ما تفسيرك لكل تلك المغالطات التى تزخر بها كل الدفاتر والأوراق؟

إسحاق: كيف هذا يا حضرة البك .. إن دفاترنا كلها سليمة وتراجع بكل أمانة وإتقان .. فمن أين تاتى تلك المغالطات التى تتحدث عنها.

نظر له شريف برهة ثم أخرج ورقة من فوق مكتبه وقال: لقد تم تسجيل قطن محو بك بقيمة 160 قرشاً للقنطار فى حين أن سعره المتعارف عليه 175 قرشاً للقنطار.

إسحاق: يا حضرة البك إن سعر القطن فى النازل دائماً للكساد الحادث بالأسواق فمن أين جئت بهذا السعر؟

شريف: من الأسواق التى يباع بها .. فلقد بيع القنطار على 175 قرش منذ شهرين أى فى نفس توقيت تسجيل ذلك الدفتر.

تلعلم إسحاق أفندى فتابع شريف قائلاً: كذلك سعر أردب الأرز تم تقييدها بالدفاتر بـ 90 قرشاً فى حين أن أسعارها الحقيقية بـ 110 قرشاً فأين تلك الفروق يا إسحاق أفندى.

فلما لم يجد جواباً تابع: كذلك هناك كميات تسجل فى دفاتر الشون أكبر من الكميات المباعة فأين الفرق بين الرقمين فمثلاً تم تسجيل كمية 5000 أردب تم حصادهم وتخزينهم بالشون فى حين تم بيع 4350 أردب فقط فأين الفرق يا إسحاق أفندى.

أخرج إسحاق أفندى منديلاً قماشياً كبيراً ليجفف العرق الظاهر على جبينه وهو يقول: إن تلك الكميات لازالت بشون الغلال يا حضرة البك

ولم يتم بيعها إلى الآن فكما قلت لجنايبك من قبل حركة البيع ضعيفة جداً في تلك الأيام.

نهض شريف قائلًا: إذن فلنذهب لشون الغلال كي نرى الكميات التي تتحدث عنها وننظر في ذلك الفارق الموجود بالدفاتر.

وقف إسحاق أفندى بدوره قائلًا: فلننتظر للغد يا سعادة البك فاليوم شارف على الانتهاء والمسافة بعيدة لشون الغلال.

شريف: ولم الانتظار إلى الغد ألا تعلم بأن خير البر عاجله.

لاح الارتباك الشديد على إسحاق أفندى وهو يقول: كما تحب يا بك .. كما تحب.

وضع عباس باشا حجر الأساس لمسجد السيدة زينب ووقف حوله كبار رجال دولته الذين تقدمهم الشيخ إبراهيم الباجورى شيخ الجامع الأزهر في حفل كبير أقيم بتلك المناسبة .. وأخذ الباشا يتلفت يمنة ويسرة بحثًا عن صديقه الشيخ عبدالرحمن حتى رآه متخلفًا في آخر الصفوف فأشار له ليتقدم بجانبه إلا أن الشيخ أبى ولبث في مكانه .. واستمرت مراسم الاحتفال بقراءة آيات الذكر الحكيم ثم تلتها كلمة الشيخ الباجورى الذى أثنى على همة الوالى العالية وشدة إنفاقه فى سُبُل الخير .. كما تحدث حسن المنسترلى باشا محافظ القاهرة عن المخصصات التى أعدت للإنفاق على إنشاء المسجد الكبير وأنها لم تكلف الدولة أى أعباء حيث تكفل بها الباشا من خزائنه الخاصة .. وتكلم الباشا أخيرًا فخاطب الحضور وأثنى على النبى وعطرته آل بيته الطيبين وحدثهم عن وجوب

الاهتداء بهديهم وتذكير الناس بمآثرهم الخالدة وبشر الحضور بترميم مسجد الحسين وتوسعة صحنه كي يتسع لجموع المصلين والمريدين وانتهى الحفل فانفرد الباشا بصديقه الشيخ عبدالرحمن الذى قال له: إن الفلاحون يدعون لك بالخير بعد الإصلاحات التى قدمتها لهم .. فقد الغيت الاحتكار وأتحت لهم حق تملك الأراضى الزراعية وتوريد المحاصيل بالسعر الذى يناسب تكلفتها .. كذلك الخطوة الجريئة التى اتخذتها بتمليك الأراضى للعربان ليستصلحنها مما سيعمل على استتباب الأمن بتلك النواحى النائية كل هذا مقابل رفع الضريبة إلى النصف فلقد أعطيتهم حقهم وأخذت للدولة حقها وهذه براعة تذكر لك.

عباس: كل هذا بفضل مشورتك يا عبدالرحمن فُدمت لى نعم الصديق الناصح الأمين.

ثم تابع قائلاً: ولا تشعر اليوم مقدار سعادتى بتحقيق وصية المرحومة برلانته قادين بعمل تلك الصدقه الجارية على روحها راجياً أن ترتاح روحها فى قبرها بتنفيذ وصيتها.

عبدالرحمن: بإذن الله سترتاح روحها فى قبرها فبمثل تلك الأعمال تتثقل الموازين وتبييضُ الصحف وليس بالثأر والانتقام الذى كان يأكل صدرك ولم تكن لتجنى منه إلا الحسرة والندم.

عباس: لا تذكرنى بتلك الأيام يا رجل فإننى اليوم أشعر كأنى صرت خَلْقًا آخر غير الذى كنت عليه .. فالיום لا يثقل روحى حقدًا أو نعمةً على أحدٍ من الخلقِ أجمعين.

عبدالرحمن: إن هذا والله لهو النصر المبين .. يوم ينتصر المرء على نفسه الأمانة بالسوء .. إننى اليوم يا عباس أستشعر صدق توبتك وكلى

أمل ويقين أن القادم من أيام سيشهد منك تصحيحًا لكل أخطاء الماضي وسيحمل بين طياته من الخير الكثير.

وقف إلهامى باشا فى صبيحة النهار أمام ديوان السلطان مع جمع من وزراء الدولة ورجالها الذين كانوا فى انتظار مقدم السلطان العثمانى لبدء جلسة جديدة من جلسات الديوان .. فى حين كان إلهامى ينتظره لأمرٍ آخر فقد كان يشعر بالسعادة الغامرة وقلبه يرقص فرحًا بسبب البشرى التى تملك عليه لُبُّهُ ووجدانه وما لبث لحظات حتى مر السلطان من أمامهم فحياهم مسرعًا وهو يهيم بدخول الديوان ثم وقف برهة بعدما لمح بين الحضور صهره إلهامى فأشار له بالاقتراب وحياء مبتسمًا وهو يقول: دامادا إلهامى باشا كيف حالك وحال ابنتنا الغالية فاطمة سلطان.

إلهامى: إنها هنا يا مولانا السلطان وستلقاكم بعد انتهاء الديوان إلا أنى أردت أن أكون أول المبشرين لفخامتكم بالأخبار الحسنة.

تنحى به السلطان جانبًا وهو يتطلع له فى شغف ويقول: خيرًا .. بشرك الله دائمًا بالخير.

إلهامى باشا: إننى جئتكم اليوم لأبشركم بخبر حمل السلطانة فاطمة بأول أحفادكم بإذن الله يا مولانا السلطان.

السلطان وهو يحتضنه فى فرح وسرور: ما شاء الله .. ما شاء الله .. إنه حقًا لخبرٌ ميمونٌ ونبأٌ سعيدٌ.

ثم تابع فى سعادةٍ جمَّة: سنقوم بنثر القطع الذهبية على جموع الشعب كي يدعوا لابنتنا العزيزة أن يتم الله حملها على خير .. ولا تنس

تذكيري بعد انتهاء الديوان بإصدار أوامرنا لأمهر طبيبات القصر لمتابعه حاله السلطانة ومرافقتها طوال فترة حملها.

وهم بدخول الديوان في حين اتجه إلهامي للإنصراف لولا أن نادى عليه السلطان ثانية وقال له: لتحضر معي اليوم جلسته الديوان .

لاح التردد على وجه إلهامي فقد كان على عهده مع السلطانة متجنبًا أي مشاركة في السياسة والحكم إلا أن السلطان عاد يخاطبه في حزم أمام جموع الواقفين من أصحاب المقامات الرفيعة: هيا يا باشا.

ثم نظر إلى جموع الواقفين وهو يقول: فالיום لدينا جلسة هامة نستقبل خلالها المبعوث الروسي لنرى ما يجعبته.

ودخل إلى الديوان حيث أحنى الحاضرون رؤوسهم في احترام ثم اتَّبَعُوهُ إلى الداخل .. ولبثوا ساعه يتباحثون أمور الدولة اليومية حتى دخل عليهم حاجب الباب يستأذن السلطان بدخول المبعوث الروسي فأعطاه السلطان الإذن فقدم المبعوث الروسي ووقف أمام السلطان وقال له محيياً بتعالٍ وغرور واضحين: منشكوف وزير البحرية ومبعوث فخامة القيصر نيقولا الأول على رأس البعثة الدبلوماسية للتفاوض معكم ببعض الأمور المتعلقة بين بلدينا.

نظر إلهامي للرجل متعجبًا من تعامله في حضره السلطان بصلف وكبر غير لائقين واستشعر أن هذا اللقاء سيحمل بين طياته الكثير فتابع بتربق كلام المبعوث الروسي وهو يقول: جننا للتفاوض معكم بشأن قضية الأماكن المقدسة بالقدس طالبين الحصول على بعض الامتيازات للرعايا الأرثوذكس بالدولة العثمانية وتنحية الرهبان الكاثوليك .. وجعل الرهبان الأرثوذكس هم أصحاب الكلمة العليا بالأماكن المقدسة في بيت لحم

بالقدس بحيث يكون لهم حرية التصرف بمفتاح كنيسة المهدي وبالنجمة الذي وضعه الأرثوذكس في مكان ولادة السيد المسيح .. وإصدار الأمر بإنشاء القبة الكبرى لكنيسة القيامة من قبل بطريركية الروم الأرثوذكس بواسطة الحكومة العثمانية دون إشراك الكاثوليك وعقد اتفاقية تعلن أن جميع المسيحيين في الديار المقدسة تحت الحماية الروسية.

كان إلهامي يتوقع أن ينفجر السلطان غضبًا في وجه هذا الروسي المغرور إلا أن توقعاته جاءت في غير محلها حيث قال السلطان للمترجم مهدوء: هل هناك أي طلبات أخرى؟

فلما جاءت الإجابة بالنفي قال السلطان: أمهلنا يومين نتباحث فيهما مع رجال دولتنا ثم نعلمكم بردنا.

وما أن خرج الروس حتى نظر السلطان إلى رشيد باشا قائلاً: وزيرنا الأول رشيد باشا ما رأيكم فيما سمعتموه الآن من الروس؟

تحدث الباشا في تودّة قائلاً: أرى يا مولانا أن نتشاور مع قناصل الدول الأوروبية الصديقة لنا حول تلك المطالب قبل الرد عليهم.

ثم نظر السلطان لوزير الخارجية قائلاً: وأنت يا باشا ما رأيك؟

أجاب الرجل قائلاً: لا رأي يعادل رأيكم الحكيم والسديد لكني أنصح بالموافقة على الطلبات خاصة وأنها تتعلق بخلافات مذهبية تخص الملة المسيحية ولا تتطرق بأى شكل من الأشكال لأماكننا المقدسة الإسلامية.

ثم نظر السلطان لإلهامي قائلاً: دامادا إلهامي باشا ما رأيك في الأمر؟

أجاب إلهامى بسرعة: رأيى يا مولانا أن ترفض عرضهم وتطرد بعثتهم من أرضكم وبذلك يكون أقل رد على صلفهم وغرورهم وتكبرهم فى حضرتكم الموقرة.

نظر لهم السلطان برههً مفكرًا ثم نهض من على أريكته قائلاً فى استعلاءً بالغ: فلتعلموا قنصلى فرنسا وانجلترا بأوامرنا العلية لهم ليتشرفوا بالوقوف أمام سدتنا السلطانية كى نحيط علمًا بموقف دولتيهما من مطالب الروس المقدمة لأعتابنا الملوكية.

دخل شوكت بك إلى صالون منزل نازلى هانم وما أن رآها جالسة حتى انحنى أمامها فى حركه تمثيلية قائلاً: كيف حال أميرتى ومولاتى باهرة الحسن والجمال؟

نازلى بجديده: لست بحالة جيدة بعد المشادة التى وقعت بينى وبين ابن أخى إسماعيل.

شوكت: أرجو ألا تكون تلك المشادة متعلقة بشخصى المتواضع؟

نازلى: لقد كانت كلها تدور حولك وحول علاقتنا أنا وأنت.

شوكت: أيعترض الباشا على تلك العلاقة؟

نازلى: نعم .

شوكت: وأنت ما رأيك فى كلامه؟

نازلى: لا أدرى يا شوكت لقد اندفعت أهاجمه وأتحدى كلامه ولكن بعدما انصرف وهدأت نفسى راجعت كلامه ووجدت أن به بعض الصواب حيث يجب ألا نندفع فى مشاعرنا ذلك الاندفاع الأخرق الذى لا يليق بعمرنا ولا بمنزلتنا.

شوكت بحدة: عن أى تَرَبُّثٍ تتحدثين إن أفضل المشاعر وأصدقها هى ما تنطلق على سجيته دون قيود أو تفكير ثم كيف تسمحن لإسماعيل باشا أن يقيد حريتك ويتدخل بأمورك وقبل أن تحدثيني عما يليق بعمرنا ومكانتنا تذكرى جيداً أننا لسنا صغاراً كي نتلقى النصيح والإرشاد من الآخرين فلعلنا منا شخصيته واستقلاله الذى يؤهله لاتخاذ طريقه منفرداً دون مرشدٍ أو معين.

نازلى ببعض اللين: لا أريدك أن تغضب من كلامى فكل ما أردته هو مصارحتك بحالى عندما سألتنى.

شوكت: إننى لا أغضب من كلامك يا نازلى ولكنى أغضب من أجلك فما كنت أحسبك بهذا الضعيف يؤثر فيك قدح الحاقدين فحدثنى نفسى أنك المرأة التى عشت أبحت عنها وستكون دافعى ومشجعتى على طريق الحرية الذى أرنو إليه.

نازلى: فلنترك هذا الحديث الذى لم نجن منه إلا الضيق والكدر وننعم بلحظات لقائنا القليلة.

ووضعت يدها على وجنته وهى تقول بدلال: سأمر بإحضار العصائر والطعام حتى تهدأ نفوسنا مما يعترىها.

شوكت: انتظري قليلاً فقد أعددت لك مفاجأة وكنت أمتي نفسي أن
تلقى قبولك ولكن وجدت أنك ت..

قاطعته بمرح وهي تقول: لا تتحدث في الأمر ثانية .. أخبرني فقط ما هي
المفاجأة؟ أرجوك يا شوكت.

نهض شوكت وهو يقول: انتظري هنا لحظاتٍ قليلة.

وخرج ثم عاد وبصحبته فتیان صغيرا السن حسنا الشكل يبدو على
محياهما آثار النبل والرقى فقال شوكت وهو يقدمهما: هذان هما البطلان
اللذان سيقومان بتنفيذ انتقامك يا هانم وسيقتلان الوالى المعتدى
بمصر.

نازلى فى سخريه: هذان .

شوكت متسائلاً: أو تنظرين لهما بعين الزراية؟ إن هذا ليثبت حسن
اختيارى لهما.

نازلى متسائلة: وكيف ذلك؟

شوكت: مادام قد خدعك مظهرهما البريء المضلل فهو سيخدع غيرك
وهذا هو المطلوب.

نازلى: أخشى أنك لا تقدر الأمور حق قدرها فكيف لهما الوصول
للباشا وهو المحاط برجاله إحاطة السوار بالمعصم؟

شوكت: بل أنتِ لازلتِ لا تقدرين هاذين الفتيان حق قدرهما وهو ما يجعلنى أقص عليك بعضاً من خبرهما لعل قلبك يدخله الاطمئنان ..
أسمعتِ من قبل عن الفرقة الينيجارية؟

ولما لم يسمع منها جواباً تابع: هى ما تعرف بالجيش الانكشارى وهى طائفة عسكرية من المشاة كانوا أقوى فرق الجيش العثمانى وأكثرها نفوذاً تقوم على تجنيد الغلمان وإحداث قطيعة بينهم وبين أصولهم وتربيتهم تربية إسلامية على أن يكون السلطان العثمانى والدهم الروحى وأن تكون الحرب صنعتهم الوحيدة فنشأوا على القوة والشراسة والصرامة .. وعلى مر العصور خاصة مع ضعف السلاطين العثمانيين وقلة الفتوحات قويت شوكتهم حتى أصبحوا مركز قوة تهدد أركان أى سلطان إذا ما فكروا بالخروج عليه مثل ما فعلوا من قتل للسلطان عثمان الثانى والسلطان إبراهيم الأول وحسن باشا الصدر الأعظم فى عهد السلطان مراد الرابع كل ذلك أدى بالسلطان محمود الثانى والد السلطان الحالى للعمل على القضاء عليهم نهائياً فى موقعة تسمى بالموقعة الخيرية تم خلالها ضرب تجمعاتهم بالمدافع وأبيدوا عن آخرهم .. أو هكذا ظنوا.

وصمت قليلاً ليرى أثر كلماته على نازلى ثم تابع: فقد أحس بعض رجال الفرقة الانكشارية بالغدر فتواروا قبل سويعاتٍ من المذبحةِ التى راح ضحيتها أكثر من ستة آلاف جندى دكت المدافع أجسادهم ومزقتهم إلى أشلاء مما اضطر هذا الرهط من الناجين إلى الاختفاء عن الأعين حتى انصهروا بين جموع الشعب وصاروا بمأمنٍ عن أعين المترصين .. ولم يُخمد مرور السنوات لهيب الثأر بصدور الرجال الذين جبلوا على القتال والحرب .. مما جعلهم يتواصلون من جديد ويبدأون تدريباتهم خفية على أبنائهم وأطفالهم وبعد مرور سنواتٍ أخرى تكونت من جديد نواة صغيره

تسمى الجيش الانكشارى الجديد لايشغل بالها غيرالانتقام من العثمانيين والقضاء عليهم وكان من الطبيعى أن تلتقى مصالحهم مع جماعتنا لاشترآكنا فى نفس المقصد والغاية.

ثم أشار بيده فى فخر: وهذان الفتیان من طليعة هذا الجيش الانكشارى الجديد جيش التحرير لتركيا من العثمانيين.

نازلى: ولكفى لازلت أجهل الطريقة التى ستمكهما من تنفيذ خطتك المرتقبة.

شوكت: أتركى هذا الأمرلى فقد أعددت كل شىء لضمان حصولنا على الانتقام المؤكد هذه المرة.

نازلى بعناد: يجب أن أعلم كل شىء.

شوكت: ما دُمتِ تُصِرِّين فسأخبرك بكل شىء بالتفصيل.

وأخذ يقص عليها تفاصيل خطته للقضاء على عباس باشا وكلما روى أكثر اتسعت عيننا نازلى أكثر فقد كانت خطة شيطانية بحق.

دخل إلهامى وزوجته فاطمة إلى حجرتهما الفخمة بقصرهما الكبير المتميز بموقعه على نهر البسفور وما أن اختلا الزوجان حتى قال إلهامى: اليوم عندما ذهبت لأبشر السلطان نبأ حملك فاضطررتى لحضور جلسه الديوان.

فاطمة: هذا ما كنت أخشى منه يا إلهامى أن تعتاد مجلس الديوان و
تراجع في وعدك الذى عاهدتني عليه.

إلهامى: لا تسيئى الظن بى يا زوجتى الحبيبة وهل عهدتني حائثاً
بوعودى حتى أحنث وعدى لكِ وأنتِ منى بمنزلة الروح للجسد .

فاطمة: أجادت أنت فى كلامك يا إلهامى .. ألا تندم على أننى قد جعلتك
تتخلى عن حلمك بالإمارة والحكم؟

إلهامى: يعلم الله أن كل يوم يمر علىّ وأنا مبتعدٌ عن صراعات الحكم
أتأكد من مدى صواب قرارى وأحمد لك إقناعى بالتخلى عن ذلك الدرب.

ثم أشار إلى بطنها مداعباً وهو يقول: إن كل ما يشغل تفكيرى الآن هو
ذلك المولود الذى أنتظره على أحر من الجمر وكلى شوق لوصوله سالمًا
والتمتع برؤيته.

فاطمة: إنك ستجعلنى أغار منه .. فمن الملاحظ أنه سيشاركنى فى
حبك وحنانك الذى كنت أستأثر به وحدى.

إلهامى: إننى أحبه من قبل أن أراه لأنه جزء منك وكيف لا أهتم به
وهو ثمرة حبنا الخالد وهمزة الوصل بين قلوبنا الولهانين بالعشق
والغرام.

فاطمة متسائلة: إنك حقًا لم تخبرنى من قبل هل تفضل أن يكون
المولود ذكرًا أم أنثى؟

إلهامى: أنثى تشبهك فى جمالك وحسن صفاتك.

فاطمة: عجباً لك إن معظم الرجال يحبون الذكور على الإناث.

إلهامى بجديّة: إن المولود هبة المولى .. فكل ما يمن به الله علينا خيرٌ
ونعمةٌ تستحق الشكر والثناء وواجبنا الآن أن ندعوه أن يرزقنا الذرية
الصالحة التي تكون قرة عينٍ لنا وتملاً حياتنا بهجة وسرور.
أَمَنْتَ فاطمة على دعائه وقد غشى قلبها المودة والحنان.

قام شريف بزيارت تفقدية لأبعادية الأمير عبدالحميم المتباعدة في
شمال مصر وجنوبها وفي إحدى زياراته بقرية إيتاي البارود حيث أخذ يمر
وبصحبته باشكاتب الدائرة متفقداً المكاتب الإدارية وسير العمل بها وأخذ
يطالع الدفاتر التي سجل بها حركة البيع والشراء ويسأل بعض الموظفين
عن طبيعة وظائفهم والأعمال التي يؤديونها وبعد المتابعة والتدقيق أنهى
أعماله وركب عربته حيث انطلق به الحوزى إلى الاستراحة التي ينوى أن
يبيت بها ليلته وبينما هو في طريقه إذ خرج عليه شاب من وسط الحقول
واخذ يصيح عليه: يا حضرة السكرتير .. يا جناب السكرتير.

أمر شريف الحوزى بالتوقف ونظر إلى الشاب الذي كان يرتدى زي
الموظفين في الأبعادية من سروالٍ وقميصٍ أبيض ويضع حول ساعديه
مِعَصَمٍ يقبه بقع الحبر السائل .. حيث عدل الفتى من وضع طربوشه
الأحمر على رأسه وهو يقول: يا حضرة السكرتير هناك أمر هام يجب أن
تعلمه قبل انصرافك.

نظر له شريف لحظة ثم قال: الست أحد موظفي الأبعادية؟

أجاب الشاب: نعم .. يا سيدي.

شريف: ولماذا لم تخبرنى بما تريد حين كنت أقوم بجولتى اليوم؟

الشاب: هناك كلام لا يجب أن يعلم به سواك يا حضرة البك.

أشار شريف للشاب قائلاً: اركب.

أسرع الشاب بركوب العربة حيث انطلقت بهم إلى الاستراحة وهناك جلس شريف أمام الشاب الذى قال له: يا حضرة البك إن هناك سرقات كبيرة تتم بِشَوْنِ الغلال وحظائر الماشية يقوم بها عصابة من قطاع الطرق وذلك بالتعاون مع باشكاتب الدائرة.

شريف: إن ذلك اتهام خطير أيها الشاب ويجب أن يكون لديك من الأدلة ما يثبت صحة كلامك.

الشاب: يا سيدى إن جميع أهل القرية هنا يعلمون بتلك الأخبار.

شريف: ولماذا لم يتدخل أحد منهم لمنع تلك السرقات؟

الشاب: يا حضرة البك هناك مثل دارج عندنا يقول المال السايب يعلم السرقة فمال الأبعادية يتصرف فيه الناظر والباشكاتب وفق هواهم فلماذا يتدخل الناس ويتحملوا مخاطر الوقوف أمامهم!

شريف: ولماذا تكلمت أنت الآن وأخبرتني؟

الشاب: لعلمى أن جنابك أطحت بناظر الأبعادية بالمحروسة بعدما اكتشفت سرقاته كما تسبقك سمعتك الحسنة منذ توليت أمر الأبعادية فالكل يقول أن يدك نظيفة ولا يعجبك الحال المعوج.

صمت شريف برهة ثم تذكر أمراً فسأله محدثه: ما اسمك يا أفندى؟
وما هي الوظيفة التي تشغلها بالدائرة؟

الشاب: اسمى محمد صديق يا سيدى.

شريف: وهل تعمل بوظيفتك منذ زمنٍ يا صديق؟

صديق: منذ ثلاثة أعوام تقريباً يا سيدى.

نهض شريف وأخذ يسير بأرجاء الحجرة مفكراً فقد كان يعلم صدق الشاب وقد عاين بنفسه ذلك حين اصطدم بناظر الأبعادية بالقاهرة ولكنه لم يكن يتوقع أن الفساد مستشرٌ بتلك الصورة في أملاك الأمير ولكن وظيفته تحتم عليه أن يواجه ذلك الفساد ويقضى عليه ثم التفت إلى الشاب قائلاً: إن لدى خطة لكشف اللثام عن المفسدين ولكنها تتطلب بعد المعاونة منك ومن بعض الشباب الشجعان مثلك يا صديق أفندى.

صديق: إننى رهن إشارتك يا بك وجميع شباب القرية يتمنون تقديم أى مساعدةٍ للقضاء على تلك العصابة من اللصوص.

شريف: عظيم .. إذن سأقوم بإيهاام الباشكاتب ورجاله بسفرى للقاهرة حتى يشعروا بالأمان ثم نباغتهم متلبسين ووقتها فقط نستطيع أن نقضى على شرورهم.

وقف عباس باشا على شاطئ ميناء الإسكندرية ووقف إلى جواره سعيد باشا وكثير من رجال الدولة فى مراسم توديع البعثة العلمية الأولى

منذ توليه والمنطلقة لطلب العلم من أوروبا والتي تضم 19 طالب في مختلف المجالات حيث أصطف الطلبة أمام الوالى الذى ألقى عليهم خطابًا قبل وداعهم قال فيه: نقف اليوم لوداعكم قبل سفركم مباشرة .. نحن كبار رجال مصر المحروسة من باشاوات وباكوات وأفندية ممثلين لجموع الشعب المصرى وطوائفه المختلفة .. قد تجشمنا مشقة مرافقتكم حتى ميناء المغادرة ليكون مشهدنا هنا هو آخر مشهد تقع أبصاركم عليه قبل مغادرتكم ليذكركم دائمًا بأن بلدكم تُعَوِّلُ الكثير عليكم وليكون ذلك دافع لكم للجد والاجتهاد لتحقيق المراد منكم .. ولتتذكروا دائمًا أنكم تمثلون بلدكم بالخارج وتنقلون صورتنا للدول التى ستقيمون بها فأنتم سفرائنا فكونوا نعم السفراء .. أنتم أولى البعثات العلمية المرسلة للخارج منذ توليتنا أمور البلاد لعلمنا بالمفاسد التى تكون بالمجتمعات الغربية وخشيتنا من أن تنقلوها لبلادنا بدلاً من أن تنقلوا لنا العلوم النافعة .. إلا أننا قد استبينًا بعد الروية وإمعان النظر وتحكيم ميزان المفاسد والمصالح أن ترك مواكبة العلوم والتخلف عن ركاب الحضارة أكثر ضررًا على بلادنا من أى خطر يظن وقوعه .. مما جعلنا نعقد العزم على إرسالكم كبداية يتبعها عقب بإذن الله .. فكونوا عند حسن ظننا فيكم واعملوا على أن نرى منكم ما يثلج صدورنا ويؤكد لنا صواب مسلكنا الجديد .. نستودعكم الله .. تصحبكم السلامة.

وتقدم الطلاب من الوالى وقبلوا يده وسلموا على ولى عهده ثم انطلقوا إلى السفينة التى ستقلهم فى رحلتهم العلمية .. وما أن انصرفوا حتى انفرد عباس بولى عهده سعيد قائلًا: لا أريد أن يكون فى نفسك أى ضيق أو غضب منى يا سعيد باشا خاصة بعد الأحداث المؤسفة التى وقعت بيننا فى الآونة الأخيرة.

سعيد: لم تكن وحدك المسىء بتلك الأحداث يا أفندينا ولكنى أيضاً تجاوزت حدودى وتلفظت بما لا يليق فى حضرتك فأرجو منك أن تغفر لى خطأى فى حقك.

عباس: غفر الله لنا ولك .. وهناك أيضاً موضوع آخر أرجو منك أن تساعدنى فى تنفيذه.

سعيد: أمرك مطاعٌ يا جناب الوالى.

عباس: أريد حصر لجميع الأسر المضارة بالإسكندرية أثناء قمع التمرد وكذلك عدد القتلى واسمائهم حتى يتثنى لنا دفع الدية لأسرهم من خزانتنا الخاصة.

سعيد: لقد تكفلت بعمل اللازم ودفعت التعويضات المناسبة للمضارين فلا وتؤرقوا فكركم بهذا الشأن يا أفندينا.

عباس: إننى المسؤؤل عن الضرر الواقع لتلك الأسر فكيف أرضى أن تتحمل عنى تكلفة القرارات التى اتخذناها من قبل.

سعيد: الستُ ولى عهدكم يا جناب الباشا؟ فكيف لا أتحمل معكم أعباء وظيفتى ومسؤوليتى تجاه رعايانا بالبلاد.

عباس: نعم ولى العهد أنت يا سعيد .. واجعل هذا منهجك المتبع دائماً مع شعبك فعاملهم بالرحمة والإحسان ولا تشق عليهم فهم أمانةٌ يحاسبك عليها المولى عزوجل.

أخذ سعيد ينظر إلى عباس بتعجب شديد ولاح ذلك على وجهه مما جعل عباس يقول له: لا تعجب من أمرى يا باشا .. إن كل منا يحمل قدره

على عاتقه ولكنه يأمل ويتمنى ويصارع ويحارب من أجل تحقيق تلك
الأمال والأمنيات ولكنه لا يتحرك إلا في فلك قدره .. وللقدر تدابير تؤثر على
شخصاً وتترك بصماتها المميّزة على نفوسنا كما تترك النار أثارها على
المعدن النفيس فتزلل للصانع الماهر تطويعها وتشكيلها..تغير من نظرتنا
ومعتقداتنا للأحداث من حولنا..تجعلنا نقول كلام لم نكن ابدأ نعتقد أن
نقوله.. تحرضنا لإرتكاب افعال لم نكن نتوقع ابدأ أن نرتكبها..تحضنا على
أن ننتهج نهجاً ما كان يجول باذهاننا أن ننتهجه..تجعلنا نسلك درباً ما كنا
نظن ان نسلكه..قد يكون تأثيرها علينا للأفضل وقد يكون للأسوأ ولكنها
دائماً ما تخرجنا من طور إلى طور خلال رحله حياتنا..هذا خلاصه ما
حدث معي .

ولما وجد نظرات عدم الفهم تتجلى بعيني سعيد قال: لا ترهق نفسك
بالتفكير في حالي ولكن كن لي خير معينٍ بمذهبي الجديد.

وجد سعيد نفسه يردد مشدوهاً: أعاهدك على ذلك يا مولاي الوالي ..
وأقسم على ذلك أمام الله.

ربت عباس على كتف سعيد في رضا وهو يقول: بارك الله فيك.

جلس أحمد المنكلي باشا في سراى صديقه إبراهيم النبراوى باشا مع
جمع من الأصدقاء والخلان حيث كانوا يستمعون إلى الطرب الشجي
لمطربٍ وقف أمامهم يشدو بإحدى القصائد باللغة الفصحى وقد أخذ
بعض الحضور يهزون رؤوسهم في انسجامٍ بالأنغام الشرقية العزبة التي
تدفقت من تحت شرقي يعزف خلف المطرب .. وما أن انتهت وصلة الغناء

حتى خرج أحمد وصديقه إبراهيم إلى شرفة الأخير ووقفوا ينعمان بالمنظر
الغلاب المطل على حديقة السراى الغنّاء حيث قال أحمد بمرح: دائمًا ما
تمتعنا يا إبراهيم بالسهرات اللطيفة والغناء الأصيل فأنت حقًا من الذين
يملكون أذنًا موسيقية يجمع الناس على رقبها.

إبراهيم: أنتم دائمًا على الرحب والسعة.

أحمد: إن بيتك هو الملاذ الذى يخرجنا من مشقة العمل وتعقيداته.

إبراهيم ضاحكًا: عن اى مشقه تتحدث يا رجل .. لقد تغير الوالى كثيرًا
فلم يعد يتعامل معكم بكم ولا صلف وانتهت تجاوزاته التى كانت تضايقك
.. فكف عن الشكوى وإظهار التبرم.

أحمد مازحًا: إن عباس سيظل مضرب الأمثال فى غرابة الأطوار
وشذوذ الفكر سواء أكان متكبرًا صلفًا أو أظهر التواضع واللين.

إبراهيم فى لوم: إنك تتجنى على الوالى كثيرًا يا أحمد.

أحمد: ألا ترى يا رجل انقطاعه عن الناس وميله للخلوة والعزلة .. ألا
ترى أنه يقضى معظم أوقاته فى قصر الدار البيضاء بطريق القاهرة -
السويس المقفرويمكث باقى أوقاته فى قصره النائى بصحراء الحصوة التى
سماها بالعباسية .. إن سلوكه هذا ينم عن الخبال والجنون لقد كان
خورشيد باشا رحمه الله على صواب حين أعلن تمرده فالوالى لم يعد حقًا
يصلح لحكم البلاد.

إبراهيم: لا زلت أصر أنك تتجنى على الرجل وتحكم عليه حكم
المتغافل لحقيقة الأمر ولا أعلم أذلك عن عمد منك أو دون عمد.

أحمد ساخراً: وما حقيقة الأمر يا علامة زمانك؟

تجاوز إبراهيم عن سخريه صديقه وهو يقول في جديده: حقيقة الأمر أن وقع وفاة برلانتة قادين على الوالى كان شديد الأثر مما أصابه بجرح نفسي غائر أدمى قلبه وهدأ كيانه .. فأنت لم تعين كما عاينت بنفسى كيف كان وقع المصاب على الرجل وكم العبرات التى سكبها فوق جثمانها وهذا ما لا يستطيع أن يشعر به إلا كل من فقد عزيزاً أو غالٍ لديه .. ثم علمت بعد ذلك أن الوالى كان يعد قصر العباسية ليسكن فيه مع فقيدته وقد كان من قبل يذهب معها إلى قصر الدار البيضاء فعظم عليه فراق محبوبته وأخذ يطوف بمراتع وصالهما وأماكن سعادتهما لعله يروم بعض السلوى والعض عما فقد بغيابها وتلك مشاعر لا يخبرها إلا كل ذى لبٍ أو إحساس وأنت يا صديقى تُعدم الإثنين معاً.

أحمد ساخراً: أتريد أن تنسب التغير الكبير الذى طرأ على الوالى لمشاعره المرفهة وأحاسيسه الجياشة؟

إبراهيم: إن كل ما أريده يا صديقى أن تتق الله ولا تظلم الرجل .. وهناك مقربون ينسبون ذلك التغير للتواصل الأخير بين الوالى و الشيخ الأزهرى عبد الرحمن الحجازى.

أحمد: إن هذا الشيخ منذ ظهر على الساحة والوالى تحول لدرويش يطوف المساجد والزوايا ينفق أمواله على الأولياء والمريدين.

إبراهيم وقد لاح على وجهه بعض التبرم: إن الجدل معك لا يجدى ولا يفيد و ما بذهنك من أفكار عن الوالى غير قابل للمناقشة أو التعديل فدعنا من هذا الحديث ولنعد للاستمتاع بالطرب الأصيل كى لا يضيع وقتنا سدى بمناقشةٍ عديمة الجدوى.

وعاد أدراجه وخلفه أحمد يسير في تبرم واضح.

جلس السلطان على أريكته بديوانه ووقف رجال دولته مصطفين وقوفاً يمناً ويسرة في حين دخل المبعوث الروسى منشكوف ومعه الوفد المصاحب له فحيوا السلطان بجفاء واضح ثم قال منشكوف من خلال المترجم الواقف لنقل الحديث: لقد انتهت المهلة المتفق عليها نحن جننا بعد انقضاء اليومين لنعلم ردكم.

صمت السلطان برهة وهو يتذكر حديثه مع الدبلوماسى الإنجليزى السير ستراتفورد الذى نصحه فيه بتفويت الفرصة على الروس لبدء حرب مستعرة بحجة خلاف مذهبى خاص بالملة المسيحية ثم قال السلطان بحسم: إننا نقبل بكل طلباتكم المقدمة إلى سدتنا السلطانية.

لاح شبح ابتسامه متشفية على وجه الروسى لوهله ثم عاد إلى جموده حيث قال: ولكن هناك طلب أخير نريد موافقتكم عليه.

تساءل السلطان بضيق واضح: وما هو هذا الطلب؟

منشكوف: إعلان استقلال الجبل الأسود.

عندما تمت ترجمة كلام الروسى انتفض السلطان مغضباً وقال بحدة: إنكم تجاوزتم كل حد إننا نرفض هذا المطلب شكلاً وموضوعاً ونعترض على جرأتكم فى تقديمه.

لم يختلج وجه الروسى أمام غضبة السلطان وتحدث ببرود: إذا كان قراركم الأخير فإننا نطالب باعترافكم لروسيا بحق حماية العشرة ملايين نسمة الأرثوذكس المتواجدين بالدولة العثمانية حماية مطلقة وغير مقيدة.

أحمرَّ وجهه السلطان من الغضب وقد انطلقت عبارات الاستهجان والاعتراض بين رجال ديوانه حتى قال السلطان وقد أحس بأن كرامته وكرامة دولته على المحك: اسمع يا هذا .. لقد تحملنا صلفكم وغروركم لتجنب نيتكم المبيتة بالتحرش بدولتنا العلية ولكننا لا نملك إزاء هذا التدخل السافر بشؤوننا إلا أن نبلغكم برفض كل مقترحاتكم المقدمة وعدم رغبتنا فى استكمال كل أشكال التفاوض معكم كما نبلغكم بعدم رغبتنا بتواجدكم على أرضنا بعد اليوم وأمهلناك للغد حتى تعدوا عدتكم لمغادرة أراضينا وبعد ذلك سنتعامل معكم بطريقةٍ لن ترضيكم أبداً.

ونض السلطان غاضباً وترك الديوان فى سرعةٍ وكان هذا إيذاناً بانتهاء اللقاء .. وبدء الحرب .. حرب القرم.

توارى شريف وصديق ومعهم بضعة شباب من أبناء القرية خلف إحدى تباب القش والتبن العالية وأخذ شريف يراقب الحركة الدؤوب فى شونة الغلال حيث وقفت عدة عربات تجرها الحمير يتم تحميلها بأجولة الغلال بواسطة مجموعة من الرجال الملمثين وقد وقف على رأسهم الباشكاتاب الذى أخذ يلقى بتعليماته للرجال وينظم عملهم .. وبعد عدة دقائق أعطى شريف إشارة البدء بالهجوم فانطلق الشباب بعصمهم ونبابيتهم يهجمون على الملمثين الذين فوجؤوا بالهجوم إلا أن ثلاثة منهم كانوا يحملون البنادق فعمد أحدهم إلى سلاحه وأطلقه فأصاب صديق

مما جعل شريف يطلق نيران مسدسه على المعتدى فيريده قتيلاً فارتج على الرجال فأحاط بهم الشباب إحاطة السوار بالمعصم فتركوا أسلحتهم وأعلنوا الاستسلام فأسرع الشباب بربطهم بالحبال في حين حاول الباشكاتب الفرار فلمحه شريف فصاح عليه بصرامة: إلزم مكانك وإلا أطلقت الرصاص على رأسك الخبيث يا هذا.

وأوكل مهمة تقييده لأحد الشباب ثم عاد مسرعاً ليطمئن على صديق الذي رقد على الأرض مضرجاً بدمائه فجثى جواره ليفحصه ثم زفر باطمئنان وهو يقول: الحمد لله العيار أصاب الذراع وخرج من الجهة الأخرى ولكن يجب علاج جرحه بسرعة فقد نزف كثيراً من الدماء.

وأسرع يشق قميصه ويستخدمه كضمادة يوقف بها الدماء المتدفقة .. ثم أشار لأحد الشباب فأسرع يحضر له حصاناً وساعده بوضع صديق على صهوته ثم امتطى شريف الحصان وقال محدثاً الشاب: تحفظوا على أولئك الأثمين حتى أعود إليكم بعد أن أطمئن على حالة صديق أفندي.

وأسرع ينطلق بالحصان وقد كان يذكر في جولاته الصباحية مكان الوحدة الطبية الصغيرة بالقرية فذهب إليه حيث وجد كثير من أهل القرية قد خرجوا من ديارهم على صوت دوى الرصاص الذي أقلق مضجعهم وروع أمتهم وهم الذين اعتادوا حياة الهدوء والسلام ولكن ذلك لم يمنعهم من معاونته شريف على حمل صديق وإدخاله للوحدة حيث عاين الطبيب الجرح بأسرعه ثم أمر مساعديه بنقله إلى داخل حجرة أغلق بابها خلفه ولبث ساعة من الزمان حتى خرج لاهتأً يبدو على وجهه الإجهاد فلم يممه شريف وسأله في لهفة عن حال صديق فأجابه في ثقته: لقد استقرت حالته وسيعيش بفضل الله.

وتنفس شريف الصعداء من جديد.

انعقد ديوان عباس باشا في قصره بينها حيث جلس الباشا على أريكته وحوله رجاله وقد ابتدر الوالى بسؤاله لمصطفى باشا الخازندار: هل وفرتم الموارد اللازمة لتجديد المساجد التى قد حددناها سالفًا يا باشا؟

أجابه مصطفى قائلاً: لقد قمنا بعمل اللازم يا أفندينا ودبرنا الأموال للقيام بالمطلوب على الشكل المراد من جنابكم.

تململ على مبارك في مقعده مما جعل الوالى يقول له: ما خطبك يا على ما بك أرى أمارات عدم الارتياح تتجلى على سحنتك؟

على: العفو يا جناب الوالى لكن ..

صمت على قليلاً فعقد عباس حاجبيه وهو يقول بحدة: تكلم يا بك دون موارد.

على: حاشا لى أن أتدخل بمصروفاتكم ولكن هناك موظفين بديوان المدارس لم يتقاضوا رواتبهم قرابة الثلاثة أشهر وقد ضاق بهم الحال والأمر من قبل ومن بعد إليك تقضى فيه بما تشاء.

نهض عباس مغضبًا واتجه إلى مصطفى باشا قائلاً: هل هذا الكلام صحيح يا مصطفى باشا؟

ابتلع مصطفى لعبابه في صعوبه وهو يقول: نعم يا أفندينا.

صاح عباس بغضب: وكيف تمنع أرزاق الناس التي ينفقون بها على عيالهم؟ أهذا لأنك خازندارى؟ أتحسب مكانتك عندي تمنعني من محاسبتك على أخطائك؟

مصطفى وهو يخفض رأسه خجلاً من الباشا: يا مولاي لقد تم إنفاق كثير من الأموال لقمع تمرد الإسكندرية ثم بعد ذلك تم إنفاق آخر الأموال لإعداد موكب سفركم للأستانة مع الهدايا اللائقة التي ستصحبونها لفخامة السلطان وإني يا سيدي عندما منعت راتب موظفي الدولة كنت البادئ بنفسى فلم أتقاضى راتبي منذ أربعة أشهر.

ثم جثى على ركبتيه وأخرج مفاتيح الخزانة وهو يقول بصوت مُلئٍ بالعبرات: وإن كنت ترى يا مولاي أنى قصرت بوظيفتي فهاكم المفاتيح أعيدها لكم أما منزلتي لديكم فإني لا أعلم لى أبأ ولا مؤلاً غيركم وكنت أفخر دوماً بمناداتكم لى بلقب بنى فإن حل بى سخطك فلا أبالى بحالى بعدكم فعاقبني بما تراه لائقاً بجرمى.

صمت عباس لحظات وقد كان عيّن مصطفى بتلك الوظيفة لما لمس فيه من الأمانة والوفاء فأنهضه من مقامه ورد عليه مفاتيحه ثم قال له بلطف: أتحرم نفسك وموظفي الدولة فى حين أن خزائنى عامرة ملاءى بالجواهر والذهب والفضة.

مصطفى: كيف لى أن أعتدى على ما ليس لى بحق يا مولاي .. إن وظيفتى القيام على خزائن الدولة أما خاصة مالكم فلا سلطان لى عليه.

هز عباس رأسه متفهماً وهو يقول: على كُلى فلتذهب الآن وأخرج كل ما فى خزائنى من كنوز وجواهر وأسرع إلى الدريخانه ومُرهم أن يسبكوها أموالاً تعطىها للعاملين أجر ما فاتهم وزيدهم شهراً آخر جزاء ما تحملوا

من شظف العيش بسببنا .. أما عنك يا مصطفى فقد كنا أنعمنا عليك بلقب الأميرالاي وخصصنا لك ألف دينارٍ مصري في السنه أما منذ اليوم فلك موكبٌ كموكي وكلمتك ككلمتي نافذة في كافة دواوين الدولة.

انكب مصطفى مقبلاً يد الوالي وهو يقول: لازلتُم تغمرونني بنعمكم التي لا تعد ولا تحصى يا مولاي.

ثم قال وهو ينظر إلى موضع قدميه: ولكن أرجو منكم إعفائي من الموكب وكفاني ركوب جنديين أستخدمهما في خدمة أفندينا .

ربت الوالي على كتفه في رضا وهو يقول: قبلنا طلبك يا باشا.

أثنى الحضور على كرم الوالي وانبرى أحد الحضور في وصلةٍ من النفاق قطعها عليه دخول خليل أغا قائلاً: هناك مبعوث خاص من قبيل مولانا السلطان يطلب الإذن بالمثول بين يديكم يا أفندينا.

أشار له الوالي أن يدخله وبعد لحظات كان المبعوث يقدم رسالة للباشا قائلاً: هناك مكتوبٌ لكم يا باشا من فخامة السلطان.

تناول عباس الرسالة وفض خاتمها وقراها بانهماك وما أن انتهى حتى نظر للحضور بعينين ملؤهما القلق والانفعال وهو يقول: لقد أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وغزت أرض البلقان واحتلت رومانيا .. وقد أمرنا السلطان بسرعة إرسال المدد اللازم من جنودٍ وعدةٍ وعتادٍ لمساندة القوات العثمانية المحاربة هناك.

ثم وقف في حماسٍ ونادى بصوتٍ جهورى: أحضروا قادة الجيش و
ليعقد مجلس الحرب .. حى على الجهاد.

جلس شريف إلى جوار صديق أفندى وهو يزوره بمنزله للإطمئنان
عليه حيث كان صديق أفندى راقداً على فراشه وقد لُفَّت ذراعاه
بالضمادات والأربطة التى تدارى جرحه البالغ فى حين ربت شريف على
ذراعه السليمة وهو يقول: فلنحمد الله إن حالتك اليوم أفضل كثيراً.

صديق: إن كل هذا يعود لشهامتك يا سيدى فلقد أنقذتني من موتٍ
مؤكدٍ حين أسرعت بى للحكيم وظللت بجوارى حتى اطمأنتت علىّ وهذه
مروءة لن أنساها لك ما حييت.

شريف: إن هذا أقل ما أقدمه لبطلٍ مثلك ولا تنسَ أنى كنت وراء ما
أصابك فلولا مشاركتك فى الهجوم على الباشكاتب اللص وعصابته الأثمة
ما كان سيصيبك أذىً ولا مكروه.

ثم تابع: كل ما أريده منك الآن يا صديق أن تقوم من رقادك هذا
لتبأشر أعباء الوظيفة الجديدة التى رشحتك لها.

تساءل صديق: عن أى وظيفة تتحدث يا حضرة البك؟

شريف مبتسماً: أما علمت أن هناك وظيفة شاغرة بعد القبض على
الباشكاتب اللص.

استوضح صديق أكثر وهو لا يكاد يصدق نفسه: أتريد أن تخبرنى يا
سيدى أن الوظيفة التى تحدثنى عنها هى و ..

قاطعه شريف حتى ينهى حيرته: نعم يا صديق ففور تعافيك من إصابتك ستشغل وظيفه باشكاتب الدائرة كما سيتم تعيين شباب القرية الشرفاء في مختلف الوظائف بأعبادية سمو الأمير عبدالحليم .

صديق: إن هذا لأسعد خبر سمعته منذ زمن طويل يا بك .. وإن لسانى يعجز عن شكر معروفك هذا.

شريف: لكى تشكر لى صنيعى استمر فى أداء عملك بنفس الإخلاص والامانه التى عهدتها فيك.

ثم تابع قائلاً: إن وجود أشخاص مثلك من حولى سيعيننى بدورى على الدفاء بالأمانة المعلقة برقبتي.

انعقد مجلس الحرب بحضور قادة الجيش المصرى واتخذ الوالى مجلس الصدارة حيث ابتداءً كلامه قائلاً: لقد علمتم قيام الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا وقد أمر فخامة السلطان بسرعة إعانة قواته .. وعلمتم بعزمنا الجاد لخوض غمار تلك المعركة بكل قدرتنا وقوتنا لنصرة دولة الخلافة .. فلنبدأ بالاستماع إلى مقترحاتكم المفيدة فى هذا الأمر.

كان أول المتكلمين سليمان باشا فهو أكبر المتواجدين سنًا وأكثرهم دراية بالجيش فقال بصوتٍ جهورى قوى النبرات: أرى يا جناب الباشا أنه قبل البدء فى أى استعدادات أن نبدأ بإعادة الجند المصريين لصفوف الجيش فهم عمود الجيش وعماده والمدافعين عن شرفه فى كل المعارك التى خاضوها من قبل.

تدخل أحمد المنكلى باشا قائلاً: ولكن بذلك سيتعدى تعداد الجيش حدوده المتفق عليها وفق فرمان سنه 1841 وهو 18000 مقاتل.

لاح شيخ ابتسامه ساخرة على وجه عباس باشا وهو يقول: ومنذ متى كنا نلتزم ببند تلك الفرمانات يا باشا؟

ثم نظر صوب سليمان باشا وقال: أتلى على ناظر الجهادية ما كان تعداد جندنا في آخر عهد عمنا إبراهيم باشا؟

سليمان باشا في سرعة: كانت قوه الجيش 94000 جندى.

عباس وهو ينظر شذراً لأحمد ويقول: أريد أن أسمع مقترحات مفيدة بنائة بخصوص الاستعداد للمعركة .. فليس الوقت وقت التحزلق والاستعراض لا يوجد لدينا سقف محدد لتعداد الجيش وليذكر لنا التاريخ أن تعداد الجيش في عهدنا بلغ ما لم ولن يبلغه منذ صدور تلك الفرمانات .. لتعيدوا كل الجند المسرحين إلى وحداتهم في أسرع وقتٍ .

سليم فتحى باشا: الرأى يا باشا أن نسرع بإعادة الحياة المتوقفة بالمصانع الحربية لتدعمنا بإنتاجها من سلاحٍ وبارودٍ وخلافه.

هز عباس رأسه موافقاً وهو يقول: وأعيدوا إليها عمالها المبعدين .. فهم أهل الخبرة اللازمة والأيدى الماهرة التى ستعيد لتلك المصانع مجدها السابق وعهدها الذهبى.

أخذ الحضور بعد ذلك يدلون بدلوهم متشجعين بصدر الوالى المتسع لكل الأفكار البنائه والتي كان يقف ضدها في سابق عهده .

وفي نهاية الجلسة قال عباس باشا: لقد انتهينا بحمد الله اليوم من إعداد خطة العمل لبلوغ غايتنا ولم يبق لنا إلا الاتفاق على اسم القائد المقترح ليكون على رأس تلك القوات المجاهدة.

تحدث سليم باشا قائلاً بحماس: فلنأذن لي يا باشا أن تتيح لي شرف قيادة تلك الحملة الزاهية للمحاربة وأن أخوض غمارة المعارك وأرض الجهاد والشرف من جديد.

نظر له عباس باشا بإعجاب شديد وهو يقول: إن وجود قائد مثلك على رأس الجيش لهو فآل حسن يبشر بالخير وأعانك الله على أداء مهمتك ومدك بالنصر من لدنه.

ثم تابع قائلاً وهو يقف إيداناً بإنهاء اللقاء: الآن نكون قد اتفقنا على كل النقاط .. فليقم كل منكم بعمله على الوجه الأمثل .. وفقكم الله في مسعاكم وسدد خطاكم.

في سوق العبيد حيث الإنسان سلعة تباع وتشتري في أحقر وأحط تجارة عرفتها الإنسانية ووسط دروب السوق الضيقة سار خليل أغا وبصحبه رجلٌ فارح الطول قوى البنية حاد النظرات يرتدى زى الخدم المتعارف عليه بقصر الوالى ويرتدى فوقه رداء يغطيه من رأسه حتى قدميه ويخفى من وجهه أكثر مما يبديه .. وسار الإثنين وسط سوق الجوارى والعبيد حيث أخذوا يتفقدان الجديد الصالح للشراء لدى النخاسين الذين أخذوا يزينون في بضائعهم ويثنون على جودتها ويفالون في أثمانها وعند تاجرٍ معلومٍ لهما وقف خليل أغا الذى كان يحاول أن يغلف كلامه بالغرور والتعالى المبالغين إلا أن تصرفاته كانت تقابل

بالسخرية والاستخفاف من الآخرين وذلك لصغر سنه وحجمه .. فوقف أمام التاجر وهو يقول صائحًا: السلام عليكم يا أفندى .

التاجر: وعليك السلام يا خليل أغا.

خليل: هل لديك جديد في معروضاتك هذا اليوم؟

التاجر: طبعًا يا بك إنكم لمن المحظوظين فلقد وصلنا بالأمس مركب للعبيد تحصلنا منها على الأفضل والأجود.

خليل: إننا لا نأخذ إلا الأجود يا رجل فمى ستذهب إلى قصور مولانا الوالى رأسًا .. لذا فعليك بالانتقاء وعدم الغش وإلا ..

وأشار للتاجر بإصبعه الصغير مهددًا فقال التاجر: والله يا أغا إننا لا نتعامل معكم إلا بكل أمانه فنحن نعلم جيدًا منصّبكم ال ..

قاطععه خليل في نفاذ صبر قائلاً: هيا هيا أرنا ما لديك بسرعة هل ستمضى اليوم بأكمله أمامك؟

أسرع التاجر يستعرض عبيده قائلاً: هذه جارية ممشوقة القوام بديعة المحيّا على دراية بالخدمة في قصور الأمراء والأكابر.

انحنى الرجل المصاحب لخليل أغا فأسر له ببعض الكلمات تصنع خليل بعدها التفكير لبرهة ثم قال للتاجر: لا حاجه لنا بجاريتك إننا اليوم نبغى الذكور للخدمة والعمل في القصور.

أسرع التاجر يقول: إنكم سعداء الحظ يا بك فالיום لدينا فتيان حسنا المظهر طيبا المنبت ينم وجهيهما على أصولهما الراقية.

وأشار للفتيان فتقدما المشهد فطالعهما خليل بفضولٍ مدققًا النظر
لهما وقد شعر ببعض الانتباض لا يعرف سببًا له عند رؤيتهما وهَمَّ برفض
البيعه لولا أن أسرَّ له رفيقه ثانية ببعض الكلمات فصمت قليلًا وهو ينظر
له برهة ثم قال للتاجر: سنأخذهما منك على ألا تعالَى لنا في ثمنهما .. فإننا
لا نخدع بالبيع والشراء.

ولو التفت خليل أغا إلى رفيقه ورأى ابتسامة الارتياح المطلة من
عينيه لفهم الكثير ولعلم مقدار الخطأ الفادح الذي ارتكبه لتوه فقد كان
هذان الفتیان هما المختاران لتنفيذ مخطط الهانم ورفيقها بإسطنبول
مخطط اغتيال الوالی .. عباس باشا.

وقف عباس باشا إلى جوار سعيد باشا بميناء الإسكندرية لتوديع
القوات الذاهمة للحرب من جنود برية وبحرية اصطفوا جميعًا أمام
الوالی وولى عهدہ وحاشيتهم حيث أثنى عباس على ولى عهدہ قائلاً: أرى
أنك اتخذت كافة التدابير اللازمة لتجهيز العمارة البحرية التي ستخوض
المحاربة على الوجه الأكمل يا سعيد باشا فأنت حقًا أمير البحار والقائد
الأدرى بالأسطول وشؤونه.

سعيد : إننا نعمل وفق أوامركم يا مولای فلقد أعددنا اثنا عشر
سفينة كبيرة هي فخرٌ لأسطولنا العظيم تتسع لحمل ال 20000 جندي
الذين تم إعدادهم للمحاربة كمرحلة أولى .. وعينًا قائدًا فدًا على رأس تلك
العمارة هو الأميرال حسن باشا الإسكندراني ناظر البحرية يقود غمار تلك
المحاربة على مركبٍ قوية منيعة تدعى مفتاح الحياة.

عباس متفانلاً: ستكون مفتاحًا للنصر بإذن الله.

وجاء من خلفهما سليمان باشا فحياهما باحترامٍ ثم قال محدثاً
الوالى: القوات تصطف في انتظار كلمتك يا باشا .. كي يبدأوا بعدها في
ركوب السفن والإبحار.

توجه الوالى إلى مواجهة القوات المنتشرة أمامه على طول مساحة
رصيف الميناء ونظر لهم برهة ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ
اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" .. سورة العنكبوت: 69

كما قال سبحانه "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" .. سورة البقرة: 190

لقد علمت يا ربنا أننا ما خرجنا اليوم معتدين ولا طامعين .. إنما
خرجنا للزود عن دينك ودولتك الإسلامية ناصرين للحق خاذلين للباطل
فانصرتنا يا رب العالمين.

ضجت القوات بصوتٍ قوى زلزل الأرض من تحت أقدام الحضور:
أمين .

الباشا: اجعل كلمة الذين آمنوا العليا وكلمة الذين كفروا السفلى

القوات: آمين.

عباس: دتمم خير قوات الأرض من جندي لا ذلَّ ناصركم ولا خاب
راجيكم .. دتمم خير قوات الأرض من جند غيظاً للمنافقين وقهراً لأعداء
الدين وكمداً للحاقدين المغرضين .. لطالما رفعتم هاماتنا على رؤوس
الأشهاد وأذهلتكم بقدرتكم الكبيرة وهمتكم العالية عيون العالم وبهرتم

أنفاسه .. واليوم نعلق عليكم آمالاً عريضة في أن تتموا سيرتكم العطرة ..
وتكملوا دربكم المنير .. خاصة وأنتم اليوم تدافعون عن قضية الإيمان
والهداية ضد الكفر والضلال .. تدافعون عن شرف أمتكم ضد المعتدى
الغاشم .. تمثلون دولتكم العادلة ضد دولة الظلم والطغيان .. ولا تحسبوا
أنكم عن أعيننا غائبين وعن حمايتنا ورعايتنا مبتعدين .. بل ستظلون
دوماً أمام ناظرينا نمدكم بمددنا ونكلى برعايتنا أهليكم وذويكم ببلادنا ..
فلتطمئن قلوبكم فنحن أباءً لعيالكم حتى تعودون منصورين من سفركم.

لقد قال الله تبارك وتعالى "قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ
يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ" سورة آل عمران: 13 .. إنكم اليوم
الفئة المقاتلة في سبيل الله والفئة التي ضدكم هي الفئة الكافرة "قَاتِلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ"
سورة التوبة: 14 وسيؤيدكم الله بنصره ومدده فاستبشروا خيراً بالنصر
المبين.

صاح الجنود في حماسة متدفقة: الله اكبر .. الله أكبر .

عباس مبتسماً وهو يشير للواقفين: أستودعكم الله ونراكم بإذنه بعد
حين مرفوعي الرأس منصورين والسلام عليكم ورحمة الله.

اجتمع الأميرين أحمد رفعت وعبدالحليم مع صديقيهما شريف داخل
مكتبه بسكيتارية أبعادية عبدالحليم حيث استقبلهما شريف في ترحابٍ
كبير وقدّم لهما القهوة والدخان وبعد عبارات السلام والتحية اعتدل
أحمد رفعت في مقعده قائلاً: لقد مر قرابة العام عليك يا شريف منذ

توليت إدارة أملاك عبدالحليم حققت خلاله إنجازات كبيرة وتحسنت الأمور على يديك بشكل ملحوظ يشيد به كل مراقب.

شريف: إننى لم أفعل شيئاً أستحق عليه كل هذا الثناء فأنا أؤدى وظيفتى بخلاف الصداقة التى تجمع بيننا والأمانة التى وضعها عبدالحليم بعنقى وجعلتنى أدافع عن حقوقه كأنها حقوقى.

عبدالحليم: ولقد أديت أمانتك على خير وجه وأثبت أنك نعم الصديق فوقفت بجانبى فى أزمى وقفة الأخ مع أخيه ولكن لا تقلل من مجهودك فلقد زادت إيرادات الأعبادية على يدك ثلاثة أضعاف وخلصتنى من الموظفين المحتالين الذين كانوا يقاتون من جيبى ويستأثرون بخيرات مزارعى وجازفت بحياتك فى مواجهة مباشرة مع قطاع الطرق .. كل هذا وتقول أنك لم تفعل شيئاً.

أحمد: هذا بخلاف النظام الصارم الذى اتبعه لسير العمل بجميع أرجاء الأملاك على اتساعها مما جعل الأعبادية مثلاً يحتذى به فى مثيلاتها من الإقطاعات وهو ما جعلنا نجتمع معك اليوم.

أطل التساؤل من عيني شريف فتابع أحمد قائلاً وهو يخرج بعض الأوراق من جيب سترته: إن لدى عرض مقدم لك .. تفويض منى ومن أخى إسماعيل بإدارة أملاكنا وفق النظام المتبع بأملاك عبدالحليم .. طبعاً وفق راتب مماثل لما تتحصل عليه هنا.

عبدالحليم: إن الراتب الذى يتحصل عليه شريف لم يعد يتناسب مع مجهوده المبذول والعائد الذى جنيته أنا ولذا فقد أصدرت تعليماتى بمضاعفة راتبه منذ هذا الشهر.

أحمد: لن نختلف الراتب الذى تحدّدانه نوافق عليه ولك يا شريف حرية التصرف فى تعيين أو الاستغناء عن أيّ من العاملين واتخاذ كافة التدابير التى تراها مناسبة لتحقيق النظام والعائد المنشود.

شريف: إنكما تتحدثا كأننى قد وافقت على الوظيفة وأختلف معكما على تحديد راتبها.

أحمد: وما الذى يجعلك ترفض الوظيفة يا شريف؟

شريف: إننى لو وافقت على تلك الوظائف التى تتحدثون عنها فسيعى ذلك أن حياتى ستنحصر فى متابعة هذا النوع من العمل والتفرغ له وقطع كل أمل لى فى العودة إلى صفوف الجيش ثانية.

أحمد: ألا زلت تفكر بالعودة للجيش .. كنت أحسب أن تلك المرحلة قد انتهت من حياتك نهائياً خاصه وأن العائد من عملك الآن أكبر بكثير مما كنت تتحصل عليه من وظيفتك بالجيش.

شريف: ليس كل الأمور تحسب من الناحية المادية يا أحمد .. فهناك أشياء لا تقدر بثمن.

هَمَّ أحمد بالاعتراض لولا تدخل عبد الحليم قائلاً: هل لو أتاحت لك فرصة العودة لصفوف الجيش هل تقدم على الموافقه؟

شريف: أصدقكم القول إن العمل بالجيش هو عشقى الأوحدهما ابتعدت عنه أو حاولت خداع نفسى فقد حاولت جاهداً الانشغال بالعمل والانغماس بمشاكله حتى أُئدُ أى ذكرى أو رغبة لدى تتعلق بالعمل العسكرى لكنى لم أعد أستطيع الهروب من نفسى أكثر من ذلك.

عبدالحليم: ألا زلت تعشق العمل بالجيش حتى بعد الأخبار السيئة
التي تأتي من جبهة الحرب؟

شريف: ليست سيئة على الإطلاق .. إنني متابع لكل الأخبار الواردة من
هناك وكلها تشيد بكفاءة وبسالة الجيش المصرى الذى انتصر على الجيش
الروسى فى موقعة ترخان ثم فى موقعة قره أغاج كما كان لهم دور رائع فى
إخماد الثورة التى أشعلها اليونانيون أثناء الحرب كل هذا بخلاف
استبسالهم فى الدفاع عن طابئة العرب أثناء حصار الروس سلسرتة حيث
تحملت القوات المصرية هجمات الروس المتتالية وكل هذا تحت قيادة
القائد الكبير سليم باشا فتحى .. كذلك البحرية المصرية أدت دورًا ..

أحمد مقاطعًا بحدة: عجبًا لأمرك وهل ستمتدح أيضًا البحرية
المصرية والتي اقتصر دورها على توصيل الجنود والإمدادات للمحاربين
وإذا ما حدث وتدخلت فى مواجهة مباشرة مع العدو فإن قدرتها الضعيفة
المخزية تنكشف كما حدث فى سينوب حيث دُمرت السفينتان المصريتان
دمياط وبروانا .. وطبعًا كل هذا يعكس الإهمال وعدم الاعتناء من القيادة
العليا للبحرية والتي أثبتت فشلها بعدما كانت تتشدد بكفاءتها وقدرتها
على مدار أعوام قبعت خلالها مبتعدة عن المواجهات والحروب المباشرة.

تعجب شريف من كلام أحمد و الذى يطعن صراحة فى عمه سعيد
باشا فى حين ابتمس عبدالحليم وهو يقول: هل رأيك هذا يعتمد على
الحيادية أم أن سببه هو الجفوة الحادثة بينك وبين سعيد باشا.

أحمد فى ضيق: إننى لا أتحامل على أحد يا عبدالحليم ولكنى أتحدث
عن وقائع حادثة وصريحة تدلل على صدق كلامى.

ثم التفت إلى شريف وسأله محاولة منه لتغيير دفة الحوار: وطالما أنك لا زلت تهوى العمل بالجيش .. فلماذا لم تكلم سليمان باشا حتى يتدخل ويعيدك إلى وظيفتك؟

شريف: أنت تعرفني جيدًا لن أطلب أبدًا تدخل حموى بهذا الأمر.

أحمد: نعم أعرفك فأنت دائمًا متصلب الرأي على كل إذا أردت أن أكلم لك عباس باشا بنفسه فسأفعل فالرجل تغيرت طباعه كثيرًا وتحسنت علاقته مع أقاربه عما كانت عليه في السابق.

شريف: أشكرك كثيرًا على عرضك الكريم ولكن اترك الأمور تعالج من تلقاء نفسها .. كما يسعدني أن علاقتكم بالوالى قد تحسنت فهذا ينهى صفحة مريرة من الصراع بين أفراد عائلتكم.

أحمد: على كل حال إذا ما كنت تريد أن تترك الأمور تعالج من تلقاء نفسها .. فاقبل عروضنا بمتابعة الأعمال في أملاكنا حتى تحسم أمورك .. وتعود إلى عملك الذى تبغاه.

شريف: ليس عندي ما يمنع على أن أترك العمل فور أن تتاح لى فرصة العودة لصفوف الجيش.

وأخذوا يتباحثون فى تفاصيل العمل الجديد وأعبائه.

سار عباس باشا بصحبة حسن المنسترلى باشا و مصطفى باشا الخازندار فى جولة تفقدية بأحد أسواق القاهرة حيث أخذ عباس باشا يتابع حركه البيع والشراء ويسأل عن أسعار بيع السلع للناس ويلقى

بتعليماته لمرافقيه بخصوص بعض الإصلاحات الضرورية لتحقيق راحة
الرعية .. وعندما شارفت جولته على الانتهاء لفت انتباهه امرأة جالسة
تتسول في نهاية السوق .. حيث بدا وجهها مألوفاً له من قبل فاقرب منها
وقال لها: ما اسمك أيتها المرأة؟

نظرت له المرأة في خوف قائلة: إننى لم افعل شيئاً .. سأذهب من هنا
إن كان وجودى ضايقكم يا باشا.

وأخذت المرأة تجاهد كي تهض وتريد الذهاب فكادت تقع من شدة
ضعفها فأمسك بها عباس وقال لها: لا تفزعي إنما أردت التعرف عليك
لإحساسى أننى رأيتك قبل اليوم .. ولكننى أعتذر إن كنت قد أفرعتك.

حاولت المرأة أن تتطلع إلى وجهه برهة ثم قالت فى بأس: لقد كبر سننى
وضعف بصرى ولم أعد أستطيع التعرف على أحد ولكن أخبرنى أنت أولاً
من أنت أيها السيد المهذب؟

عباس: إن اسمى عباس أعمل فى خدمة أحد ذوات البلد.

شردت المرأة قليلاً ثم قالت ساخرة: لقد كنت فى يومٍ من الأيام واحدةً
من أولئك الذوات الذين تعمل لديهم بل كنت فى قصر حاكم أولئك
الذوات أجمعين.

تطلع لها الواقفون فى تعجبٍ فى حين جلس عباس إلى جوار المرأة
قائلاً: ما هى حكايتك يا سيدتى فإنك جعلتني أتلهف لسماعها؟

المرأة فى حدة: وما دخلك بحكايتى يا هذا .. اتركنى وشأنى ولا تقلب علىّ
المواجه والالام.

صمت عباس قليلاً ثم هَمَّ بالنهوض لولا أن راجعت المرأة موقفها وقالت: لقد عاملتني بلطف وما كان ينبغي على أن أعاملك بتلك الغلظة .. سامحنى فكبر سنى وضيق حالى وتجربتى القاسية قد جعلتني حادة الطباع.

ثم تابعت: اسمع .. سأعلمك بخبرى لعلك لا تركز لأولئك الذوات الذين تخدمهم وتتقى شرهم ما استطعت وليكن لك من قصتى معتبر .. إننى لم أكن بمثل هذا القبح فى شبابى بل على العكس كنت كالبدرفى تمامه .. وكنت أنعم بحياة القصور الرغدة وأرقل فى الحرير والديباج وأتزين بالجواهر النفيسة الغالية .. أعلم أنك تنظرلى الآن بسخرية وتظن أن بى مساً من الجنون أو قد أصابنى الخرف لكن هى تلك الحقيقة .. لقد كنت أسكن القصر العالى بالقلعة فى حرملك الوالى محمد على باشا .. نعم لقد كنت إحدى جوارى قصره بل كنت بجمالى وحسنى متميزة بين غريماتى فى الحرملك وكنت إحدى المفضلات لدى الباشا فكان يغدق على بنعمه وهداياه الثمينة .. ولكن إرادة الله قد حرمتنى من نعمة الإنجاب .. وفى حرملك الوالى للذرية قيمة كبيرة فتصبح المرأة الولود هى ذات الحظوة والسيادة والكلمة العليا .. وإننى لا أنكر فضل الباشا .. ولا أجدد حقه فقد كان معى رحيماً عطوفاً فاستمرت رعايته لى وإحسانه حتى كبر الوالى وزال ملكه .. وجاء ولده إبراهيم بنسائه وجواريه .. فشفع كل وليدٍ لوالدته فهم ذرية الأسرة وأمراءها وأميراتها فحجبوا عن أمهاتهم قسوة النذل والامتهان فسكنت الحاضنات بالقصور المترامية فى أنحاء المحروسة .. فى حين تم طرد الجوارى العقيمات فلم نجد لنا من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاع .. فقد ذهب عنا الجمال والرونق الأخاذ وصرنا عجائز غابرات لا حاجة فىنا ولا مأرب بعدما أبلينا شبابنا مع السيد البائد .. فلما حل آخر مكانه استبدلنا وقذف بنا على قارعة الطريق .. فتقاذفتنا أيدى الزمان العابثة

فتشتت شملنا .. فمننا من أهلكها الفقر والجوع ومنا من تجاهد لتبقى يوماً آخر فتتسول لقمتها من المارة والسابلة.

شعر عباس باشا أن قبضةً باردةً تعتصر قلبه من هول ما سمع من المرأة العجوز .. وأحس بمدى الظلم والقسوة التي تحملتها جراء نظام الحرملك الفاسد وأدرك مدى الصلف والأزدراء الذي يتعاملون به مع جواريمهم ومخدومهم فيها هو لأول مرة ينظر للأمر من منظور الجارية وليس من منظور السيد الأمر المطاع .. فربت مواسياً على يد المرأة العجوز وتحامل على يد مصطفى باشا للهبوض ثم قال له بنبراتٍ حزينة: فوراً يتم حصر كل النساء اللاتي تم عزلهن من الحرملك في الفترة السابقة ومنذ اليوم يتم توفير المسكن المناسب لكل سيدهٍ منهن .. مع اعتماد مبلغ مالى شهري لهن على أن يكفل هذا المبلغ لهن حياةً كريمةً تعويضاً منا على الفترة اللاتي قضيتها في خدمتنا .. ويعتمد هذا القرار كمنهاج يُتبع على الدوام بالدولة العلوية.

ونظر إلى المرأة فوجد وجهها يشرق بابتسامة عرفان وتقدير.

جلست نازلى هانم ترشف من كأس العصير البارد الذى أمامها وأخذت تمرر يديها على جدرانها المحلاة بماء الذهب لتستمد من برودته بعضاً ما يخفف عنها حرارة الجو المحيطة بها ثم نهضت وأحضرت جريدة وقلبت صفحاتها المليئة بأخبار الحرب وأحداثها ثم ألقت بها جانباً وزفرت فى مللي وتبرمٍ واضحين فقد كانت تحس بأن الأوقات تمر عليها بطيئة خاصة أن شوكت لم يعد يمر عليها كما كان معتاداً لتغير مواعيد إجازاته والتي صارت قليلة جداً بعد حالة الحرب التي تمر بها البلاد .. ولم تصدق

نفسها حينما دخلت عليها وصيفتها وقالت لها: إن شوكت بك يستأذن في الدخول إلى مقامك نازلي هانم.

هبت نازلي من مقعدها وقد انتابها نشاطٌ مفاجئٌ وهي تقول في سعادة: دعيه يتفضل فوراً وقدمي إليه القهوة حتى أتهياً لمقابلته.

وهرعت إلى حجرتها مسرعة ووقفت أمام مرآتها الكبيرة .. لتضع بعض لمسات الزينة ثم ألقت نظرة أخيرة تطمئن بها على حسن مظهرها وجمالها وابتسمت في رضا وانطلقت لمقابلة ضيفها الذي ما أن رآها حتى نهض محيياً وهو يقول: إن قدرتي لا تستطيع تحمل كل هذا الجمال الذي أشاهده أمام عيني .. أكلما ابتعدت عنك فترة من الزمن أعود بعدها لأجلك أجمل مما كنت عليه من قبل؟

نازلي: ألن تكف أبداً عن مبالغتك تلك يا شوكت.

شوكت: مبالغة .. يبدو أن أميرتي لا تقدر نفسها حق قدرها .. إن جمالك الأخاذ ينافس في إبهاره وهج الشمس المشرقة وضياء القمر المنير .. ألا لعنة الله على الحرب التي تحرمني من كل هذا الهناء وتلك الروعة.

جلست نازلي باسمه وهي تقول: إحمَدِ الله أنك لست مع المحاربين على الجبهة .. حيث لا يعودون من هناك إلا كل ثلاثة أشهر ولمدة ثلاثة أيام فقط ثم يعودون بعدها إلى جبهة القتال.

شوكت: حقاً إنني لست على الجبهة ولكن كل ما يمت للعسكرية في تركيا أصبح مكتسباً بالصرامة والكأبة .. فقد كنا من قبل فرقة الحرس السلطاني متميزون بالسلطة والوجاهة وكثرة الإجازات ورتابة الأعمال

المسندة إلينا .. حتى نشبت تلك الحرب والتي يبدو أن نيران المعارك المستعرة بالجهة قد أصابتنا بلبهيبها هنا في إسطنبول.

ثم نظر لها وقد تذكر شيئاً فقال: لقد أنساني حديث الحرب عن الخبر الذى أخرجنى اليوم من معسكرى .. لقد وصلنى هذا الخطاب بالأمس.

وأخرج من طيات ثيابه خطاباً وقدمه لها وهو يقول: إن فى هذا الخطاب أمراً هاماً يخص ما خططنا له من قبل.

تسائلت نازلى قائلة: عن أى شىء تتحدث بالضبط؟

شوكت: عن الوالى عباس باشا .. اليوم سيتم تنفيذ تأرك الذى كنتِ ترومين يا عزيزتى .. اليوم سأبر بوعدى لك.

وازدردت نازلى لعابها بصعوبة فقد تذكرت الآن أمر عباس وصراعها الطويل معه ..

وتذكرت ما وعدها شوكت به منذ قرابة العام ..

وتذكرت خطة شوكت لتنفيذ هذا الانتقام ..

وتذكرت أمر الفتیان وقصتهما ..

وتذكرت سفرهما للقاهرة ..

وتذكرت رسالتها إلى الرجل الذى يعمل لحسابها داخل قصر الوالى وأمرها له بتذليل دخول الفتیان إلى القصر والتمكين لهما به

تذكرت كل ذلك فسرت في جسدها ارتجافاً شديده وعصفت
بوجدانها مشاعر متباينه بين الغضب والقسوة والخوف والخشية
والشفقة.

وقف خليل أغا يتفقد الحارسين الواقفين أمام غرفة نوم الوالى وهو
يقول لهما مختالاً: ألم تريا أن طاعتكما لى والتزامكما بأوامرى أين
أوصلتكما .. لقد أصبحتما من حرس أفندينا المرابطين على مكدعه
الخاص.

قال أحد الحارسين: إننا لن ننسى لك يا حضرة الأغا أنك من اشتريتنا
منذ عام وتعهدتنا برعايتك حتى وصلنا لما نحن فيه الآن.

خليل: نعم من الجيد ألا تنسيا ذلك ابداً .. لا أريد منكما أن تقصرا
رقبتي أمام أفندينا كى لا أنزل بكما أشد العذاب .. فأنتما تعلمون أنى عبد
أفندينا المفضل فلا تخجلونى بفعلٍ أحاسبكم عليه.

أحد الحارسين: لا تقلق يا أغا .. فإننا ملتزمون بوظيفتنا ولن نقصر
فيها أبداً.

خليل: هذا ما أنتظره منكما.

أخذ عباس باشا يقلب بين يديه بعض الأوراق التى تتعلق بحال
الجنود المصرية المشاركة بحرب القرم فى حين وقف إلى جواره كل من

أحمد يكن باشا رئيس ديوانه و نوبار بك مترجمه الخاص حيث قال عباس باشا: هل هناك أى مخاطبات أخرى يا نوبار بك تتعلق بأمر الحرب.

نوبار: هناك خطاب وصل لجنابكم من الباب العالى ببيان المبالغ التى تبرعتم بها للدولة العثمانية ودخولها إلى خزائن الدولة العلية

ثم قرأ البيان: قد تبرع حضرة صاحب الفخامة عباس باشا بمبلغ 8000 كيس نقدية .. وتبرع حضرة صاحب الدولة إلهامى باشا بمبلغ 2000 كيس نقدية إعانة للنفقات الحربية .. وقدم حضرة صاحب السعادة حسن المنسترلى باشا والموظفون وسائر عبید الحضرة الشاهانية الموجودون بمصر مبلغ 7000 كيس نقدية إلى خزينة المالية الجليلة وصدرت الإرادة الشاهانية بالموافقة.

عباس: شكر الله لابننا إلهامى باشا أن قدم تبرعه ضمن مبالغ الدولة المصرية ولم يختص بها نفسه فنعم الابن هو وبارك الله له فى مولودته الأميرة أمينه .. كما نخص بالثناء الكبير كتحدا حسن المنسترلى باشا على تبرعه وجهده المبذول .. هل توجد لديك أى مخاطبات أخرى يا بك.

نوبار: لا توجد لدينا أى مخاطبات جديدة يا أفندينا.

عباس: إذن اكتب وليسجل يكن باشا أيضاً بسجلات ديواننا أنه فى 18 شوال 1270 هجرية الموافق 14 يوليو 1854 ميلادية صدرت إرادتنا العلية بالتبرع لجنودنا المحاربين بما يلى: 4800 أطقم ملبوسات، 4800 أطقم البسه وقمصان، 4800 مراكيب زيلوا تلك الإفادة بخاتمنا وأرسلوها إلى إسماعيل باشا سليم محافظ الإسكندرية حتى يجهز سفينه بتلك المهمات ويرسلها لجهة القتال .

ثم قام من على أريكته في إجهادٍ واضحٍ وهو يقول: لقد تأخر بنا الوقت وحل بنا الإجهاد وصار لزامًا ذهابي للنوم.

أحمد يكن باشا: هل ستبيت ليلتك هنا بقصر بنها يا أفندينا.

عباس: نعم فالوقت تأخر بنا حتى أذهب إلى العباسية الآن .. وإن كانت بكما رغبة فلتبيتا هنا حتى نستأنف أعمالنا في الصباح الباكر بإذن الله.

وتركهما وانصرف فقال نوبار: إن كان هناك ما لا يمنع فهل تسمحوا لي أن أبيت في بيتي وأعود في الصباح الباكر لمتابعة الأعمال؟

أجابه أحمد يكن باشا وهو يقول: تفضل بالذهاب يا بك .. سأبيت أنا ليلتي هنا.

في حين سار عباس باشا إلى غرفته فوجد على بابها خليل أغا واقفًا وبصحبته حارسان فحياهما ودلف إلى الحجرة فتبعه الأغا وأخذ يعاونه في تبديل ملابسه وقال له: هل أمرُ باستدعاء العشاء لجناحك يا أفندينا؟

عباس: لا أريد إلا النوم الآن يا خليل .. فإنني مجهد من طول العمل هذا اليوم .. على أن توقظني عند صلاة الفجر حتى أبدأ في متابعة أعمال.

خرج خليل أغا فرقد عباس على فراشه وراح في ثُبَاتٍ عميق .. وبعد مرور ساعتين كان خليل أغا يقول للحارسين: سأذهب لإحضار بعض الطعام نتبغ به في سهرنا الطويل هذا ولكن كما عودتكما لا تغفلن أعينكما عن حراسة باب أفندينا.

وتحرك للانصراف ولم يلحظ نظرات الترقب التي لاحت في أعين الحارسين وما أن اختفى من أمام أعينهما حتى تحرك الحارسان في سرعة .. فاقتهما غرفة الباشا في صمت حتى اقتريا من فراشه وانقَضَ عليه في عنف وقد أمسك كل منهم حبلاً متيناً لِقُوهِ بسرعةٍ حول رقبته .. وعلى الرغم من أن الوالى كان غارقاً في نوم عميق إلا أن ذلك لم يمنعه من المقاومة فقد كان قوى البنية رغم كبر سنه .. فضرب بظاهر قبضته الفتى الذى على يمينه فأطاح به للوراء مما جعله يتحرر قليلاً من رقاذه ويمسك برقبة الفتى الآخر ويجذبه إليه في شدة وقوةٍ بالغين وكاد الفتى أن يلفظ أنفاسه بين يديه لولا أن تدخل الفتى الآخر من خلف عباس باشا حيث لف الحبل بقوةٍ على رقبة الباشا وضغطه بكل قوته فتراخت يدا الباشا من شدة الضغط وحرك يديه محاولاً التشبث بأى شىء يستعين به كي لا يفقد توازنه ويسقط فلم يجد وسقط الباشا وجثم عليه الفتى يشدان الحبال حول رقبته في قوةٍ وأحس عباس باشا بأن قواه تتخلى عنه وروحه تنساب من بين جناباته ولا حت له النهاية ومر أمامه شريط حياته الطويلة منذ يتمه وهو صغير وعناية جده محمد على بتربيته وشبابه وحروب الحجاز والشام التى خاض غمارها ثم حدوث القطيعة مع عمه إبراهيم وتركه للبلاد ثم وفاة عمه وعودته وتولييه حكم مصر وتذكر صراعه الطويل مع الأسرة العلوية وتذكر أمه كبيرة السن وشعر بالرتاء لحالها عندما تعلم بخبر موته وتذكر ولده إلهامى وزواجه من ابنة السلطان العثمانى ووحفيدته الصغيرة أمينة التى لم ينعم برؤياها بعد .. ثم شاهد وجه برلانته قادين المبتسم له فى سعادةٍ فحاول أن يبادلها الابتسام وتخليها مقبلة عليه .. متزينة بكامل زينتها .. مرتدية أبهى حللها .. تمد يديها لتضمه إلى رحابها فرفع يده لعله يلمسها .. لكن انتهى كل شىء تارة واحدة وأظلمت الدنيا أمام عينيه الغاربة وسقطت يده بجانبه علامة على صعود روحه لبارئها.

وفي عجلةٍ تحرك الفتيان إلى خارج الغرفة فوجدوا أمامهما خليل أغا مقبلاً وبيده صحيفةٌ رُصَّت عليها بعض الأطمعة فعاجلأه بضربةٍ على رأسه فسقط مغشياً عليه في حين انطلقا إلى إسطنبول الخيل فقال أحدهما لسائس الخيل: إن أفندينا يأمرك بسرعة إحضار جوادين لنا كي نحضر شيئاً يخصه من قصره بالعباسية.

فأسرع الرجل يلبي غرضهما فأحضر لهما الجوادين فامتطوهما ولاذا بالفرار من المحروسة كلها.

وقف إلهامى يداعب ابنته الرضيعة الأميرة أمينة في حين جلست السلطانة فاطمة ترقبهما في سعادةٍ غامرة وقد اكتسى وجهها بابتسامةٍ مُشرقةٍ حنونٍ وهي تقول لزوجها: ألم أحذرك من قبل ألا يأخذك منى المولود الجديد .. وأنباتك بخشيتي من أنه سيشاركني في حبك الذي تغمرني به.

رفع إلهامى عينيه إليها وهو يقول باسمًا: لم أكن أعلم من قبل شعور الوالد لولده ومدى الحنان والرحمة الملازمان لتلك العلاقة وعندما تعلقت بابنتي عذرت والدى في كل صراعه ورغبته كي يورثني حكمه من بعده فالمرء يتمنى لولده كل ما يراه خيرًا له ولا يرضن عليه بكل عزيز ونفيس .. غير أن وجود أمينة في حياتنا قد زادني عشقًا وهيامًا يكفى للعالم كله من حولى يا فاطمة.

فاطمة وقد قطبت جبينها بغضبٍ مصطنع: وهل تظننى تاركتك لتفويض بعشقتك وهيامك على العالم كله كما تقول .. إن كل مشاعرك وأحاسيسك الفياضة ملكًا لى وحدى فقط.

انحنى إلهامى أمامها وهو يقول مداعبًا: ومن يستطيع المجادلة فى ذلك إنك تملكين مشاعرى وكل حياتى يا فخامة السلطنة.

نهضت فاطمة مسرعة إليه وأحاطت وجنتيه بيديها الرقيقتين وهى تقول: إن حقى عليك نابع من حى وعشقى لك ولرباط الزواج المقدس الذى جمع بين قلوبنا وليس لمقامٍ أنت تعلم زهدى به وعزوفى عنه ول...

قاطعها صوت ارتظام كبير أحدث جلبة عظيمة خارج الغرفة أفزع الصغيرة فأخذت فى البكاء والصرخ فضمتها أمها إلى صدرها فى رفقٍ وحنان وأسرعت خلف زوجها يهرولان مفزوعين ليتقصيا الأمر وما أن خرجا من غرفتهما حتى هالهما منظر غريب فقد وجدا الصورة الكبيرة المعلقة لعباس باشا وقد سقطت بإطارها المذهب البراق رغم حدائته مما جعلهما يتبادلان النظر فى تعجبٍ مشوب بالقلق وشعر إلهامى وكأن قبضة قاسية تعتصر قلبه ونظر لزوجته وقال بصوتٍ مفعم بالقلق: إننى أبغض التشاؤم ولكننى أشعر بأن حدثًا جلالًا قد وقع بالمحروسة اليوم.

فضمت فاطمة الصغيرة إلى صدرها أكثر وأمسكت بيده فى محاولةٍ منها لتهديته وبث الطمأنينة فى قلبه ولكن هيات فقد كان شعوره بالقلق يتنامى بداخله مع كل لحظةٍ تمر عليه.

طرق شوكت بك باب مسكن نازلى هانم وخلفه الفتيان اللذان قاما باغتيال عباس باشا وما ان فُتح له حتى أسرع بالدخول وهو يصيح: لقد نجحنا يا نازلى لقد نجحنا .

أسرعت نازلى لتقابلهُ وعندما رآته ورأت خلفه الفتيان فهمت كل
شئ وألجمها الخطب فتمتمت قائلة وهى تشير للفتيان من خلفه: هل
نجحا فى قتل عباس باشا؟

شوكت: نعم يا نازلى لقد نجحا وأتمًا لكِ تاركِ المنشود .. وأن لكِ الآن
أن تستريحى من الخطر المحقق بك فتحركى كما تشائين فلن ينغص عليكِ
حياتك أحدٌ بعد اليوم.

نازلى: ولماذا أحضرتهما معك الآن يا شوكت؟ ألا تعلم أن وجودهما
الآن فى منزلى يلقى بأصابع الاتهام كلها إلىّ.

شوكت: لقد أرادا أن يأخذا منك الحلوان ولا أريدك منذ اليوم أن
تخشى شيئاً فمن يجرؤ على اتهامك بإسطنبول؟ من سيربط بينك وبين
الوالى المقتول بمصر؟

نازلى: أنسيت أن ابن الباشا موجود هنا وهو صهر السلطان والمحتمى
بحماه والذى اكتسب شعبية لدى أفراد العائلة بقرار تخليه عن السلطة
بمصر وبات من أكبر مناصرى الأمير إسماعيل.

شوكت: الأمير إسماعيل الذى لم يدخل مسكنك منذ قرابة العام
اعتراضاً منه على حينا.

نظرت نازلى إلى الفتيان وهى تقول: ليس الآن يا شوكت وقت مثل هذا
الكلام .. انتظرونى هنا قليلاً.

وأسرعت بمغادرة الحجرة ثم عادت لهم وفى يدها كيسين كبيرين
أعطتهما للفتيان وهى تقول: هاكم الحلوان المطلوب .. وأرجوك يا شوكت
أن تصرفهما الآن قبل أن تحدث أى مشاكل.

شوكت: سأصرفهما الآن على أن أعود إلى زيارتك في المساء لنحتفل
بهذا الخبر السعيد.

هزت نازلى رأسها موافقة في اضطرابٍ وشroud .. وما أن غادر الزائرين
حتى أُلقت بنفسها على أقرب المقاعد وهي تقول: لماذا أوصلتنا بعنادك
وتكبرك لمثل هذا اليوم يا عباس باشا؟ لماذا؟ .. فليرحمك الله وليسامحك
على أثامك.

أمسك إسماعيل بين يديه برسالة عمه سعيد والذي كان معتادًا معه
على تبادل الخطابات بين الفينة والأخرى ففض خاتمها وقرأ ما بها: ابن
أخي الأمير إسماعيل .. بعد التحية والسلام .. يؤسفني كثيرًا أن أعلمك
بوفاة عباس باشا .. وما تبعها من محاولة بعض رجاله وعلى رأسهم رئيس
الديوان أحمد يكن باشا أن يكتموا الخبر قدر استطاعتهم حتى يرسلوا
الأمير إلهامى ويحرضوه على العودة لمصر وورثة حكم أبيه وقد أرسلوا
بمكتوبهم إلى إسماعيل سليم باشا محافظ الإسكندرية ليقوم بإرسال
المكتوب إلى إلهامى باشا مع أقرب سفينةٍ مغادرةٍ من الميناء إلى إسطنبول
ولكن شاء الله العلى القدير أن يقذف بالصدق في قلب سليم باشا
فيكشف خبيثة نفوس المتآمرين ويعلمنا بخطتهم الخبيثة .. فشكرنا له
إخلاصه ومعروفه وتحركنا على رأس إحدى فرقنا قاصدين المحروسة
حيث بهت المتآمرون لرؤيتنا ونحن وقوفٌ على رؤوسهم فرضخوا بالأمر
دون أى مقاومةٍ تذكر ودانت لنا البلاد بالحكم .. وقد حدث أمر قذف في
قلبنا بالريبة وهو أننا عندما دخلنا إلى غرفه عباس باشا بقصر بنها
وطالعنا جثمانه المسجى أخبرنا الطبيب الفرنسى ديامنتى والذي كان معنا
أن هناك آثارًا سوداء حول عنق الوالى مما يدل على أنه قد مات مقتولًا

بالخفق ولكننا رأينا أن انتشار مثل هذا الخبر قد يحدث من الفوضى والاضطراب ما يخشى على البلاد منه فأمرنا بالتوقيع على أن الوفاة كانت إثر أزمةٍ قلبية وتم الدفن وعمل واجب العزاء بالشكل اللائق بالباشا المرحوم ولم نرد أن نكتم عنك أمرًا في بداية عهدنا ولكن لا تطلع أحدًا على ذلك أبدًا فأنت تعلم مكانتك لدينا فأنت لنا بمثابة الابن وليس ابن الأخ أنه أعمالك بإسطنبول ووافينا بالمحروسة بأقرب وقت فإن لدينا أعمالًا جثامًا نريد معاونتك بها فقد زالت الغمة وانتهت أسباب الشقاق ولا يوجد الآن سببًا لوجودك مغتربًا عن وطنك وأهلك.

عمك سعيد بن محمد بن على.

طوى إسماعيل الرسالة ولبث برهة في صمت يجتر ما احتوت عليه من حوادث جسام ثم نهض وهو يقول محدثًا نفسه: سأعود للمحروسة ولكن هناك مهمة أخيرة على القيام بها قبل الرحيل.

نهض شوكت لاستقبال نازلى في صالون منزل الأخيرة وانحنى يقبل يدها وهو يقول: أخيرًا يا أميرتى العزيزة نستطيع الاحتفال بنهاية أحزانك وأسباب قلقك.

ولم يترك يدها من يده وهو يجلسها بجانبه ويقول: إننى لم أعد أستطيع احتمال بعدك عنى أكثر من ذلك يا نازلى فمنذ قرابة العام وأنا أتردد عليك منتظرًا اللحظة المناسبة التى أصارك فيها بحقيقة مشاعرى التى أكتبها لك.

واقترب منها وهو يرنو لها بعينيه في افتتانٍ وهمَّ بتقبيلها إلا أنها قد وضعت يدها على صدره لتحول بينها وبينه وهي تقول بدلال: ألن تكف أبداً عن عبثك هذا يا شوكت.

شوكت: ألن تكفى أنتِ أبداً عن تمنعك هذا يا نازلى رغم علمك بكل العشق الذى أكنه لك.

ودخلت إحدى الخدم وهى تضع أمامهما صحفةً عليها زجاجةٌ من الخمر وكأسين وانصرفت خارجة من الحجرة فقالت نازلى فى ضيق: ألم أنك يا شوكت عن شرب تلك الأشياء وأنت بصحبتى .. فتأت بها اليوم إلى منزلى لتشرب منها هنا.

شوكت: دعينا اليوم نحتفل دون قيود تحُدُّ من سعادتنا ومرحنا.

نازلى: وهل السعادة لا تكون إلا بتلك المشروبات الخبيثة؟

شوكت: دعك من ضلك الآن ودعيني أقدم مفاجأتى لك بتلك المناسبة السعيدة.

ثم نهض وأخرج من جيبه خاتم ذهبى مزين بفص زمرد باهر الحسن وانحنى على ركبته وهو يضع الخاتم بيدها ويقول: إن هذا أقل شىء أقدمه لك تعبيراً عن مدى حبى وهيامى.

نازلى فى سعادةٍ جمّة: ألا ترى أن من الأنسب أن نتروى فى قرارنا قبل أن نعلن للناس خطبتنا؟

شوكت مرتبگًا: خطبة ومن تحدث عن إعلان خطبة يا عزيزتى؟

نازلى فى خببة أمل وهى تنظر له وللخاتم بيدها قائلة: أليس هذا الخاتم هو خاتم خطبتنا يا شوكت؟

شوكت: إن هذا الخاتم هدية عاشق لمحبووبته.

نازلى بضيقٍ واضح: كنت أحسبه خاتم خطبتنا التى طال أمد إعلانها حتى صار الأمر محط سخرية وقدح الناس.

شوكت: إن الخطبة وغيرها ما هى إلا شكليات ابتدعها الناس ضمن مجموعة الأعراف والتقاليد البالية التى يجب أن نثور عليها ولا نتمسك بها خاصة ونحن جيل الشباب المجدد الأمل بالرقى والتمدن.

نازلى: ولكننا جزء من هذا المجتمع الذين تصر على انتقاده والخروج على دربه.

شوكت: إننا لسنا أغنامًا ضمن القطيع إنما حملة مشاعل نيرى الدرب لمن خلفنا حتى نهديهم لبر التقدم والتحضر.

نازلى مبتسمة: ما دام أمر الخطبة يضايقك بمثل هذا الشكل فلندعه ونتجاوز عنه .. واقترح عليك أن نعتبر هذا الخاتم هو خاتم زواجنا مباشرة .. دون خطبة وشكلياتٍ باليةٍ تخالف قناعاتك.

شوكت: لازلتِ تدورين حول نفس التقاليد البالية يا نازلى .

عقدت نازلى حاجبها وهى تقول: وهل الزواج أيضًا ضمن التقاليد البالية التى يجب أن نثور عليها؟

شوكت: أعرف أن هذا الكلام قد يكون صادمًا لكِ يا نازلي ولكن ..
أخبريني أولاً .. هل تشعرين وأنتِ بالقرب منى بالسعادة والهناء أم لا؟

نازلي: بلى.

شوكت: إذن وهل يصبو المرء في حياته إلا لتحقيق السعادة والهناء
أتعلمين كمّ المشاكل والكراهية والخيانات التي تحدث بين الأزواج هل
نقوِّضُ سعادتنا ونهدم هئاءنا من أجل تقليد أجوف؟

نازلي: ما أفهمه أن الزواج هو التتويج السعيد لكل علاقة حب ناجحة
.. وهو السبيل لتكوين الأسرة وإنجاب الاطفال.

وأردفت قائلة في غضب: ثم أخبرني بالله عليك .. مادمت تنكر الخطبة
والزواج وتعتبرهما من التقاليد البالية المتخلفة فما سر ترددك علىّ لمدة
عامٍ كامل وكلامك المعسول الذي تسكبه في أذني .

شوكت: إنني احبك ولا أستطيع فراقك والبعد عنك.

نازلي: أتريد قربي والفوز بجي بدون زواج؟ وماذا عن سمعتي التي
صارت مضغّة في أفواه الناس بإسطنبول .. ألا تعيرها اهتمامك .. ألا
تشغل تفكيرك؟

شوكت: إن كلام الناس لا ينتهي أبدًا .. أخبريني أنتِ هل حدث بيننا ما
يسيء لسمعتك او يمس كرامتك .. هل طالبتك خلال فترة صداقتنا التي
امتدت لعامٍ كاملٍ بشيءٍ تأباه نفسك أو يرفضه عقلك وثقى أنى لن
أجبرك على فعلٍ أنت لا تريدينه.

نهضت نازلي قائلة في غضب: ومن أنت حتى تجبرني أو لا تجبرني
أنسيت من أكون ولأى عائلة أنتى .. ولكن يبدو أنى أنا من فَرَطْتُ في
كرامتى وغضضت الطرف عن الفروق الكبيرة بيننا.

نهض شوكت في محاولةٍ لتهديتها: لا أعلم سر ثورتك على في هذه الليلة
.. خاصه وأنا اليوم قد حققت لك أمنيتك وبغيتك بتخليصك من الوالى
الذى كان يريد حياتك .. فبدلاً من أن نحتفل بهذا النصر تطرقين
مواضيعاً تثير الخلاف والشقاق بيننا.

واقرب منها وهَمَّ بأن يمسك يدها إلا أنها كانت تشعر بغضبٍ هادرٍ
لكرامتها المهذرة وتحس باللم من تلقت طعنة نجلاء في صميم فؤادها .. فلم
تكد تشعر بيده تلامس يدها حتى تحركت يدها سريعاً في صفعهٍ مدويةٍ
على وجنتيه .. ألجم لها شوكت للحظات .. اندفعت خلالها في حالةٍ
هستيريةٍ تلقى بالمائدة التي أمامهما وبكل ما عليها من زجاجات الخمر
وكؤوس تهمشت جميعها على الأرض في صوتٍ مدوٍ وهى تصرخ وتصبح:
كاذب .. غشاش .. مخادع.

واقتمح بعض الخدم والوصيفات الغرفة مسرعين على إثر الصوت
المدوى للارتطام .. في حين ظل شوكت ينظر لهم ولها مشدوهاً من ثورتها
العاتية بوجهه ثم قال وهو يهم بالخروج من الحجرة مسرعاً: أنتِ مجنونة
.. يجب أن تعالجي .. أنتِ مجنونة.

ولم تحتمل نازلي كل تلك الانفعالات التي تعرضت لها فوقعَت مغشياً
عليها في وسط الحجرة.

تحسس إلهامى طريقه بصعوبةٍ وسط الأزقة الضيقة القذرة التى كان يمر خلالها فى عتمة الليل حتى وصل إلى باب إحدى الحانات واتجه إلى مجموعة رجال يلتفون حول شخصٍ يرتدى حُلَّة سهرية سوداء حسنه المظهر ويضع على رأسه قبعة ويوليه ظهره وما أن اقترب منهم حتى التفت له الشخص فإذا به الأمير إسماعيل الذى خرج عن دائرة الرجال المحيطين به وهو يقول: إنهما الآن بالحانة هل أنت واثقٌ من قرارك وقدرتك على تنفيذه؟

نظر له إلهامى فى صرامةٍ ولم يجاوبه بل اتجه مباشرة إلى داخل الحانة فاستوقفه إسماعيل قائلاً: هل ستذهب منفردًا .. اصطحب معك بعض الرجال حتى يكونوا فى عونك وخدمتك.

أجاب إلهامى باقتضاب: لا .

فأشار إسماعيل إلى الرجال المرافقين له كي ينتظروه واصطحب إلهامى إلى داخل الحانة ووقف معه فى ركنٍ خفيٍّ وهو يشير له إلى إحدى الموائد قائلاً: ها هما الشقيان اللذان قاما بقتل الباشا.

إلهامى: هل أنت واثقٌ من أنهما الشخصان اللذان اقترفا الجرم.

إسماعيل: تمام الثقة .. إن لى رجالاً يعملون تحت إمرتى هنا .. أمرتهم أن يقتفوا أثرهما منذ وصلا إلى إسطنبول حتى الآن.

إلهامى: ألا زلت لا تريد أن تخبرنى عن الشخص الذى قد اكتراهما لاقتراف تلك الجريمة؟

إسماعيل: أقسم لك أنى لا أعلم عن ذلك شيئاً .. ولو أنى كنت أعلم
لأخبرتكم كما أخبرتكم الآن بأمر هاذين الشقيين .. ولو شئت أن أخفى عنك
أمرهما لما كنت تدرى لهما الآن خبراً.

هز له إلهامى راسه متفهماً وهو يقول: إنى أشكرك على حسن
صنيعك وتعاونك معى يا إسماعيل.

إسماعيل: لا تشكرنى على واجبى يا أخى فهذا حقك على .. ولا تنس
أننا عائلة واحدة.

ثم صافحه قائلاً: لقد أنهيت آخر مهمى هنا وسأنطلق غدًا قافلاً
للمحروسة .. وأتمنى أن أراك هناك بأقرب وقت.

صافحه إلهامى بدوره وهو يقول: الله أعلم بما تحمله لنا الأيام
القادمة بين طياتها يا إسماعيل.

إسماعيل: ألا زلت لا تريدنى أن ألزمك فى ..

قاطعه إلهامى فى صرامة: أشكرك يا إسماعيل .. ولكن هذا ثأر أبى ..
ولى وحدى حق الأخذ به.

وانطلق صوب المائدة التى يجلس عليها الفتیان يحتسيان فى شبق
أكواب الخمر الموضوعة أمامهما ووقف برهة يرقبهما حتى تنبها له فقال
لهما مباشرة: لماذا قتلتما والى مصر عباس باشا؟

كان سؤاله مفاجئاً ومباشراً إلا أن ردة فعل الفتیان جاءت سريعة هى
الأخرى فتحركا فى سرعةٍ وتوافقٍ كبيرٍ فدفعا المائدة بما عليهما فى تجاه
إلهامى ولاذا بالهرب ولكن العجيب أن إلهامى كان يتوقع ردة الفعل تلك

وكان ذلك هدفه من السؤال المباشر الذى وجهه لهما فقد كان ينتظر منهما أن ينكرا معرفتهما بالوالى ويتصرفا بجهدٍ واضحٍ مما يجعله يشك في أمر ارتكابهما للجرم أو يتصرفا باندفاعٍ كما حدث وهذا يؤكد ارتكابهما للجرم لذا عندما دفعا بالمائدة تجاهه تراجع خطوة للخلف ثم انطلق في إثرهما برشاقةٍ بالغةٍ .. ورغم ضيق المكان واكتظاظه بالناس الذين انطلقوا بهرولون خارجين من المكان يتصايحون وقد أفرزتهم المطاردة .. إلا أن الفتیان قد استغلا هذا الهرج والمرج فانطلق كلُّ منهما في اتجاه فتبع إلهامى أقرههما منه والذى صعد فارًّا على الدرج المؤدى للدور العلوى واقترح إحدى الغرف غير عابئ بالصراخ المنطلق من الفتاة التى كانت تتوارى داخل الغرفة لتبيع الهوى مقابل المال لأحد الزبائن وهَمَّ الفتى بالقفز من النافذة لولا أن تمسك إلهامى بقدميه فى اللحظة الأخيرة وجذبه فى شدةٍ وأخذ يكيل له اللكمات فى غضب وهو يصيح: لماذا قتلتموه؟ .. أخبرنى من دفعكم لارتكاب هذا الجرم؟ .. أخبرنى وإلا قتلتك بيدي هاتين .

ولكن الفتى ثنى ركبته ودفع قدمه فى بطن إلهامى الذى شهق من الألم وتراخت يده الممسكة بالفتى فدار حول عقبية وقفز من النافذة وهبط على قدميه وقد ثناهما ليتمتص أثر الارتطام وتحامل إلهامى على نفسه فشاهد الفتى وهو بهرول مبتعدًا فتذكر أباه القتيل والذى ستذهب دمائه سُدَى لو فر منه هذا الأثم فقفز خلفه غير مبالٍ بحياته وهبط على قدميه إلا أنه شعر بالآلم مُبرحةٍ فى قدمه تدل على تهشم كاحله .. ونظر له الفتى وهو يبتسم فى سخرية وهو يواصل طريقه للفرار .. وانطلق دوى رصاصة يشق سكون الليل وتجمدت ابتسامه السخرية على شفقتى الفتى وهو يخر جثةً هامدةً والدخان يتصاعد من فوهة مسدسٍ يستقر بيد إلهامى وهو راقدٌ على الأرض يلهث من أثر المجهود المبذول والانفعال ثم قال متممًا

وهو ينظر لجئته الفتى الراقدة على البعد منه: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا
أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" 179 البقرة.

خرج شريف من عند سعيد باشا تعلو وجهه ابتساماً مشرقة وتطل
من عينيه علامات البشر والحبور فاستقبله إسماعيل وعلى مبارك في
لهفة بالغة حيث قال له إسماعيل: هيا أخبرني بكل ما حدث بينك وبين
سعيد باشا ولا تنس أدق التفاصيل.

عَلَّقَ على مخاطبًا إسماعيل: اصبر عليه قليلاً حتى يلتقط أنفاسه
ونجلس في مكان هادئ ثم يخبرنا بما حدث معه.

إسماعيل بعناد: لن أنتظر .. ولن أصبر .. هيا انطق تكلم يا رجل ..
وأخبرنا بما حدث؟

ابتسم شريف قائلاً: حسناً حسناً سأخبركما بكل شيء.

ثم استطرد قائلاً: لقد استقبلني سعيد باشا بالترحاب وهشَّ في وجهي
وبش وقال لي: إن إبعاد شخص مثلك عن العمل بالدولة لهو خسارة كبيرة
يصعب تعويضها يا شريف بك .. فسيرتك العطرة تسبقك وتزيد من قدرك
ومواقفك العظيمة التي تحملت مغبة نتائجها في شجاعة وثبات نقدرهما
لك وقد أثبتت الأيام أن وجهة نظرك على الرغم من حداثة سنك هي
الأصح .. فعندما احتدمت الخطوب وصار لزاماً علينا خوض غمار الحرب
لم نجد خيراً من الجند المصريين ليمثلوا دولتنا العلية ويرفعوا رايتها
عالية خفاقة كما فعلوا ذلك في سابق عهودهم.

ثم أشار لكاتبه فأعطاه خطابًا مغلقًا و أوضح الباشا قائلاً: هذا خطابٌ يعيدك إلى صفوف الجيش من جديد .. كما يحوى ترقية إلى رتبة أميرالاي الحرس الخصوصي لنا.

انحنى شريف مقبلاً يد الوالى وهو يقول: هذا فضل كبير تنعمونه علينا يا أفندينا .. أتمنى من الله أن أكون عند حسن ظنكم فى.

سعيد: إننا نثق فيك ونعول على قدراتك كثيراً يا شريف بك .. تفضل لتستلم مهام وظيفتك الجديدة.

وتراجع شريف لاهجاً بعبارات الشكر حتى خرج من عند الوالى

عقب شريف وهو يتابع حديثه مع أصدقائه قائلاً : هذا هو كل ما حدث بينى وبين أفندينا.

ثم نظر لإسماعيل بامتنان قائلاً: وإنى أعلم أن كل هذا لتزكيتك لى عند الباشا ولا أدرى كيف أشكرك على هذا المعروف.

إسماعيل بمرح: تشكرنى على ماذا؟ إننى لم أفعل شيئاً .. ولا تنسَ أن سعيد باشا يعلم عنك وعن والدك رحمه الله الكثير ويعتبرك كما كان والده محمد على باشا واحداً من أبنائه وخاصته.

على مبارك: أشعر أن الأيام القادمة تحمل لنا بين طياتها الخير الكثير فأنا مستمتع بالعمل كمدير لديوان المدارس الملكية.. وأنت يا إسماعيل فقد زالت غربتك وعدت ثانية لأحضان وطنك بين أهلك ومحبيك كما أنك الآن تشغل أكبر منصب قضائى فى البلاد وهو مجلس الأحكام .. وأنت يا شريف عدت إلى صفوف الجيش من جديد بل وكانت عودتك بمنصبٍ هامٍ يلائم إمكاناتك المتميزة .

إسماعيل: إن كل هذا لا يمثل شيئاً عند شريف وإننى لأعلم ما يتمناه عقله ويصبو إليه فؤاده .. إنه الآن لا يحلم إلا بإتمام زواجه من كريمة سليمان باشا كي تكتمل سعاداته وبهجته.

ابتسم شريف وهو يقول: إن الإنسان خلق بنفسٍ تواقفةٍ لا تكل ولا تمل من الأمانى والأحلام .. وإما أن يلاقى المرء المناخ المناسب الذى يساعده على تحقيق أحلامه ويجد من يتحمس لأحلامه ويساعده على تحويلها لواقع .. وإما أن يحدث العكس وساعتها تموت الأحلام فى مهدها وتندثر داخل صدور أصحابها .. حتى يفقد الناس القدرة على الأحلام والأمنيات .. ولكنى أحسب أننا الآن نحيا عهداً جديداً .. عهداً يتفهم رغبات الناس ويسمح بتحقيق الأمانى والأحلام.

كانوا قد وصلوا إلى حديقة القصر الغنائية فساروا بين دروبها العطرة والتى ساعد بهائها أن يغيب كل منهم فى أحلامه .. وأفكاره .. وأمنياته.

فمنهم من يحلم بتحقيق الذات داخل العمل ..

ومنهم من يحلم بالحكم والإمارة ..

ومنهم من يحلم بالحب ..

ولكن كما قيل من قبل أن يجدوا المناخ الذى يحققون فيه .. أمالهم .. وأحلامهم .. وأمانهم.

تمت بحمد الله

obeikandi.com

obeikandi.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر



noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007